٥٩٧
٤١٢
١٠٩٧

القضايا الادبية في مقدمة ابن خلدون

٨٣٦٨٦

١٠
٢٧٤٤

الطالب : غسان اسماعيل عبد الخالق القطافطة
المشرف : الاستاذ الدكتور هاشم ياغي

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها من كلية الدراسات العليا في الجامعة الاردنية

١٩٨٩م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢١/ ١٢/ ١٩٨٩ وأجيزت

لجنة المناقشة :

١. الاستاذ الدكتور هاشم ياغي (مشرفا)

٢. الاستاذ الدكتور نهاد الموسى (عضوا)

٣. الاستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن (عضوا)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتويـــــــــات

الفصل الاول : ابن خلدون ـ محاولة للتأصيل : ١ ـ ٣٠

ـ اضاءة ١
ـ موجز سيرته الذاتية ١
ـ موجز سيرته العلمية ٥
ـ آراء الدارسين فيه من القدماء والمحدثين ١٧
ـ موقع القضايا الادبية من المقدمة ٢٤
ـ حظ القضايا الادبية من الدراسة ٢٥

الفصل الثاني : المنهج والبيئتان : العامة والخاصة ـ مدخل الى التأصيل : ٣١ ـ ٥١

ـ اشارة . ٣١
ـ منهج ابن خلدون العام . ٣١
ـ بيئة ابن خلدون العامة والخاصة . ٣٥

الفصل الثالث : القضايا اللغوية في المقدمة : عرض وتحليل: ٥٢ ـ ٨٩

ـ مهـاد . ٥٢
ـ قضيـة النحو . ٦٦
ـ قضيـة اللغة ٧٩

الفصل الرابع : القضايا الادبية في المقدمة : عرض وتحليل: ٩٠ ـ ١٢٦

ـ مهـاد ـ ٩٠
ـ بين يدي القضايا الادبية . ٩٩
ـ قضية النظم والنثر . ١٠٣
ـ قضية اللفظ والمعنى . ١٠٧
ـ قضية الشعر ١٠٩
ـ قضية الموشحات والازجال. ١١٥

الخاتمـة :

المصادر والمراجـع ١٢٧ ـ ١٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

لقد حظيت المقدمة لما انطوت عليه من مباحث هامة في التاريخ والاجتماع والاقتصاد السياسي ،بدراسات معمقة عربية واجنبية في هذه الحقول . جعلتها تتبوأ موقع الصدارة بين آثار الحضارة العربية الاسلامية ،من حيث هي تتويج للجهود النظرية السابقة ، وتكثيف لحالة وعي على عوامل الانحطاط والنهوض في هذه الحضارة .

ولاسباب تتعلق باولويات النهضة العربية في العصر الحديث كما رآها رواد النهضة ، فقد اتجهت جل الجهود لدراسة الجوانب الاجتماعية والفلسفية في المقدمة . في الوقت الذي كانت قد حظيت فيه باهتمام غير مستشرق اوروبي ،لاسباب تتعلق بالرغبة في الوقوف على فكر مفكر لامع مثل ابن خلدون من جهة ،ومقارنة فكره بافكار نظرائه من اعلام الحضارة الاوروبية بدءا بمكيا فللي وانتهاءا بكارل ماركس .

ولقد استمر الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والفلسفية من المقدمة غالبا على جهود الباحثين ،الى ان التفت بعض الدارسين بتأثير النظريات اللغوية والالسنية الحديثة ، الى ما انطوت عليه المقدمة من مباحث ادبية ،فاتجهت جهودهم الى دراسة هذه المباحث بغية ابراز هذا الجانب فحسب في المقدمة ،وتوسطت بين الاشارة الى اهمية نظرات ابن خلدون والتنويه بما انطوت عليه من ملاحظات تتفق مع المدرس اللغوي الحديث . ولعل دراسة الدكتور محمد عيدالموسومة (الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون) خير نموذج لهذا الاتجاه .

واتجهت جهود البعض الى دراسة هذه المباحث في ضوء المعطيات اللغوية الالسنية الحديثة فحسب ،وأدت - رغم كل الاحترازات - الى اظهار ابن خلدون في اهاب المفكر اللغوي الحديث ،فبدأ اقرب الى (نوام تشومسكي) وغيره من اعلام الفكر اللغوي الاوروبي ،منه الى ابن مضاء وابن جني من اعلام الفكر اللغوي العربي . ولعل دراسة الدكتور ميشال زكريا الموسومة (الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون) خير نموذج لهذا الاتجاه .

واتجهت جهود البعض الى دراسة هذه المباحث في سياق التراث العربي ، النقدي والادبي ،فابرزت موقع ابن خلدون في هذا السياق ،ومدى تأثره بمن سبقه ومقدار اضافته الشخصية . ولعل الفصل الذي ختم به الاستاذ الدكتور احسان عباس كتابه القيم (تاريخ النقد الادبي عند العرب) هو خير نموذج لهذا الاتجاه .

غير ان الفصل الذي ختم به الدكتور احسان عباس كتابه - على صواب نهجه - ظل مع ذلك غير واف بالغرض لاكثر من سبب : فقد جاءت دراسة موجزة لنظرات ابن خلدون بحكم ان الدكتور احسان عباس قد اهتم بتأريخ ودراسة نظرية النقد عند العرب على امتداد قرون . مما لم يسمح بافراد ابن خلدون بدراسة مستقلة شاملة . وجاء خاصا بآراء ابن خلدون في الشعر ، بحكم ان الدكتور احسان عباس قد اهتم بتأريخ ودراسة نظرية النقد عند العرب فيما يتصل بالشعر .

وهكذا فقد حذا بي عدم الاهتمام كما ينبغي بالقضايا الادبية في مقدمة ابن خلدون ، واتجاه بعض الدراسات الى تغريب جهود ابن خلدون الادبية ،وعدم استيفاء دراسة ابن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خلدون في سياق التراث الادبي العربي - الى دراسة القضايا الادبية في مقدمة ابن خلدون . بغية جلاء هذا الجانب من المقدمة ، الذي لا يقل أهمية بحال من الاحوال عن أي جانب اجتماعي أو فلسفي أخر .

وكأي باحث ،فقد واجهتني بعض المعوقات التي ارجو ان اكون قد تغلبت عليهـا . وتبرز كثرة المراجع في طليعة المعوقات . وقد يستغرب البعض هذا الكـلام لان الباحثين اعتادوا الشكوى من قلة المراجع ،لولا أنه ما من علم من أعلام التراث حظي بالاهتمام والدراسة التي حظي بها ابن خلدون شرقا وغربا ،بحيث اننا لو اردنا ان نحصي ما كتب عن ابن خلدون في اللغة العربية وغيرها من اللغات لاعوزنا الحصـر . ومن هنا برزت صعوبات عدة منها: ضرورة الاختيار بين هذا الكم الهائل من المراجع عن ابن خلدون ،والخشية دوما من احتمال ان اكون قد قدمت كتابا مهما على كتاب أهم .

وعلى أية حال فقد حاولت ان اتجاوز هذا المعوق اعتمادا على انني مهتم بالجانب الادبي فحسب ،ومن ثم فأنا لست في حاجة الى المراجع التي عالجت الجوانب الاخـرى الا في حدود ما يتصل بموضوع بحثي .

ومع ذلك ،فما زلت حتى هذه اللحظة ،معتقدا أنه قد فاتني قدر ليس باليسير مـن الملاحظات التي قد تكون مهمة في هذا المرجع أو ذاك مما لم اطلع عليه . اذ ما زلت أقرأ ان كتابا صدر بهذه اللغة او تلك عن ابن خلدون ،وما زلت اسمع من هـذا الاستاذ او ذاك الصديق ان الكتاب كذا هو مما لا ينبغي تجاوزه .

وتتمثل ثانية هذه المعوقات في ان معظم المراجع الحديثة ،هي مما وضعه باحثون اكفاء مرموقون ،فكان من غير السهل على باحث شاب مثلي ان يتصدى بالرد احيانـا لهؤلاء الباحثين ويكفي ان يكون عميد الادب العربي المرحوم الدكتور طه حسين واحدا منهم .

الا انني وجدت لزاما علي ان لا اتهيب المخالفة ،مقتديا في ذلك بالرجل الـذي ادرس جانبا من جوانب فكره ،ولعمري فما كان لي ان ادرس ابن خلدون ،هذا المفكر الجريء ،ثم لا اقبس منه خصله من خصاله .

وتكمن ثالثة هذه المعوقات في المقدمة نفسها . اذ هي تمثل تتويجا لجهود نظرية متنوعة تمخضت عنها الحضارة العربية الاسلامية على امتداد سبعة قرون ،مما أملـى علي العودة الى كثير من المصادر مستكشفا العلاقات التي تشد خطاب المقدمة الـى خطاب غيرها من الآثار .

ولقد اعتمدت في دراستي للقضايا الادبية في المقدمة ،منهجا شموليا ،يستند الى الاستقراء فالتحليل فالتركيب . بحيث الـيت على نفسي استقراء كل نص لابن خلـدون في ضوء نصوص المقدمة او غيرها من آثار ابن خلدون . بغية تفسير ظاهر خطاب ابـن خلدون ومضمره ،بما توفر من اشارات له . وفي الحالات التي لم اتمكن فيها مـن استقراء نص في ضوء نص آخر عمدت الى الاجتهاد الشخصي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عملت على تحليل كل نص الى عناصره الاولية ثم اعادة تركيب هذا النص ،مقيما من هذه العناصر مفهوما رئيسا يسهل على الباحث التعامل مع قضايا او محاور مركزية بدلا من التعامل مع جزئيات ومسائل صغيرة "تشتت جهده وتحول دون الوقوف على العلاقات التي تحكم كل قضية على حدة ،وكان اكثر اعتمادي في هذه الدراسة على (المقدمة)نفسها في المقام الأول ،ثم على (التعريف) في المقام الثاني ،فديوان (العبر) في المقام الثالث،فكتب التواريخ التي ترجمت لابن خلدون في المقام الرابع .

وأما عن الرؤية التي استندت اليها في هذه الدراسة ،فهي الرؤية التاريخية الاجتماعية . التي املت علي ضرورة النظر الى القضايا الادبية في مقدمة ابن خلدون في سياقها الحقيقي ،اعني سياق التراث النقدي والادبي واللغوي في الحضارة العربية الاسلامية ،وليس في أي سياق آخر . ومن ثم فقد احترزت ما وسعني ذلك - من اسقاط أي مفهوم لغوي أو ادبي حديث على منطوق ابن خلدون .

وهكذا ،فان هذه الدراسة جاءت مقتصرة على هذا المستوى الاساسي والملح ،ولم تتجاوزه الى مستوى دراسة هذه القضايا في ضوء الفكر اللغوي الاوروبي الحديث او مقارنتها بهذا الفكر ،لثانوية هذا المستوى قياسا الى ضرورة انجاز المستوى الاول، واقتداء بالحديث المأثور (رحم الله امرءا عرف قدر نفسه) ، اذ ان روح البحث الموضوعي تملي علي عدم ادعاء الالمام بمعطيات علم اللغة الحديث والفكر اللغوي الاوروبي .

وان كانت روح البحث العلمي قد املت على عدم ادعاء الالمام بمعطيات علم اللغة الحديث ،فان من الضرورة بمكان الاشارة الى ان دراستي للقضايا الادبية في مقدمة ابن خلدون قد جاءت دراسة (فينومينولوجية) ،أي دراسة لهذه القضايا في تظاهراتها العامة وعلاقاتها الخارجية . فلم أخض في تفاصيل او جزئيات متخصصة .

وعلى سبيل المثال فقد عنيت بدراسة قضية النحو عند ابن خلدون دراسة تاريخية تتعلق بصيرورة هذا العلم في التراث العربي ،في تداخلاتها مع علوم اخرى من فلسفة وعلم كلام واجتماع . ولم أعن بدراسة قضية النحو من حيث هو رفع ونصب وجر واعراب وعوامل وعلل . وللحق ،فقد املت علي المقدمة نفسها هذه الوجهة من الدراسة ، اذ ان ابن خلدون لم يخض في مسائل جزئية ،قدر ما أرّخ وحلل ظواهر لغوية وأدبية في ضوء عوامل تاريخية واجتماعية .

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة . فمثل الفصل الاول تكثيفا للقضايا المحورية العامة في فكر ابن خلدون ، التي يحسن بالباحث ان يلم بها . فترجمت له ملقيا الضوء على تاريخ اسرته وسيرته الذاتية في تعرجاتها الكثيرة . وترجمت لاساتذته وتلاميذه ،وعرضت لكتبه ، التي وصلت الينا والتي فقدت . وابرزت جانبا من اراء القدماء والمحدثين فيه . وعينت موقع القضايا الادبية من المقدمة ، وحظها من الدراسة عند الباحثين المحدثين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلي بذلت في هذا الفصل جهدا خاصا - بتشجيع من استاذي الكريم - ليكون مرجعا مفيدا لكل من اراد دراسة ابن خلدون ،بغض النظر عن وجهة هذه الدراسة . فجاء محتويا على توثيق بعض ما لم يهتم الباحثون السابقون بتوثيقه .

ومثل الفصل الثاني تحليلا لمنهج ابن خلدون العام في المقدمة ،واستقصاء للمؤثرات العامة والخاصة في هذا المنهج . وما ترتب عليه من نظرات في الادب واللغة ، وقد حاولت في هذا الفصل ابراز العلاقات الظاهرة والمضمرة التي تشد ابن خلدون الى دعوة الموحدين والى المذهب الظاهري ،أهم روافد هذه الدعوة .

وحيث ان ابن خلدون قد تصدى للتأريخ لعلوم اللسان العربي ،انطلاقا من مفهومي الملكة والمحفوظ بالمعنى الجمعي والجدلي لهذين المفهومين كما اوضحت ذلك في خاتمة هذه الدراسة . فقد وجدت لزاما علي ان اتوقف لدراسة القضايا اللغوية في فصل ثالث تمهيدا لدراسة القضايا الادبية ،اذ لا سبيل الى الفصل بينهما اولا ، ولا سبيل الى الوقوف على كنه نظرات ابن خلدون في الادب دون الوقوف على نظراته في اللغة ثانيا .

وقد قدمت لهذا الفصل بمهاد استعرضت فيه معظم المسائل التي عرض لها ابن خلدون . ثم عمدت بعد ذلك الى عرض هذه المسائل وتحليلها محاولا اظهار مدى تأثر ابن خلدون بمن سبقه الى البحث في هذه المسائل ،وابراز ما تميز في التوصل اليه بجهده الخالص .

وأما الفصل الرابع ،فقد جاء تكثيفا للقضايا الادبية في اربع قضايا رئيسة : قضية النظم والنثر ،وقضية اللفظ والمعنى ،وقضية الشعر ،وقضية الموشحات والازجال.

وقد ابرزت في حدود القضية الاولى فصل ابن خلدون بين اسلوب النظم والنثر مما يجعله متميزا عن كثير ممن لم يضع حدا فاصلا بين الاثنين . واظهرت دعوته للعودة الى مدرسة البيان العربي الاصلية ،بعيدا عن التكلف والمحسنات . كما توقفت عند انحيازه للفظ على حساب المعنى على نحو يدعو للاستغراب ،وحاولت تعليل هذا الانحياز. واولييت قضية الشعر عنده اهتماما خاصا ،لما انطوت عليه احكامه الخاصة بذلك ،من ملاحظات هامة . وقمت باستعراض ملابسات واقعة نقله فصلا كاملا عن الموشحات والازجال من كتاب (المقتطف من ازاهر الطرف) لابن سعيد المغربي ،مبرزا عدم اهتمام محقق المقدمة ومعظم الباحثين المحدثين بالاشارة الى هذه الواقعة ،والى ما بذله الاستاذ الدكتور المرحوم عبد العزيز الاهواني من جهد للتعامل مع هذه الواقعة كما هي في حجمها الطبيعي . خالصا الى ان هذا الفصل هو مما تجب دراسته في كتاب (المقتطف) بشكل خاص ،وفي اطار جهود ابن سعيد المغربي بشكل عام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اضـــــــاءة :

قد تبدو غريبة حقا ، الرغبة في تأصيل شخصية ابن خلدون ،في عصر بات يعرفه فيه القاصي والداني ،في المشرق والمغرب،ناهيك عن عشرات الكتب والبحوث التي اشبعته درسا وتحليلا . غير أنني لما أزمعت دراسة ناحية لم تسلط عليها أضواء البحث للآن ،بما يكفي لاعتبارها ناحية مجلوة في فكر ابن خلدون الواسع ،فضلت ان أتسلسل في دراستي لها بدءا من سيرته الذاتية العامة ،مرورا بسيرته العلمية الخاصة ،فانتهاء بآرائه في القضايا الأدبية التي تأثرت دون شك بالايقاع الخاص لسيرة حياته المتميزة .

هذا من جهة ،ومن جهة أخرى ،فلا مشاحة في أن زاوية النظر الى حياة انسان ما تسهم الى حد بعيد في ترتيب الكثير من الاحكام على آرائه ،ولذلك فقد آثرت ان اقدم بين يدى هذه الدراسة أى دراسةٍ القضايا الادبية في مقدمة ابن خلدون ،عرضا مكثفا يبرز أهم اللمحات في سيرته دون التفصيل في ترجمة حياته ،بغية شد اركان القضايا الأدبية في المقدمة الى اركان حياة كاتبها .

آ- موجز سيرته الذاتيـــــة :

قليل من الاعلام في تراثنا ،من قيّض لهم الظفر بترجمة وافية عن حياتهم ،وقد زاد ابن خلدون على هذا القليل بان ترجم لنفسه ترجمة مطولة ألحقها بتاريخه الكبير ،فكفى المترجمين مؤونة البحث .

على انه في معرض الخوض في سيرة ابن خلدون ينبغي الاحترازُ من أمرين :

الأول : عدم تبسط ابن خلدون في الحديث عن حياته الشخصية المحضة ،واكتفـــاؤه باشارات عابرة لا تفي بالغرض أحيانا .

الثاني : الحذر من اخذ كل ما يقوله ابن خلدون عن نفسه على علّاته ،وضرورة عرضه على منطق البحث الموضوعي ،والواقع التاريخي الذي عايشه .

وفي الوقت الذى سنتخذ من هذه الترجمة الذاتية مستندا أول نستقرئ منه احداث حياته ،فاننا سنشير الى ما طرأ بتأثير هذه الاحداث على فكره من تطور.

١- اسمه ونسبه ومولـــده :

هو كما ترجم لنفسه (عبد الرحمن بنُ محمدِ بنِ محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بنِ ابراهيمَ بن عبد الرحمن بنِ خلدونَ) ،اشبيلي الأصل ،ينتهي نسبه الـــى حضرَموتَ في اليمن . من بيت نابه ذى علم ورياسة وتمرس في المناصب الرفيعـــة ، طوال أيام الدولة الاموية في الاندلس ،وحتى عصر الطوائف[1] وقد انتقلت اسرته من اشبيلية

(١) ابن خلدون - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ،عارضه باصوله وعلق حواشيه محمد بن تاويتَ الطبخي ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ،١٩٥١: ١-٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى سَبْته [١] في المغرب الاقصى ،ثم الى بُونة [٢] في الجزائر ،منتصف القرن السابع [٣].

وكما كان لاسلافه سابقة في الاندلس ،فقد كان لهم سابقة في افريقية مع الموحدين [٤] ،وكان احد اجداده قد اهدى للامير يحيى بن عبد الواحد الحفصي ابي زكرياء ،ابن شيخ الموحدين ابي حفص [٥] ،جارية لانجاب الولد ،ثم اصبحت تلقب امّ الخلفاء ولم يتوان اجداده عن (عمل الاشغال في الدولة ،على سنن عظماء الموحدين فيها ... من الانفراد بولاية العمال ،وعزلهم وحسبانهم على الجباية) [٦].

وكان جده الادنى (محمد بن خلدون - ت ٧٣٧هـ) [٧] رجل دولة مخضرما عمل لاكثر من امير حفصي ،الا انه نزع في اخريات ايامه الى طريقة العلم والرباط ،وزَهِد في الجباية ،ولزم فقيها اوكل اليه مهمة تفقيه ابنه ،والد صاحبنا عبد الرحمن .

وقد نشأ هذا الوالد فقيها أديبا ،اذ يظهر من كلام ابنه عنه انه كان على حظ وافر من صناعة العربية والشعر ،وانه كان محكّما بين الشعراء . وفي مستهل رمضان سنة ٧٣٢هـ ولد له ابنه عبد الرحمن في مدينة تونس [٨].

٢. أهم أحداث حياته :

بدأت حياة عبد الرحمن ابن خلدون العملية ،في سنة ٧٤٨هـ [٩] ،ففيها قام السلطان المريني [١٠] ابو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب (ت ٧٥٢هـ) بغزو مدينة تونس مصطحبا

---

(١) بفتح السين وسكون الباء ،وتقع على ساحل البحر المتوسط ،انظر ،ابن خلدون - التعريف : ١١ .

(٢) بضم الباء وتسكين الواو ثم فتح النون ،وتقع على ساحل البحر المتوسط ،انظر ابن خلدون - التعريف : ١٣ .

(٣) ابن خلدون - التعريف : ١٠ ،١١ .

(٤) دولة كان لها اثر بعيد في تاريخ المغرب العربي والاندلس ،قامت على يد (الامام المهدى بن تومرت) محمد بن عبد الله ،سنة ٥١٤هـ ،واستمرت حتى النصف الثاني من القرن السابع الهجرى . انظر، ابن خلدون - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر من عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ،بيروت ،١٩٦٨ : ٤٦٠/٦ - ٤٧٢.

(٥) هو ابو حفص عمر بن يحيى بن محمد الهنتاني ،كان من العشرة الملازمين للمهدى ونظن انه كان صاحب اليد الطولى في استتباب الامر للموحدين عموما ،ولعبد المؤمن ابن علي اول خليفة موحدى على وجه الخصوص ،وكان الموحدون يخصونه بلقب الشيخ وهو لقب يوحي بالمكانة والنفوذ اللذين كان يتمتع بهما ،وقد أنشأ اولاده من بعده الدولة الحفصية ذات النهج الموحدى . انظر ،ابن خلدون - العبر : ٥٥٧/٦ وما بعدها .

(٦) ابن خلدون - التعريف : ١٢ .

(٧) المصدر السابق : ١٤ .

(٨) المصدر السابق : ١٤،١٥

(٩) المصدر السابق : ١٥ .

(١٠) المصدر السابق : ١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معه جماعة من اهل العلم كان يحرص على تزيين مجلسه بهم[١]. ولعل قدوم هذه الجماعة من العلماء اسهم في تشكيل وعي مبكر لدى ابن خلدون ،خاصة وأنهم كانوا اعظم علماء افريقية قاطبة .

وفي عام ٧٤٩هـ أحات (الطاعون الجارف)[٢] بالبلاد ،واهلك خلقا كثيرا من بينهم والد ابن خلدون وغير قليل من اساتذته[٣]. ويبدو أن هذا الوباء ترك في ذاكرة ابن خلدون جرحا لم يندمل ،ليس لأنه حرمه والده الذي كان له في نفسه مكانة خاصة وليس لانه حرمه بعض اساتذة الذين كان يجلهم ،ولكن لانه جرعه مرارة القسوة في الحياة وفي الطبيعة مما قد يلمح في آرائه حول العمران البشري واثر البيئة في هذا العمران .

وفي عام ٧٥٢هـ تقلد ابن خلدون اول منصب رسمي وهو يناهز العشرين من عمره ، اذ التحق بأبي محمد بن تافراكين (المستبد على الدولة بتونس) لكتابة العلامة للسلطان ابي اسحق[٤] ،فكان ذلك المنصب فاتحة طريق طويل في السياسة .

وفي مستهل عام ٧٥٨هـ سجنه السلطان المريني ابو عنان فارس بن عثمان بن يعقوب (ت ٧٥٩هـ) بتهمة التآمر مع امير بجاية الحفصي ،وقضى في السجن عامين تقريبا ،لم ينقذه منه سوى موت السلطان على يد وزيره (ابن عمر) الذى بادر الى اطلاق سراح ابن خلدون مع نفر آخرين كانوا في السجن[٥].

وفي عام (٧٦٤هـ) التحق ابن خلدون ببلاط بني الأحمر في الاندلس ،بتمهيد من صديقه ابن الخطيب ،حيث قام بسفارة ناجحة لدى ملك قشتالة الذى اعجب به وعرض عليه الاقامة في اشبيلية واعادة املاك اجداده اليه الا ان ابن خلدون اعتذر له عن ذلك بعذر حسن[٦].

ولعل هذه السفارة قد عمقت في وعي ابن خلدون الفارق الكبير بين واقع التفسخ والتقهقر في العالم العربي والاسلامي وواقع النهوض وتنامي الروح العسكرية في العالم الاوروبي . والناظر في مقدمة ابن خلدون يلحظ كثرة استشهاد ابن خلدون بالاندلس في معرض حديثه عن العمران البشرى[٧].

---

(١) ابن خلدون ـ التعريف : ١٩ ،٤٤ ،٤٥ .

(٢) هكذا يصفه ابن خلدون ،في غير موضع من التعريف .

(٣) يضيف قائلا عن هذا الطاعون : (فطوى البساط بما فيه) . انظر ، التعريف : ٢٧

(٤) المصدر السابق : ٢٧ ،٥٥

(٥) المصدر السابق : ٦٦ ،٦٧ ،٦٨ .

(٦) المصدر السابق : ٨٤ ،٨٥

(٧) كان قد جاز الى الاندلس مرة ثانية في ربيع (٧٧٦هـ) قبل ان يعود الى تلمسان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي عام (٧٧٦هـ) ،عاد الى تلمسان[١] مزمعا التفرغ لبث العلم ، الا أن سلطانها آنذاك أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن[٢] بدا له ان يسفر ابن خلدون ليوءلف قلوب بعض القبائل ،فأظهر الطاعة واضمر اللحاق بأولاد عريف في جبل كرزول[٣].وقد تم له ما اراد اذ تلقاه اولاد عريف بالتجلة والاكرام ،وارسلوا للسلطان من أحسن الاعتذار اليه عن ابن خلدون ،وانزلوه واهله في قلعة ابن سلاَمَة[٤]،فأقام فيها اربعة اعوام ،غير عابيء بشيء سوى الانكباب على تأليف تاريخه (العبر) متوجا هذا التاريخ بمقدمته على (ذلك النحو الغريب الذى[٥] (اهتدى) اليه في تلك الخَلوة ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفِكَر) وقد اتمها بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في منتصف عام ٧٧٩هـ[٦].

وفي عام (٧٨٤هـ) ركب ابن خلدون البحر مظهرا العزم على قضاء فريضة الحج[٧]، وصادف بلوغَه الاسكندرية مرور عشر ليال على جلوس الملك الظاهر برقوقٍ (ت ٨٠١هـ)[٨] على كرسي الحكم في مصر ،فقصد القاهرة حيث توافد عليه طلاب العلم ،فتفرغ للتدريس لهم بالجامع الازهر . ولم يَطل أمر اتصاله بالملك الظاهر الذى اجرى عليه راتبا ،ولما توفي احد المدرسين في مدرسة القمحية التابعة لوقف صلاح الدين الايوبي ،حل محله ،ثم ما لبث ان اصبح قاضي المالكية لاول مرة ،وكان ذلك في سنة (٧٨٦هـ)[٩].

وفي هذه السنة أيضا ،نكب ابن خلدون بأهله ،بعد ان كان الملك برقوق قد كتب في شأن لحاقهم بمصر مستشفعا له عند سلطان تونس ،اذ غرقوا جميعُهم في البحر ،مما دفع ابن خلدون الى الخروج عن المنصب والزهد في الدنيا والتفرغ للعلم والقراءة والتدريس[١٠].

---

(١) تِلِمْسان : بكسر التاء واللام وتسكين الميم والسين ،مدينة في المغرب . انظر المصدر السابق: ١٣ ،هامش(١)

(٢) المصدر السابق : ٩٦ وما بعدها .

(٣) جبل يقع في جنوب مدينة تيارت في الجزائر ويبعد عنها ١٠ كيلو مترات . انظر المصدر السابق : ٢٢٨ ،هامش(٣).

(٤) قلعة تقع في مقاطعة وهران في الجزائر ،وتنسب الى سلاَمَة بن علي بن نصر انظر ، المصدر السابق : ٢٢٨ ،وهوامشها(٤ ،٥).

(٥) المصدر السابق : ٢٢٩ .

(٦) المصدر السابق : ٣٨٤ .

(٧) المصدر السابق : ٢٤٦ .

(٨) للاطلاع على اخباره مفصلة . انظر ،ابن خلدون ـ العبر : ٤٦٧/٥ وما بعدها .

(٩) ابن خلدون ـ التعريف : ٢٤٩ وما بعدها .

(١٠) المصدر السابق : ٢٥٩ ،٢٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي عام (٨٠٣هـ) ركب ابن خلدون مع السلطان فرج ابن الملك الظاهر برقوق ، الذي خرج الى دمشق لملاقاة تيمورَ لنكَ قائدِ التتار[١] ،وبعد انتظار وترقب دام اكثر من شهرين ،قفل السلطان عائدا الى مصر مخلفا ابن خلدون مع من خلّف ،عندما بلغته انباء فتنة تضطرم في مصر ،فما كانمن قضاة دمشق وفقهائها الا ان اجمعوا أمرهم على طلب الامان من تيمور لنك ،مخالفين بذلك نائب السلطان ،وقد اعطاهم تيمورَ لنكُ الامانَ وسألهم عن ابن خلدون فأخبروه بتخلفه في دمشق ،ولما بلغ خبر سوء ال تيمورَ لنكُ عن ابن خلدون ،بادر الى ملاقاته حفاظا على حياته ،واسمعه كلاما أعجبه ،وأقام عنده حينا ثم استأذن بالسفر[٢].

وفي عام (٨٠٨هـ) تولى ابن خلدون منصب قاضي القضاة المالكية للمرة السادسة بعد أن عين فيه وعزل غير مرة . وقد توفي في الخامس والعشرين من رمضان لذلك العام (٨٠٨هـ) عن ست وسبعين سنة تقريبا ،وهو يشغل منصبه هذا . ودفن في القاهرة[٣].

ب - موجز سيرته العلمية :

اذا كان لنا ان نشير باطمئنان الى عدم تبسط ابن خلدون في الحديث عن تفاصيل حياته الشخصية ،فان علينا ان نلحظ من باب اولى اسهامه الواضح في الحديث عن مشايخه واسانيده والكتب التي قرأها على اساتذته وأكملَها ،وتلك التي لم يكملْها .

١. شيوخه :

من الراجح انه تلقى العلم اول ما تلقاه عن والده الذي يقول عنه انه (كان مقدما في صناعة العربية وله بصر بالشعر وفنونه (وان اهل) الادب كانوا يتحاكمون اليه فيه ويعرضون حَوْكهم عليه)[٤]. ثم انه قرأ القرآن العظيم على استاذ له هو (ابو عبد الله محمد بن سعيد بن برّال الانصاري)[٥]. وثقف صناعة العربية

---

(١) المصدر السابق : ٣٦٦ .
(٢) المصدر السابق : ٣٦٧ وما بعدها .
(٣) انظر ، السخاوي - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٤هـ : ١٤٥/٤ - ١٤٩ . الحفناوي - تعريف الخلف برجال السلف ،تحقيق : محمد ابو الاجفان وعثمان بطيخ،ط ١، موءسسة الرسالة - المكتبة العتيقة ،بيروت - تونس ١٩٨٢، : ٢٢١/١ - ٢٢٣ .
(٤) ابن خلدون - التعريف : ١٤ ،١٥ .
(٥) المصدر السابق : ١٥ ،١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من اساتذة تونسيين منهم الشيخ ابو عبد الله محمد بن العربي الحصايرى ،والشيخ عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي ،وابو العباس احمد بن القصار ،وابو عبد الله محمد بن بحر(١). واخذ الحديث عن شمس الدين ابي عبد الله محمد بن جابر القيسي الوادى آشي (٦٧٣هـ - ٧٤٩هـ)(٢). وأما الفقه فقد اخذه عن اساتذة تونسيين آخرين منهم ابو عبد الله محمد بن عبد الله الجياني ،وابو القاسم محمد القصير والقاضي محمد بن عبد السلام بن يوسف (٦٧٦ هـ - ٧٤٩هـ)(٣). وعلى الرغم من ان اسماء اساتذته بتونس تبدو لنا اليوم باهتة ،خلا اثنين ،الا ان اهتمام ابن خلدون بايرادهم على هذا النحو ،يدل على انهم كانوا على درجة من الشهرة في الاوساط العلمية والثقافية آنذاك ،تجعله يفاخر بانه درس عليهم،غير ان المنعطف الحقيقي في حياة ابن خلدون العلمية ،هو فيما يبدو حضور (جماعة من اهل العلم)(٤) بمعية السلطان ابي الحسن المريني عندما قدم غازيا تونس ،وقد كان مهتما باستقطاب اكبر عدد ممكن من العلماء النابهين وضمهم الى مجلسه.

ولعلنا نلاحظ مدى احتفال ابن خلدون بهؤلاء الجماعة من العلماء ،الذين عرف معظمهم ودرس على بعضهم ،بما ترجم لهم من تراجم مستفيضة ،كما ان مما يلفت النظر اشاراته لقبا مميزا لكل واحد منهم(٥).

ولاننا نعلق اهمية بالغة على الاثر العميق الذى خلفه اثنان منهم في وعي ابن خلدون ،بدليل كثرة ثنائه عليهما والتوسع في سيرتهما ،فاننا سوف نورد ترجمة مقتضبة لكل منهما ،تظهر بشكل خاص اثره في ابن خلدون .

* عبد المهيمن الحضرمي(٦):

هو ابو محمد ،عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمي ،المولود في سبته عام ٧٧٦هـ ،والمتوفى بتونس عام ٧٤٩ في وقيعة الطاعون العام .

---

(١) المصدر السابق : ١٧ .

(٢) أحمد بابا - كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج،بهامش كتاب الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب لابن فرحون ،ط ١ ،مصر ،١٣٥١هـ : ١١٢.

(٣) ابن خلدون - التعريف : ٢٤٢. (٤) المصدر السابق : ١٩.

(٥) فقد وصف شيخه احمد بن محمد الزواوى بانه كان امام المقرئين وشيخ القراءات بالمغرب .

ووصف شيخه محمد بن سليمان السطي بانه كان شيخ الفتيا بالمغرب وامام مذهب مالك انظر التعريف : ١٩ ،٢٠ .

(٦) انظر ابن الخطيب - الاحاطة في اخبار غرناطة ،المجلد الرابع ،حققه ووضع مقدمته وحواشيه : محمد عبد الله عنان ،ط ١ ،مكتبة الخانجي ،القاهرة،١٩٧٧ : ١١ - ١٨ .

المقري - نفح الطيب من غصن الاندلس الخصيب ،تحقيق: د. احسان عباس ،دار صادر ، بيروت،١٩٦٨ : ٢٤٠/٥ ،٤٦٥ وما بعدها ،ابن خلدون - التعريف : ٢٠ ،٣٨ - ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصفه ابن الخطيب بالقول : (شيخنا الرئيس صاحب القلم الاعلى بالمغرب) وقال عنه ابن خلدون انه كان (امام المحدثين والنحاة بالمغرب) ،وقد لازمه واخذ عنه الامهات الست ،والموطأ ،والسير لابن اسحق ،ومقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث(١) وقد (كانت بضاعته في الحديث وافرة ونحلته في التقييد والحفظ كاملة ،(و) كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر ،في الحديث والفقه ،والعربية ، والادب ،والمعقول ،وسائر الفنون ،مضبوطة كلها،مقابلة ...الخ)(٢).

* محمد بن ابراهيم الآبلي(٣):

هو ابو عبد الله ،محمد بن ابراهيم بن أحمد الصدرى الآبلي(٤) التلمساني ، المولود في تلمسان عام (٦٨١هـ)،والمتوفى في فاس عام (٧٥٧هـ).

قال عنه ابن الخطيب انه (عالم الدنيا ...الشيخ العلامة)، وترجم له ابن خلدون ترجمة يكاد يخالطها الخيال ،فقد روى في خبر طويل ان الشيخ الآبلي خرج من تلمسان قاصدا الحج ،وانه لقي مشايخ المشرق ولكنه لم يفد منهم ،لأنه كان (مختلطا بعارض عرض في عقله) جراء شربه الكافور بغية التخفيف من (غَلْمَة) اشتدت عليه في البحر من تونس الى الاسكندرية .

ثم عاد الى تلمسان بعد ان مر بتجاربَ كثيرة ،وكان قد (افاق من اختلاطه) وتصدى لتحصيل العلم ،خاصةً العقليات،فقرأ المنطق والاصلين والتعاليم في جملة من الاساتذة المرموقين الكبار ثم اتجه الى التدريس والتعليم حتى (اجتمع عليه طلبة العلم .

وظل زاهدا في المنصب ،كثير التهرب منه الى ان استدعاه السلطان ابو الحسن المريني ليضمه الى مجلسه ،فأجابه الآبلي ولازمه ،وعكف على التدريس والتعليم متنقلا بين تونس والمغرب ،وسط اكبار واجلال حتى توفي ..

٣. الكتب التي اطلع عليها ابن خلدون :

من اللافت للنظر أن معظم الكتب التي نص مؤلف المقدمة على انه قرأها على اشياخه او اطلع هو عليها ،ليست من تلك التي يمكن القول عنها انها مراجع رئيسة او امهات في العلوم ،اذ هي في الغالب من الكتب التي كانت ضرورية لكل طلاب العلم في عصره .

---

(١) المصدر السابق : ٢٠

(٢) المصدر السابق : ٢٠

(٣) المقرى - نفح الطيب : ٢٤٥/٥ وما بعدها . احمد بابا - نيل الابتهاج: ٢٤٥ وما بعدها . ابن خلدون - التعريف : ٢١ ،٢٢ ،٣٣ ،٣٤ ،٣٥ ،٣٦ ،٣٧ ،٣٨ .

(٤) نسبة الى آبلة بهمزة مفتوحة وباء مكسورة وهي مدينة في الشمال الغربي لمقاطعة مدريد . انظر ،ابن خلدون - التعريف : ٣٣ هامش (٢) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ذكر انه قرأ في اللغة والنحو (تسهيل الفوائد) لابن مالك[١]،محمد بن عبد الله الطائي الجياني (٦٠١ - ٦٧٢هـ) ،صاحب الالفية المشهور ،وهو من الكتب المعروفة جدا لطلاب اللغة والنحو . وقرأ في الادب كتابين للاعلم الشنتمري[٢]، يوسف بن سليمان بن عيسى الاندلسي (٤١٠هـ - ٤٧٦هـ) هما : شرح الشعراء الستة وشرح ديوان الحماسة .

وقرأ أشعارابي تمام[٣]،حبيب بن اوس بن الحارث الطائي (١٩٠هـ - ٢٣١هـ) ، وأشعار المتنبي[٤]،احمد بن الحسين بن عبد الصمد الكندى (٣٠٣هـ - ٣٥٤هـ) .وأشعار كتاب الاغاني لمؤلفه ابي الفرج الاصفهاني[٥]،علي بن الحسين (٢٨٤هـ - ٣٥٦هـ) . وقرأ في الفقه مختصر ابن الحاجب[٦]،جمال الدين عثمان بن عمر بن يونس المصرى (٥٧٠هـ - ٦٤٦هـ) . وفي القراءات قصيدتي اللامية في القرآن والرائية في الرسم للشاطبي[٧]،القاسم بن فيرة بن خلف (٥٣٨هـ - ٥٩٠هـ) .

كذلك قرأ في علوم الحديث والتفسير كتاب الموطأ للامام مالك بن أنس[٨] (٩٥هـ - ١٧٩هـ) ،وكتابي التقصي لاحاديث الموطأ والتمهيد على الموطأ لابن عبد البر[٩]، يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي المالكي (٣٣٠هـ - ٣٨٠هـ) ،والامهات الست[١٠]، وكتاب الصلاح ،عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوري (٥٧٧هـ - ٦٤٣هـ) الموسوم (معرفة انواع علم الحديث). كماقرأ كتاب السيد لابن اسحق[١١]،محمدبن اسحق بن يسار (- ١٥١هـ). وفي العلوم العقلية ،قرأ (التعاليم والاصلين والمنطق) وهي على الارجح شروحات ابن رشد[١٢] الحفيد ،محمدبن احمد بن محمد الاندلسي(٥٢٠هـ - ٥٩٥هـ)على كتب ارسطو .

---

(١) الصفدى - الوافي بالوفيات ،نشر باعتناء الدكتور محمد يوسف نجم ، المعهد الالماني للابحاث الشرقية ،دار صادر ،بيروت ،١٩٧١ : ٣ / ٣٥٩ .

(٢) ابن خلكان - وفيات الاعيان ،تحقيق : د. احسان عباس ،دار الثقافة ،بيروت د . ت : ٨١/٧ .

(٣) المصدر السابق : ١١/٢ .

(٤) المصدر السابق : ١٢٠/١ .

(٥) المصدر السابق : ٣٠٧/٣ .

(٦) المصدر السابق : ٢٤٨/٣ .

(٧) المصدر السابق : ٧١/٤ .

(٨) المصدر السابق : ١٣٥/٤ .

(٩) المصدر السابق : ٦٦/٧ .

(١٠) الامهات الست هي : صحاح مسلم والبخارى والترمذى والنسائي وابن ماجه وابن حنبل . وقد قال في موضع آخر من التعريف (ص ١٨) (بعضا من الامهات الخمس) .

(١١) ابن خلكان - وفيات الاعيان : ٢٤٣/٣ .

(١٢) المصدر السابق : ٢٧٦/٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذى يبدو أن هذه الكتب التي اوردها ابن خلدون لا تمثل الا جزءا يسيرا من مجموع الكتب التي نفترض اطلاعه عليها ،وذلك لاننا نفترض ايضا أنه اطلع على كتاب على الاقل لكل عَلَم من الاعلام الذين اشار اليهم في معرض تأريخه ومناقشته لعلوم عصره في المقدمة ،وان كان قد اهمل الاشارة الى اطلاعه هذا سواء أكان ذلك في معرض ترجمته لنفسه في التعريف ،ام في تضاعيف كلامه على العمران في المقدمة ،فان ذلك لا يسوغ لنا الظن بان ما ذكره في التعريف من كتب ،هو كل بضاعته من العلم . ولقد وضع ابن خلدون نفسه في دائرة الاتهام حقا ،حين اقتصر في حديثه عن بضاعته من العلم على هذه الكتب . اذ اعتقد البعض ان ابن خلدون حجب عنا عامدا متعمدا الكثير من مصادره ،وانه لولا الكشف عن كتاب (بدائع السلك) لابن الازرق لما استطعنا الوقوف على هذه المصادر ،والحق ان الكشف عن هذا الكتاب ينبغي ان يؤكد لدينا اتساع معارف ابن خلدون وضلوعه في علوم عصره ،خاصة وان مبادرته الى ذكر مصادره في كثير من المواضع يثبت انه لم يتعمد حجب مصادره [١] ،ولا ينبغي ان يغرُب عن بالنا ان ابن خلدون اثبت فقط الكتب التي قرأها على اساتذته او اطلع عليها هو بنفسه في مرحلة الصبا ،وانه اطلع بعد ذلك على الكثير من الكتب في خزائن المغرب الاقصى والاندلس ،اضافة الى انه اشار الى عدم توفر الكتب التي رجع اليها ابان اقامته في قلعة ابن سلامة ،وانه غادر القلعة بعد فراغه من التأليف ليراجع تأليفه على (الكتب والدواوين التي لا توجد الا بالامصار [٢]) .

ولشد ما تجنى الدكتور طه حسين حين اقتصر على تلك الكتب التي اوردها ابن خلدون في ترجمته لنفسه ،وحين اتكأ على ذلك الاطلاع فانتقص من حصيلة ابن خلدون في العلم [٣] مقارنا بعد ذلك بين المستوى الرفيع للمقدمة الذى يفترض في ابن خلدون اطلاعا خارقا على علوم عصره ،والمستوى البسيط الذى يوحي لنا به ثَبَت الكتب الذى اورده ابن خلدون [٤] .

---

(١) فهمي جدعان - ابن خلدون في الفكر العربي الحديث ،بحث قدم ضمن ندوة (ابن خلدون والفكر العربي المعاصر) ،جامعة الدول العربية - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الدار العربية للكتاب ،تونس ،١٩٨٠ : ٤٤٣ - ٤٥٥ . وقد قام الدكتور فهمي جدعان بنشره لاحقا في كتابه (نظرية التراث ودراسات عربية واسلامية) ،ط ١ ،دار الشروق ،عمان ،١٩٨٥ : ١٢٣ - ١٣٤ .

(٢) ابن خلدون - التعريف : ٢٣٠ .

(٣) طه حسين - فلسفة ابن خلدون الاجتماعية : تحليل ونقد ،ترجمة : محمد عبد عنان ،ط ١ ،لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،١٩٢٥ : ٢ .

(٤) وكأن الدكتور طه حسين يعزو الفضل في رفعة مستوى المقدمة قياسا الى بساطة بضاعة ابن خلدون من العلم ،الى ما منحه ابن خلدون من الثقافة الفلسفية في مصر: انظر ،طه حسين - فلسفة ابن خلدون : ٣ .

٣٨٤٤٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذهب الدكتور طه حسين ابعد من ذلك ،عندما أشار قضيتين تتعلقان بمدى صدق ابن خلدون في زعمه انه اطلع على مختصر ابن الحاجب وكتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ،اذ ارتاب في ان يكون ابن خلدون قد اطلع على الاول في تونس بحجة انه (ليس كتاب فقه بل هو كتاب في اصول الفقه . وموءلفه مالكي المذهب ولكنه لم يقتصر على الكلام على فقه المالكية بل شرح مبادىء التشريع في المذاهب كلها وهو علم خاص[١]) . كما ارتاب في مدى اطلاع ابن خلدون على الثاني موءكدا انه (لم يعرف منه سوى الاسم[٢]) بحجة قول ابن خلدون:(انه استظهر جزءا منه ،وفي مقدمته يندب استحالة الحصول على نسخة منه[٣]) . وقد تصدى للرد على الدكتور طه حسين غير واحد من الدارسين ،بين متحمس يدفعه اعجابه الشديد ،وباحث موضوعي يدفعه المنطق لازالة هذه التهمة ،وجاءت ردودهم مفحمة[٤].

موءلفات ابن خلدون :

اتى ابن الخطيب في كتابه (الاحاطة) على ذكر موءلفات ابن خلدون وملخصاته غير ان ابن خلدون تجاهل الاشارة تماما الى هذه الموءلفات في التعريف وفي المقدمة . ونظن انه كان مدفوعا الى ذلك بدافعين رئيسين هما :

١ - اعتقاده بان من وضع كتابا فريدا مثل المقدمة ،هو في غنى عن نسبة كتب وتلاخيص لنفسه ،ليس فيها ما يدفع المرء الى التفاخر بأنه كتبها .

٢ - اعتقاده بان الاشارة الى بعض تلك الكتب والتلاخيص ،كشف عن ميوله الفلسفية المبكرة ونزعاته المناوئة للتصوف ،وهي ميول ونزعات ما كانت لتصادف ترحيبا في وسط ثقافي محافظ ،وموال للتصوف ،مثل مصر.

وفيما يلي ثبت بالكتب المنسوبة اليه ،ما فقد منها وما وصل الينا ،مع تعريف موجز بكل منها .

الكتب المفقودة :

١. تلاخيص لكتب ابن رشد :

ذكر ابن الخطيب ان ابن خلدون قام بتلخيص كتب كثيرة لابن رشد[٥].وقد سكت ابن خلدون في التعريف عن الخوض في اهتمامه بتلخيص كتب لابن رشد ،مكتفيا بالاسهاب في خبر تلمذته للآبلي ،شيخ العلوم العقلية .

---

(١) طه حسين - فلسفة ابن خلدون : ١١

(٢) المرجع السابق : ١٢ .

(٣) المرجع السابق : ١٢ .

(٤) انظر وقارن : د. علي عبد الواحد وافي في تمهيده للمقدمة : ١/٤٤ - ٤٩ .
محمد بن تاويت في تحقيقه لكتاب التعريف : ١٧ هامش (١) و ١٨ هامش (٢) .

(٥) ابن الخطيب - الاحاطة في اخبار غرناطة ،المجلد الثالث ،حققه ووضع مقدمته وحواشيه : محمد عبد الله عنان ،ط ١ ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ١٩٧٥: ٣/٥٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢. تقييد في المنطق :
وهو (تقييد مفيد في المنطق[١]) انجزه بطلب من ملك بني الاحمر .

٣. شرح بديع للبردة :
(دل به على انفساح ذرعه وتفنن ادراكه وغزارة حفظه)[٢]

٤. شرح ارجوزة لابن الخطيب في اصول الفقه (لا غاية فوقه في الكمال)[٣]

٥. كتاب في الحساب[٤]

المؤلفات التي وصلت الينا

١. لباب المحصّل في اصول الدين :

وهو على الأرجح اول مؤلفات ابن خلدون،فقد ذكر في آخره انه فرغ من تأليفه في التاسع والعشرينَ من شهر صفرَ سنةَ ٧٥٢هـ[٥]. ولعل اختياره التأليف في هذا الضرب من المعرف في تلك السن المبكرة ،دليل على ميله الشديد الى الاشتغال بالعلوم العقلية . وكان قد قرأ كتاب (محصل افكار المتقدميين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين) للامام فخر الدين الرازى[٦] محمد بن عمر بن الحسين (٥٤٤هـ - ٦٠٦هـ) على استاذه ابي عبد الله محمد بن ابراهيمَ الآبلي فوجده (كتابا احتوى على مذهب كل فريق ،واخذ في تحقيق كل مسلك وطريق . الا ان فيه اسهابا لا تميل همم اهل العصر اليه ،واطنابا لا تعول قرائحهم عليه[٧]) ،فرأى ان يحذف من الفاظه ما يستغنى عنه ،ويثبت ما لا بد منه ،مقربا كل جواب الى سؤاله ،مضيفا اليه غير قليل من كلام الامام نصير الدين الطوسي[٨]،محمد بن الحسين (٥٩٧هـ - ٦٧٢هـ) ،وقليلا من بنات افكاره فجاء رائق اللفظ والمعنى ،مُشيّدَ القواعدِ والمَبْنى[٩].

---

(١) المصدر السابق : ٥٠٧/٣
(٢) المصدر السابق : ٥٠٧/٣
(٣) المصدر السابق : ٥٠٧/٣
(٤) المصدر السابق : ٥٠٧/٣
(٥) ابن خلدون - لباب المحصل في اصول الدين ،نشر الاب لوسيانو روبيو ،معهد مولاى الحسن ،دار الطباعة العربية ،تطوان ،١٩٥٢ : ١٣٥ .
(٦) ابن خلكان - وفيات الاعيان : ٢٤٨/٤ .
(٧) ابن خلدون - لباب المحصل : ٢ ،٣ .
(٨) الكتبي - فوات الوفيات والذيل عليها ،تحقيق : د. احسان عباس ،دار صادر بيروت ،د . ت : ٢٤٦/٣ وما بعدها .
(٩) ابن خلدون - لباب المحصل : ٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢. شفاء السائل لتهذيب المسائل :

من المرجح ان ابن خلدون الف هذا الكتاب ما بين ٧٧٤هـ - ٧٧٦هـ[١]. محاولا من خلاله ان (يكشف القناع عن محل النزاع)[٢] الذى جرى بين متصوفة الاندلس في النصف الثاني من القرن الثامن الهجرى ،وكان هؤلاء المتصوفة قد اختلفوا حول الطريق الموصل الى المعرفة ،هل هو بالتعلم من الكتب الموضوعة والاقتداء برسومها ام هو بملازمة شيوخ الطريقة خَشيةَ الزلل ؟[٣]،ولما عز الاتفاق على جواب ،ارسل هؤلاء يستفتون بعض علماء المغرب الذين ادلَوْا بِدلائِهم في المسألة ويبدو ان ابن خلدون اعتقد ان المسألة لم توفَ حقها من القول ،فأراد ان يضع هذا الكتاب حسما للخلاف .

والناظر في هذا الكتاب ،المقارن بينَهُ وبين المقدمة ،يقف على حملة اختلافات أهمها :

١. انه ينكر القول بالمكاشفة على المتصوفة في (شفاء السائل)[٤]في حين انه يلتمس لهم العذر في القول بالكشف في (المقدمة)[٥].

٢. ينكر الدليل الوجْداني الذى يعتمده المتصوفة لتأكيد قولهم بالكشف ،ويرى انه ليس بدليل برهاني[٦]،في (شفاء السائل) ،في حين انه يحمّل اللغة وِزْر القصور[٧] عن ايصال ما يعتمل في وجدان الصوفية ،في المقدمة .

٣. انه ينكر شَطَحاتِ الصوفية في (شفاء السائل) ويرى ان عبارتِهم علاوة على انها مبهمة فهي ملتبسة ببدعة او كفر[٨]،في حين انه يرى في (المقدمة) ان الواحد من هؤلاءِ يكون في غيبة عن الحس ولهذا فهو معذور[٩].

٤. انه افتى في(شفاء السائل) باحراق كتب المتصوفة ومحوها صونا لعقائد المسلمين[١٠] في حين انه ذهب في (المقدمة) الى ان التصوف(علم من علوم الشريعة الحادثة في المِلّة ... واصله ان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارِها من

---

(١) ابن خلدون - شفاء السائل لتهذيب المسائل ،عارضه باصوله وعلق حواشيه وقدم له : محمد بن تاويت الطنجي ،استانبول ،١٩٥٧ : من مقدمة المحقق للكتاب ص (ص ضا) .

(٢) المصدر السابق : ٤

(٣) المصدر السابق : ٤ ،٥

(٤) المصدر السابق : ٥٥ وما بعدها .

(٥) ابن خلدون - المقدمة : ١١١٣/٣ .

(٦) ابن خلدون - شفاء السائل : ٥٨ .

(٧) ابن خلدون - المقدمة : ١١١٣/٣ ،١١١٤ .

(٨) ابن خلدون - شفاء السائل : ٧٠ .

(٩) ابن خلدون - المقدمة : ١١١٣/٣ ،١١١٤ .

(١٠) ابن خلدون - شفاء السائل : ١١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقةَ الحق والهداية)[١]. وأيا كان سبب التغيير في موقف ابن خلدون من التصوف،فان سكوته عن نسبة الكتاب الى نفسه في التعريف،وعدم اشارة من ترجموا له الى هذا الكتاب، اضافة الى الاختلاف بين كنيته واسمه ،والكنية والاسم اللذين اوردهما من اشار الى هذا الكتاب من المتأخرين،قد ادت مجتمعة الى تشكك البعض في صدق نسبة هذا الكتاب اليه[٢].

ولعل في قياسنا سببَ اغفال ابن خلدون الاشارةَ الى هذا الكتاب،على سبب اغفاله الاشارةَ الى تلاخيصه لكتب ابن رشد،جوابا معقولا،وان يكن الاغفال في الحالتين قد تم لسببين مختلفين. فاذا كان حقا قد اغفل الاشارة الى تلخيصه كتبَ ابن رشد،لتحول (سلبي) طرأ على موقفه من الفلسفة[٣]،بسبب الجو الثقافي العام السائد في مصر آنذاك،فانه يكون قد اغفل الاشارة الى (شفاء السائل) لتحول (ايجابي) طرأ على موقفه من التصوف،بسبب تصاعد التأييد الرسمي والشعبي للطرق الصوفية في العالم الاسلامي،واضعين في عين الاعتبار الشديد اهمية كونه قاضيَ قضاة المالكية لاكثرَ من مرة .

٣. كتاب العِبَر،وديوان المبتدأ والخبر،في ايام العرب والعجم والبربر،ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر:

شرع ابن خلدون في تأليف هذا الكتاب في نهاية عام ٧٧٦هـ[٤]. وفرغ من تأليفه في منتصف عام ٧٧٩هـ[٥] . وقد رتبه على مقدمة وثلاثة كتب[٦]:

* المقدمة : في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاعلام بمغالط المؤرخين[٧].
* الكتاب الاول: في العِمْران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب[٨].

والكتاب المتداولُ الانَ باسم (المقدمة) هو جماع المقدمة في فضل علم التاريخ و الكتاب الاول في العمران المشار اليهما آنفا . وقد قام بتحقيقه الدكتور علي عبد الواحد وافي واخرجه في ثلاث نشرات متوالية .

---

(١) ابن خلدون ـ المدمة :١٠٩٧/٣

(٢) انظر حول هذه المسألة بتوسع، المقدمة الضافية التي قدم بها المرحوم محمد بن تاويت الطنجي لهذا الكتاب.

(٣) مما يدعونا الى الظن بان الفصل الذي كتبه ابن خلدون في المقدمة لابطال الفلسفة ،كان مما زاده اثناء وجوده في مصر،خاصة وانه عمل على تنقيحها والاضافة عليها والحذف منها،غير مرة.

(٤) ابن خلدون ـ التعريف : ٢٢٨، ٢٢٩ .

(٥) ابن خلدون ـ المقدمة : ١٣٦٥/٣ .

(٦) المصدر السابق : ٢٨٦/١ .

(٧) المصدر السابق : ٢٨٦/١ .

(٨) المصدر السابق : ٢٨٦/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* الكتاب الثاني : في اخبار العرب واجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى هذا العهد .وفيه الالماع لبعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثلَ النَّبط والسِّريانيينَ والفُرسِ وبني اسرائيلَ والقِبْطِ واليونان والروم والترك والافرنجة[١]
* الكتاب الثالث : في اخبار البربر ومن اليهم من زناته ،وذكر اوليتهم واجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول[٢].

ولما ارتحل ابن خلدون الى المشرق ،افاد مما وجد في مصر من كتب سدت النقص في المامه بأحوال المشرق وأممه ،فغدا كتابه الذى كان مخصصا جلُّه لاخبار المغرب مستوعبا لاخبار الخليقة استيعابا[٣].

٤. المقدمة :

اتم ابن خلدون كتابة مقدمته في منتصف عام ٧٧٩هـ[٤]،ولم يكن فيما يبدو بحاجة لمن ينبهه على فرادتها ،اذ يقول في معرض حديثه عن اقامته في قلعة ابن سلامة وتأليفه للمقدمة : (فأقمت بها اربعة اعوام متخليا عن الشواغل كلِّها ،وشرعت في تأليف هذا الكتاب (يقصد العبرَ) وأنا مقيم بها ،واكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب ،الذى اهتديت اليه في تلك الخلوة ،فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتَخضتْ زُبدتها ،وتألفت نتائجها)[٥].

وعلى الرغم من الصدى العميق للمقدمة - سلبا أو ايجابا - في كتابات معاصرى ابن خلدون ومن تلاه ،الا ان المقدمة كاد يطويها النسيان ،مثلها في ذلك مثل كثير من اثار الثقافة العربية الاسلامية ،بفعل تراكم عوامل الانحطاط الاجتماعي والفكرى التي رانت على العالم العربي الاسلامي ،وما كان لها ان تعود لتتصدر قائمة كتب التراث لولا اهتمامُ معظم اعلام النهضة العربية الحديثة بها ،ناهيك عن التفات المستشرقين اليها .

فقد شجع الشيخ الطهطاوى[٦]،رفاعة رافع (١٨٠١ - ١٨٧٣م) في منتصف القرن التاسع عشر على نشر المقدمة التي ما لبثت ان صدرت عام ١٨٥٨م في طبعتها المصرية باشراف الشيخ الهوريني[٧]،نصر بن يونس (ت ١٨٧٤م). وكانت قد صدرت في

---

(١) المصدر السابق : ٢٨٦/١ .
(٢) المصدر السابق : ٢٨٦/١ .
(٣) المصدر السابق : ٢٨٦/١ .
(٤) المصدر السابق : ١٣٦٥/٣ .
(٥) ابن خلدون - التعريف : ٢٢٩ .
(٦) الزركلي - الاعلام ،ط ٦ ،دار العلم للملايين ،بيروت ،١٩٨٤ : ٢٩/٣ .
(٧) المصدر السابق : ٢٩/٨ .
(٨) المصدر السابق : ٨٣/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العام نفسه اول نشرة محققة للمقدمة من اخراج المستشرق الفرنسي كاترمير[١] ، اتبين مارك (١٧٨٢ - ١٨٥٧م)[٢].

٥. التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا :

كان هذا الكتاب (جزءا تابعا)[٣] للعبر منذ ان الفه ابن خلدون ،وجاء تحت عنوان (التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب)[٤].وهو تعريف مستفيض بسيرة المؤلف ،وما عرض له من احداث تلقي اضواءً كاشفة على عصره . ويبدو ان رحلة ابن خلدون الى المشرق وما رافقها من احداث،قد امليا على ابن خلدون ضرورة تسجيلها ،مما زاد في حجم هذا الجزء ،وأدى بالمؤلف الى التعديل على العنوان الآنف ليصبح (التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب ،ورحلته غربا وشرقا)[٥] .

وقد قام المرحوم الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي بتحقيق الكتاب تحقيقا ممتازا واخرجه مستقلا ليكون الكتاب الاول في سلسلة (آثار ابن خلدون) تحت عنوان (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) .

تلاميذه :

من العسير حقا ، القيام بحصر لتلاميذ ابن خلدون ولو من باب التقريب . لان من المتعذر اصلا حَصْرَ الحقل الذى تخصص فيه رجل فذ ذو اهتمامات متعددة مثله . خاصة وان العمر قد امتد به ليكون مشاركا في صنع احداث نصف قرن ونيف ،وشاهدا عليها في آن . فبدءا بشؤون العمران البشري من اجتماع واقتصاد وسياسة ، مرورا بشؤون الدين من قضاء وفقه ،وانتهاء بشؤون التدريس وسياسة التعليم، كان ابن خلدون من الاساتذة المبرزين ،قولا وعملا ،بحيث انه خلّف آثارا واضحة توزعتها بطون عشرات الكتب التي ترجمت له ولآثاره العلمية ،وعقول الكثير من التلاميذ ممن عرفوه سياسيا لامعا ،وعالما واسع الثقافة ،وقاضيا حازما ،ومدرسا مجتهدا .

---

(١) المرجع السابق : ٨٣/١ .

(٢) بخصوص نشر المقدمة - انظر وقارن ،
علي عبد الواحد وافي - التمهيد للمقدمة : ٢٤٣/١ - ٢٦٠ .
فهمي جدعان - نظرية التراث : ١٢٦ .
عبد القادر جغلول - الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ،ط ٣ ،دار الحداثة ،بيروت ،١٩٨٢ : ١١ - ٦

(٣) الطنجي - في تقديمه لكتاب التعريف : ص (يز) .

(٤) الطنجي - التقديم : ص (يز)

(٥) المصدر السابق : ص (يز) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا نبالغ اذا قلنا: ان ابن خلدون اسس مدرسة متنوعة تمتد على مساحة جغرافية واسعة ،من غرناطة في اقصى الغرب الاسلامي حتى القاهرة قلب المشرق الاسلامي .

غيرَ ان من الممكن الترجمةَ لعدد ممن عرف عنهم انهم تلاميذه ،او انهم تأثروا به تأثرا بيّنا ،واشهرهم ابن الازرق والمقريزي ،اما غيرهما فهم ممن عثرنا بهم بين طيات كتب التراجم .

١. ابن الازرق (٨٣١هـ - ٨٩٦هـ)(١):

هو محمد بن علي بن محمد الاصبحي الاندلسي ،ابو عبد الله ،شمس الدين الغرناطي ولد بمالقة وقرأ على شيوخها ،واصبح قاضياً للجماعة بغرناطة .

ولما اخذت غرناطة تترنح تحت ضربات الفرنجة ،توجه الى تلمسان يستنفر سلطانها لانقاذ الاندلس . الا أن السلطان توفي ،فقصد مصر مستنفرا السلطان قايتباى (فكان كمن يطلب بيضَ الأنوقِ او الأبيض العُقوق) . ثم ارتحل قاصدا الحج فأقام في المدينة المنورة اربعة اشهر ،وفي مكة شهرين ،ثم عاد الى مصر ،وجدد طلبه بخصوص انقاذ الاندلس ،فكلّف بقضاء القدس اقصاء له عن غايته ،وتولى القضاء بها بنزاهة لمدة واحد وستين يوما ،وتوفي ودفن فيها .

وقد قال عنه المقرى : (له رحمه الله تآليف منها "بدائع السلك في طبائع الملك" كتاب حسن مفيد في موضوعه ،لخص فيه كلام ابن خلدون في مقدمة تاريخه وغيره مع زوائد كثيرة ، ومنهاروضة الاعلام بمنزلة العربية من علوم الاسلام ،مجلد ضخم فيه فوائدُ وحكايات ،لم يؤلف في فنه مثلُه ،وقفت عليه بتلمسان ...الخ)(٢) .

ولعل اكثر ما يهمنا من كتب ابن الازرق ،كتابه "بدائع السلك" وهو (تلخيص ما كتب الناس في الملك والامارة والسياسة ،التي رغّبها على الاسعاد بصلاح المعاش والمعاد اصدق امارة ،على نهجٍ يكشف عن محيا الحكمة قناع الاحتجاب)(٣).

ويرتدى هذا الكتاب أهمية بالغة من حيث انه ادى الى الكشف عن المصادر التي متح منها ابن خلدون ،وهو كشف لا ينبغي ان يحمل على محمل السوء ،وذلك لان ابن خلدون لو اراد أن يُخفيَ مصادره لما صرح بالكثير منها(٤).

٢. المقريزي (٧٦٦هـ - ٨٤٥هـ)(٥):

هو احمد بن علي بن عبد القادر ،ابو العباس ،الحسيني العبيدى . ولد في القاهرة وترعرع فيها ،وتولى وظيفة الحسبة والخطابة والامامة اكثر من مرة واتصل بالملك الظاهر برقوق ،ورحل الى دمشق ،ثم عاد الى مصر ،ومات في القاهرة .

---

(١) المقرى - نفح الطيب : ٦٩٩/٢ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق : ٧٠٠/٢ .
(٣) ابن الازرق - بدائع السلك في طبائع الملك ،تحقيق وتعليق : علي سامي النشار دار الحرية للطباعة ،بغداد ،١٩٧٧ : ٣٤
(٤) فهمي جدعان - نظرية التراث : ١٢٥ .
(٥) السخاوى - الضوء اللامع : ٢١/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اهلته خبرته العلمية واحتكاكه الشديد بالناس ليكون مؤرخ مصر الاكبر ،له كتب مشهورة أهمها : "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" .

٠٣ البدر الدماميني (٧٦٣هـ - ٨٢٨هـ)[١]:

هو محمد بن محمد بن ابي بكر بن عبد الله ، المخزومي القرشي ،ولد في الاسكندرية وارتحل الى القاهرة ،ولازم ابن خلدون واخذ عنه ،ودرس العربية في الازهر . ثم ارتحل الى دمشق وقصد الحج وعاد الى مصر قاضيا للمالكية . وما لبث ان ترك القضاء وارتحل الى اليمن فدرّس فيها حوالي سنةٍ ،ثم ارتحل الى الهند واشتُهر فيها . يعد من علماء الشريعة وعلوم العربية ،وله كتب كثيرة في الفقه والادب .

٠٤ ابن جماعة (٧٤٩هـ - ٨١٩هـ)[٢]:

هو محمد بن ابي بكر بن عبد العزيز بن محمد ، الكناني الحموي المصري الشافعي ولد في ينبعٍ على ساحل البحر الاحمر ،وانتقل الى القاهرة وأقام فيها ولازم ابن خلدون . كان واسع الثقافة غزير التأليف ،دونت اسماء كتبه في كراسين ،وألف في الفقه والحديث والادب وعلم الكلام والطب .

٠٥ ابن مرزوق الحفيد (٧٦٦هـ - ٨٤٢هـ)[٣]:

هو محمد بن احمد بن محمد المشهور بابن مرزوق الحفيد ،ولد في تلمسان في المغرب وارتحل الى المشرق ،ضالع في الفقه والحديث والاصول وعلوم العربية ،له قائمة طويلة من الكتب تُظهر سَعَةَ علمه وطول باعه .

٠٦ البساطي (٧٦٠هـ - ٨٤٢هـ)[٤]:

هو محمد بن احمد بن عثمان الطائي البساطي ،ولد في بلدة تدعى بساطَ غربي مصر ،وارتحل الى القاهرة ،وفيها أخذ علومه في المذهب المالكي عن ابن خلدون ثم اشتهر وتفرغ للتدريس . وقد تولى القضاء المالكي سنة ٨٢٣هـ وظل قاضيا مدة عشرين سنة الى ان توفي وله أكثر من كتاب في الفقه .

آراء الدارسين فيه ،من القدماء والمحدثين :

من الملاحظ ان جل الذين ترجموا لابن خلدون ،من القدماء والمحدثين ،قد اعتمدوا على ما أورده صديقه ابن الخطيب في (الاحاطة) وعلى ما اورده هو نفسه

---

(١) المصدر السابق : ٦٣/٩ .

(٢) المصدر السابق : ١٧١/٧ .

(٣) المقرى - نفح الطيب : ٤٢٠/٥ - ٤٣٣ .
وقد دعي بالحفيد تميزا له عن جده محمد بن احمد بن مرزوق العجسي(٧١٠هـ - ٨٧١هـ) ،انظر ،ابن خلدون - التعريف : ٤٩ - ٥٤ .

(٤) السخاوي - الضوء اللامع : ٥/٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في(التعريف)[١].

ويظهر من الخلاصة العامة لترجمات القدماء ،ان المعيار الاخلاقي في تقديرهم لابن خلدون ،قد غطى الى حد بعيد على جوانب المعرفة والثقافة ،ولم ترتق حتى تلك الاشارات المتعاطفة مع علمه ونباهته ،الى مستوى التعيين الواضح لما رفد به ابن خلدون الفكر العربي الاسلامي .

وعلى أية حال،لا نستغرب ان يتجه بعض مؤرخينا القدماء الى المعايير الاخلاقية ما دام ان اول دراسة عربية حديثة لم تكن بريئة من المعيار الاخلاقي لتقدير مقدمة ابن خلدون .

ولم يدخر الدكتور طه حسين وسعا حين درس ابن خلدون في الاتكاء على الاساس الاخلاقي الصرف مما اسهم في وسم الدراسة بسمة التحامل الذي لم نحسه حتى لدى اكثر المتحاملين عليه من القدماء.وان كان الدكتور طه حسين قد عاد في نهاية الفصل الاول فأعلن انه من(السخف ان نتمسك ببوادر ضعف انسانية جدا لنتوصل بذلك الى ان ننتقص من فضل شخصية لا ريب في عظمتها)[٢].

ابن خلدون قديما : مشكل اخلاقي :

يرى ابن الخطيب ان ابن خلدون رجل (...متقدم في فنون عقلية ونقلية ،متعدد المزايا ،سديد البحث ،كثير الحفظ ،صحيح التصور)[٣].

ويثني المقرى على كلام ابن الخطيب ويزيد عليه قائلا : (هذا كلام لسان الدين في حق المذكور "أى ابن خلدون" في مبادى امره واواسطه ،فكيف لو راى تاريخه الكبير الذى نقلنا منه في مواضع ،وسماه "ديوان العبر،وكتاب المبتدأ والخبر ، في تاريخ العرب والعجم والبربر ،ومن عاصرهم من ذووى السلطان الاكبر")[٤].

وذهب الحافظ ابن حجر العسقلاني ،الى ان ابن الخطيب (لم يصفه بعلم(!) وانما ذكر له تصانيف في الادب وشيئا من نظمه ولم يكن بالماهر ،وكان يبالغ في كتمانه مع انه كان جيد النقد)[٥].

---

(١) خير دليل على ذلك ،الترجمة التي اوردها الحفناوى في كتابه تعريف الخلف برجال السلف : ٢٢١/١ - ٢٢٣ .

(٢) طه حسين - فلسفة ابن خلدون : ٢٦ .

(٣) ابن الخطيب - الاحاطة : ٤٩٨/٣ .

(٤) المقرى - نفح الطيب : ١٩١/٦ .

(٥) ابن حجر - رفع الاصر عن قضاة مصر،القسم الثاني ،تحقيق : د. حامد عبد المجيد وزارة الثقافة والارشاد القومي ،القاهرة ،١٩٦١ : ٣٤٤/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من انه يؤكد ان خصوم ابن خلدون قد (ادعوا عليه بامور كثيرة اكثرها لا حقيقة له)[١]، الا انه في واقع الامر لم يتورع عن غمز مسلك ابن خلدون الاخلاقي ،ليتصدى من ثَم للتقليل من شأن ثناء الشيخ تقي الدين المقريزى على المقدمة فيقول :

(وقرأت بخط الشيخ تقي الدين المقريزى في وصف تاريخ ابن خلدون : مقدمته لم يعمل مثالها ،وانه لعزيز ان ينال مجتهد فعالها ،اذ هي زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم . توقف على كنه الاشياء وتعرف حقيقة الحوادث والانباء . وتعبر عن حال الوجود وتنبيء عن أصل كل موجود ،بلفظ أبهى من الدر النظيم ،والطفُ من الماء مر به النسيم . وما وصفها به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية مسلم لهما فيه ،وأما اطراؤه له زيادة على ذلك فليس الامر كما قال ،الا في بعض دون بعض . الا ان البلاغة تزين بزخرفها حتى تُري حسنا ما ليس بالحسن)[٢].

غير ان ثمة أمرين يذكرهما ابن حجر ،نظن أنهما السببان الرئيسان في غمزه من جهة ،وفي كثرة ثناء المقريزى على ابن خلدون من جهة اخرى .

اما الاول فهو رواية يرويها عن أحد أشياخه الذي كان يبالغ في البغض من ان ابن خلدون ،فلما سأله عن السبب ،اخبره ان ابن خلدون جاء على ذكر الحسين بن علي في تاريخه واردف ذلك بقوله : "قُتل بسيف جده" . وبعد ان ينفي ابن حجر ورود هذه العبارة في تاريخ ابن خلدون المتداول ،يرجّح ان يكون ابن خلدون قد ذكرها في احدى نسخ تاريخه قبل ان يراجعه المراجعة الاخيرة[٣].

واما الثاني فهو ما يراه ابن حجر من افراط المقريزى في تعظيم ابن خلدون لانه وقف في تاريخه منافحا عن صحة نسب العبيديين دون السواد الاعظم من المؤرخين متعجبا في الوقت نفسه من غفلة المقريزى عن مراد ابن خلدون من ذلك ،وهو الاساءة الى آل علي باثبات نسبة الفاطميين اليهم ،لما وقر في اذهان الناس من سوء معتقد الفاطميين[٤].

ومن الجلي ان ابن حجر متحامل على ابن خلدون في كتابه هذا لاسباب اخلاقية ذات بعد عقائدى واضح . متأثرا في ذلك ببعض اشياخه ،حتى انه يغالط في حكمه على ابن خلدون مغالطة شديدة . فهو يؤكد مثلا ان ابن الخطيب ذكر ابن خلدون في كتابه

---

(١) المصدر السابق : ٣٤٦/٢ .
(٢) المصدر السابق : ٣٤٧/٢ .
(٣) المصدر السابق : ٣٤٧/٢ .
(٤) المصدر السابق : ٣٤٨/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الاحاطة) ولم يصفه بعلم وهذا غير صحيح البته ،لان الناظر فيما كتبه ابن الخطيب عن ابن خلدون يوقن انه لم يترك زيادة لمستزيد ،لا بل ان ابن حجر نفسه عقب على ما اورده ابن الخطيب قائلا : (هذا كله في ترجمته والمذكور في حد الكهولة)[١].

كما ان ابن حجر يخلط خلطا واضحا بين الحكم على المقدمة والحكم على التاريخ فعلى حين يختص المقريزي في حديثه (مقدمة) ابن خلدون التي لم يُكمل مثالها ، نرى ابن حجر يعمد الى القول انه قرأ (بخط الشيخ تقي الدين المقريزي في وصف "تاريخ" ابن خلدون ...الخ) وما ذاك الا لانه يعلم ان من السهل غمز القسم الخاص بالمشرق في تاريخ ابن خلدون .

وقد رمى السخاوي فيما كتبه عن ابن خلدون عن قوس استاذه العسقلاني ،وتوسع في تفضيل بعض (مباذله)[٢] ،على الرغم من اننا نحس تراجعا جليا في احكام استاذه على ابن خلدون ،وميلا ملوحظا الى انصافه ،في كتابه (انباء الغمر)[٣].

ابن خلدون حديثا وجانب المعرفة :

نظرا لان الدراسات عن ابن خلدون ،تكاثرت في الشرق والغرب تكاثرا ملوحظا. فاننا سنشير الى اهم الدراسات التي مثلت في نظرنا مناهجَ وتياراتٍ مميزةً في دراسته .

فقد مثلت دراسة الدكتور طه حسين منهجا (شكيا نقديا) مغرقا في النقد حتى لتبدو الرغبة في تطبيق المنهج ،هي الغايةَ في حد ذاتها ،على حساب الدراسة التي تحولت الى محض وسيلة او اطار ،من حول المنهج .

وعلى النقيض تماما من هذا المنهج يطالعنا المنهج (الاحتفالي الوصفي)، الظاهر فيما كتبه الاستاذ ساطع الحصري والدكتور علي عبد الواحد وافي . ومع اهمية الكثير من الملاحظات التي اوردها الاول ،واشتغال الثاني بتحقيق المقدمة واخراجها يجد الباحث الموضوعي تلك الحماسة في الدفاع عن ابن خلدون ،والنزوع الى اظهاره في اهاب العالم الاجتماعي المعاصر ،والمؤرخ الذى لا يبز،والاقتصادي الضليع . وقريب من هذا ،منهج (الدراسات المقارنة) التي وان خلت من الاحتفال

---

(١) ابن حجر - انباء الغمر بابناء العمر في التاريخ ،ط ٢ ،دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٩٨٦ : ٣٣٢/٥ .

(٢) السخاوي - الضوء اللامع : ١٤٦/٤ . ومن ذلك تبسط ابن خلدون في سكنى البيوت على البحر وتعلقه بالغلمان .

(٣) ابن حجر - انباء الغمر : ٣٢٧/٥ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشديد بابن خلدون وتعظيمه ، الا انها تورطت في مزالق منهجية وتاريخية .

وقد تراوحت هذه الدراسات بين محاولات تتجه الى اضاءة اوجه التشابه والتباين فحَسبُ بين ابن خلدون وبعض الفلاسفة والمفكرين الاوروبيين ، وبين محاولات قامت على النظر الى ابن خلدون رائدا لفلسفة تكاملت فيما بعدُ في اوروبا .

ويمكن النظر الى كتاب عبد الله عنان الموجز عن ابن خلدون بما تضمنه من مقارنات بين ابن خلدون ومكيافيللي على انه كتاب ينتمي الى الطائفة الاولى من الدراسات المقارنة (١) ، على حين أن كتابا مثل (فلسفة الحركة الوطنية التحررية) (٢) لمؤلفه نسيب نمر ، يبدو نموذجا للدراسات التي ترى في ابن خلدون رائـــدا أولا للماركسية في العالم العربي ، لا بل ان هناك بعض المؤلفين المغربيين قد استنتجوا ان من الممكن ابدالَ ابن خلدون بماركسَ ليكون قاعدة لدراسة المجتمعات المغربية الراهنة (٣) .

الا ان حقل الدراسات الخلدونية لم يعدم في الواقع باحثين استطاعوا ، ان يضعوا المقدمة في سياقها العام ، في التاريخ والمعرفة في اطار المجتمع العقلاني النقدي ، نجح ثلاثة من الباحثين المعاصرين في ابراز أبعاد رئيسه كانت في حاجة ماسة يجلوها .

اذ قدم الدكتور ناصيف نصار بحثا ضافيا ، ربما كان الاول من نوعه في حقل الدراسات الخلدونية ، مثّل بحق اكثر من مجرد (محاولة تاريخية وفلسفية في وقت واحد ، لتوضيح ما ينطوي عليه فكر ابن خلدون من عناصر تقوم عليها اهميته العظمى في تاريخ الفكر ، وذلك باعتباره موضوعا كاملا متماسكا ينتمي الى المرحلة الاخيرة من تاريخ الثقافة العربية الاسلامية الوسطية) (٤) .

ويظهر من كلام الدكتور ناصيف نصار الذي اوردنا بعضه آنفا ، انه اراد من هذا البحث ان (يؤصل) ابن خلدون ومقدمته من خلال تأشيره الى المنطلقات الاساسية اللازمة لدراسة ابن خلدون وان يبعث بحثه هذا (ابحاثا اخرى سوسيولوجية وفلسفية ، مستمدة من نتائجه السلبية والايجابية) (٥) .

---

(١) محمد عبد الله عنان - ابن خلدون : حياته وتراثه الفكري ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٣ : ١٦١ - ١٧٠ .

(٢) نسيب نمر - فلسفة الحركة الوطنية التحررية ، دار الرائد العربي ، بيروت ، د. ت : ١٧٨ ، ١٨٤ .

(٣) عبد القادر جغلول - الاشكاليات : ١٥ .

(٤) ناصيف نصار - الفكر الواقعي عند ابن خلدون : تفسير تحليلي وجدلي لفكر ابن خلدون في بنيته ومضامينه ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨١ : ٨ .

(٥) المرجع السابق : ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا شك في انه يبالغ كثيرا في تواضعه عندما يقول ذلك ،لان بحثه (المكشف البعيد عن (الشرح المفصل) ،يعد فيما نظن اول مساهمة نقدية عملت على ابراز الذاتي والموضوعي مشتبكيْن في فكر ابن خلدون ،بعيدا عن روح النقد الجارف ،او الاحتفال المبالغ به ،او السقوط في منزلق المقارنات غير المتكافئة .

واذا كان الدكتور ناصيف نصار قد استطاع في بحثه هذا ان يضع اليد على المنطلقات الرئيسة لدراسة ابن خلدون ،فان الدكتور فهمي جدعان قد استطاع ان يؤشر الى موقع المقدمة من الفكر العربي والاسلامي ،محددا اهميتها التاريخية في مسيرة المعرفة،فهي في نظر الدكتور جدعان تشكل اثرا (على الصعيد النظري الخالص في العصور الحديثة العربية ،لا يكاد يعدله اثر أي مفكر آخر . فمنذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حتى القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)ومنذ ابي عبد الله الاصبحي المعروف بابن الازرق (٨٣٢هـ - ٩٨٦هـ) صاحب "بدائع السلك في طبائع الملك" حتى عبد القادر المغاربي ،ومالك بن نبي وعلال الفاسي ،من معاصرينا ،ظلت (المقدمة) تقوم بدور فكري موجه رائد من الطراز الاول ،كما ظلت قضاياها الدائرةُ على الانحطاط وعلله واعراضه تحتل مكانة رئيسه في التفسير والفهم)[١] .

وخلص الدكتور فهمي جدعان ،من خلال دراسة تاريخية مستفيضة لمفهوم التقدم عند مفكري الاسلام ،الى نتيجة في غاية الاهمية ،وهي (ان الازمنة العربية الحديثة تبدأ مع ابن خلدون لا مع حملة نابليون على مصر كما ظن الكثيرون ...(وذلك لان) اشكالية ابن خلدون الحضارية - وهي الاشكالية التي تدور على قيام الدول وافولها - قد مثلت الهاجس الرئيس عند المفكرين العرب المحدثين منذ ان اتصل الاسلام بالغرب ومنذ ان وعى هؤلاء المفكرون الهوة التي تفصل عالم الاسلام الذى خسر مدنيته المتقدمة عن عالم الغرب الذى قفز الى المواقع التمدنية الامامية)[٢].

وهناك دراسة ثالثة تسهم مع ما سبق في درس نتاج ابن خلدون بسياقه في التاريخ والمعرفة هي دراسة الدكتور محمد عابد الجابرى ،فقد قدم الدكتور محمد عابد الجابرى دراسة فيالمعرفة تناولت الخطاب الخلدوني في المقدمة وذهبت الى (ان التحليل الذى قدمه ابن خلدون في مقدمته عن المعرفة وانواعها والعلوم واصنافها ،ينطوى على ابستيمولوجيا كاملة ،بالمعنى الحديث للكلمة ،أي بوصفها "نظريةً في العلوم"،وبعبارة أوضح "دراسةً نقدية لمبادئ العلوم وفروضها ونتائجها

---

(١) فهمي جدعان - اسس التقدم عند مفكرى الاسلام ،ط ٢ ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،١٩٨١ : ٩٢،٩٣ .

(٢) فهمي جدعان - نظرية التراث : ١٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأضافها لبيان اسسها المنطقية وحصيلتها الموضوعية")[١].

وانطلاقا من اقتناعه بأن (الفلسفة المشرقية) بصورة عامة قد اخفقت في التوفيق بين الدين والفلسفة ،في الوقت الذي نجحت (المدرسة الفلسفية في المغرب) في تجاوز مشكلة التوفيق بين الاثنين وذلك بالفصل بينهما ،فانه يرى ان مقدمة ابن خلدون في حقل (العلم) جاءت متممة لجهود ابن رشد في حقل (الفلسفة) ،خالصا الى القول بان ابن خلدون قد نجح في الفصل بين المعقول واللامعقول (داخل الفلسفة والعلم من جهة ، وداخل الدين من جهة اخرى ، مع تقليص دائرة اللامعقول ...الى أقصى حد ممكن يسمح به عصره)[٢].

---

(١) محمد عابد الجابري - ابستيمولوجيا المعقول واللامعقول في مقدمة ابن خلدون بحث قدم ضمن ندوة ابن خلدون بمناسبة مرور ستة قرون على تأليف المقدمة منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط ، ١٩٧٩ : ٧٣ - ١٣١ .
وقد أعاد الدكتور الجابري نشره في كتابه - نحن والتراث : قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي ،ط ٤ ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٥ : ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٢) الجابري - نحن والتراث : ٣٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موقع القضايا الادبية من المقدمة :

ثمة حقيقة اكدها ابن خلدون ،وكان كثير من الفلاسفة اليونان والمسلمين قد رددوها من قبل ،ومفادها ان الانسان كائن اجتماعي بالطبع من جهة ،ومفكر منتج للمعرفة من جهة ثانية .

غير ان مما يستدعي الاعجاب ،نفاذ ابن خلدون الى حقيقة غدت مسلمة بين المشتغلين في العلوم الاجتماعية المعاصرة ،ومؤداها ان المعارف الانسانية ما هي الا نتاج فائض المال والوقت الذي تهيأ للانسان المفكر بفضل امتلاكه لادوات الانتاج(١). ليس هذا فحسب ،بل ان للعلوم الانسانية ذات الشروط الانتاجية التي تحكم وجوه المعاش البشري كافة .

ويقسم ابن خلدون اصناف العلوم الواقعة في العمران الى قسمين(٢):

* صنف طبيعي هو العلوم الحكمية الفلسفية التي يمكن ان يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ،ويهتدي بمداركه البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وانماء براهينها ووجوه تعلمها ،حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو انسان ذو فكر .
* صنف نقلي وضعي يشمل العلوم المستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ،ولا مجال فيها للعقل الا في الحاق الفروع من مسائلها بالاصول .

ويهمنا من هذا التصنيف ،الموقع الذي عينه ابن خلدون لعلوم اللسان العربي وهو موقع على جانب كبير من الاهمية ،اذ جعلها من العلوم النقلية الوضعية المستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي اولا ،وجعلها تالية على الشرعيات من الكتاب والسنة ثانيا .

وفي هذا يقول : (وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله ،وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئها للافادة . ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن)(٣).

وقد اكد ابن خلدون هذا الترابط الوثيق بين علوم اللسان العربي وعلوم الشريعة في مواضع عدة من المقدمة ،لعل ابرزها ما جاء في مستهل الفصل الذي عقده لعلوم اللسان العربي حيث قال(٤) :

---

(١) انظر المقدمة : ١٠٢٤/٣ حيث يقول ابن خلدون : (فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الانسان وهي العلوم والصنائع ....الخ) .

(٢) ابن خلدون ـ المقدمة : ١٠٢٥/٣ ـ ١٠٢٦ .

(٣) المصدر السابق : ١٠٢٦/٣ .

(٤) المصدر السابق : ١٢٦٤/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(اركانه اربعة : وهي اللغة والنحو والبيان والادب . ومعرفتها ضرورية على اهل الشريعة ، اذ مأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ،وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ،وشرح مشكلاتها من لغاتهم). ومن هذا ،فان لنا ان نرتب ثلاث نتائج نلخص بها موقع علوم اللسان العربي في مقدمة ابن خلدون .

اولا : ان علوم اللسان العربي ،كغيرها من العلوم الواقعة في العمران البشري نتاج طبيعي اجتماعي ،يخضع لقوانين التقدم والانحطاط .

ثانيا: ان علوم اللسان العربي هي من العلوم الوضعية النقلية المأخوذة عن واضعها الشرعي .

ثالثا : ان معرفة علوم اللسان العربي ،ضرورية على أهل الشريعة ،بما أن مأخذ احكام الشريعة كلها من الكتاب والسنة ،وبما ان الكتاب والسنة جاءا بلغة العرب .

ولا يفوتنا قبل ان نختم كلامنا على موقع القضايا الادبية في مقدمة ابن خلدون ان نشير الى تأثر ابن خلدون الواضح في تصنيف العلوم ،بابن رشد ، الذي عمد الى الفصل بن علوم الغيب وعلوم الشهادة ،مؤكدا خصوصية معطيات علوم الغيب وعلوم الشهادة وتكاملها ،كما ظهر جليا في كتابه فصل المقال .

حظ القضايا الادبية من الدراسة .

لا نبالغ اذا قلنا بان حظ القضايا الادبية في مقدمة ابن خلدون من الدراسة قد غمط مرتين : مرة عندما تأخر اكتشاف المقدمة حتى منتصف القرن التاسع عشر ،ومرة عندما غطى اهتمام الدارسين المحدثين بالقضايا الفلسفية والاجتماعية في المقدمة على القضايا الادبية ،فجعلها تتوارى وتنزوي لسنوات غير قليلة. ولعل اول اشارة الى ما انطوت عليه المقدمة من قضايا لغوية وأدبية ،جاءت في كتاب الدكتور طه حسين (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) ،في معرض كلامه على ترتيب العلوم في المقدمة ،حيث قال : (يدرس ابن خلدون بعد ذلك تاريخ اللغة العربية وتاريخ آدابها ويصل في هذا البحث الى استنتاجات تستحق اعظم عناية من المستشرقين الذين يدرسون هذه المادة . فالافكار التي يبديها بالنسبة للعلائق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين لهجات العرب المعروفة في المدن وفي الصحاري وبين اللغة القديمة ،ومقارنته الجمة الصدق والنضج بين الشعر العربي في المشرق والمغرب ،ونظريته في أن اللغة العامية لها أو يجب على الاقل ان يكون لها ،نحو خاص وبلاغة خاصة وكل ما تزدان به لغة من الجمال الادبي ،وان اللغات العامية ثمرة للتطور الطبيعي للغة القديمة : كل ذلك يرفع ابن خلدون الى صف علماء العصر الحديث . على انه ليس من بحثنا ان ندرس هذه الفصول وان نحللها)(١).

ومن اللافت للنظر لدى تأمل هذه الفقرة المبتسرة ،اعتقاد الدكتور طه حسين بان الاستنتاجات التي خلص اليها ابن خلدون ،تستحق اعظم عناية من المستشرقين الاجانب فحسب ،دون غيرهم من الدارسين العرب ،مع انه لخص في بضع سطور أهم ما يمكن ان يستخلصه الباحث مما جاء في المقدمة من مسائل تتصل بتاريخ اللغة العربية وآدابها . ومن المرجح انه كان سيرفد الدراسات الخلدونية بجهد مميز لو أنه توسع في كلامه على علوم اللسان العرب عند ابن خلدون ،وهو الباحث المتمرس في اللغة العربية وآدابها ،والمتصل بثقافة الغرب اتصالا وثيقا .

وقد مرت سنون كثيرة حتى جاء من يدفع بالقضايا الادبية الى واجهة القضايا الاخرى في المقدمة ،اذ تضمنت الطبعة الموسعة من كتاب (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) للاستاذ ساطع الحصري فصلا مطولا يرد به على طه حسين(٢)،وقد كان من الممكن ان يمثل هذا الفصل مدخلا طيبا لدراسة القضايا الادبية في المقدمة ،لولا ان الاستاذ ساطع الحصري قد اهتم في المقام الاول بالدفاع عن لغة ابن خلدون في المقدمة ،وبتأكيد اطلاع ابن خلدون على بعض المصادر الادبية . ناهيك عن أن الكتاب برمته جاء دراسة احتفالية بابن خلدون ،اكثر مما جاء دراسة تحليلية ونقدية .

ولم يخل التمهيد المطول لطبعة المقدمة المحققة من اهتمام بالناحية الادبية ،على انه اتسم بنزوع واضح ايضا الى الاحتفال بابن خلدون ،في الوقت الذي ابتسر فيه الدكتور علي وافي الكلام ابتسارا على الملاحظات اللغوية الهامة لدى ابن خلدون ،خاصة تلك التي تتصل بدعوته الى ايجاد نحو خاص باللغة العامية ،وكأنا بالمحقق يبرأ بابن خلدون ان يسقط مثل هذه السقطة ،مع ان هذه الدعوة لم تتضمن بحال الدعوة الى الاستغناء عن اللغة الفصيحة ،كما أنها تتفق مع معطيات علم اللغة الحديث ،العلم الذي كان محقق المقدمة من أوائل الذين اسهموا في جلو معالمه للدارسين العرب .

---

(١) طه حسين - فلسفة ابن خلدون : ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) ساطع الحصري - دراسات عن مقدمة ابن خلدون (الطبعة الموسعة : ٥٦١ - ٥٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أحال الدكتور علي وافي في تمهيده الى ثلاث مقالات منشورة[١] له ،عالج في احداها تصور ابن خلدون للشعر ،ويبدو أنه وقف في هذه المقالات موقفا سلبيا من هذا التصور ،ولم تتح الفرصة لاسباب كثيرة للاطلاع على هذه المقالات .

اما الاستاذ الدكتور احسان عباس ،فقد ضمن كتابه القيم (تاريخ النقد الادبي عند العرب)[٢] فصلا ضافيا عن ابن خلدون ،ختم به هذا الكتاب ،وجاء مشتملا على ملاحظات مهمة تتصل ببعض المفاهيم النقدية لدى ابن خلدون[٣] ،وموقع هذه المفاهيم في سياق التراث النقدي العربي .

وفي ظل بروز الاهتمام بمعطيات علم اللغة الحديث والالسنيات ،ومحاولة العودة الى التراث اللغوي عند العرب واستقرائه في ضوء هذه المعطيات ،فقد اتجهت جهود بعض الباحثين الى اخضاع المسائل اللغوية التي انطوت عليها المقدمة ،لمعايير معاصرة .

وكان ان وضع الدكتور محمد عيد كتابا بعنوان (الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون)[٤] جاء في تمهيد موجز عن ابن خلدون ومقدمته ،وثلاثة فصول عالج في الاول منها موضوع الملكة اللسانية وتحصيلها ،وعالج في الثاني منها موضوع تأثير العوامل الاجتماعية على الملكة اللسانية ،وعالج في الثالث منها موضوع الملكة اللسانية ودراسة اللسان العربي .

وأهم ما يخرج به قارئ هذا الكتاب ،هو روح الاعتدال والبعد عن الاسقاطات النظرية الحديثة ،والترفق في تقرير بعض النتائج اللغوية التي تتصل بعلم اللغة الحديث . على ان اهتمام الدكتور محمد عيد اهتماما شديدا بدراسة المسائل اللغوية والادبية متفرقة ،لا بل دراستها حسب الترتيب الذي جاءت به في المقدمة ، قد ساهم في تفتيت الدراسة ،وجعلها مفتقدة الى مفاهيم يمكن للباحث ان يركب في اطارها مجموعة من المسائل . وعلى أية حال ،وحتى لا نظلم الدكتور محمد عيد فان من الضرورة الاشارة الى انه قد نوه في مقدمة كتابه

---

(١) وهذه المقالات هي :
- (تصور ابن خلدون للشعر العربي ونقد هذا التصور ومحاولة لوضع تصور أصح)
- (بضاعة ابن خلدون من الشعر العربي ومناقشة ما ذهب اليه الدكتور طه حسين في هذا الصدد) .
- (ابن خلدون الشاعر) .

وقد نشرت هذه المقالات تباعا في الاعداد الثاني والثالث والرابع من مجلة الشعر المصرية عام ١٩٧٦ .

(٢) احسان عباس - تاريخ النقد الادبي : ٦١٥ - ٦٣٠ .

(٣) فقد توقف عند كلام ابن خلدون على البديع وبلاغة الاسلاميين والجاهليين وصورة القوالب الشعرية .

(٤) محمد عيد - الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون ،عالم الكتب ،القاهرة ،١٩٧٩م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بما ينبىء بأنه واع لهذه الناحية[١].

وعلى خلاف روح الاعتدال التي نحس بها مع كتاب الدكتور محمد عيد ،تطالعنا روح الاسقاط الشديد لمفاهيم علم اللغة الحديث والالسنيات ،لدى الدكتور ميشال زكريا ،رغم كل توكيداته في تقديمه لكتابه (الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون)[٢] بأن دراسته (ليس من شأنها اظهار ابن خلدون في مظهر العالم اللغوي او الرائد الالسني الذي حلل قضايا اللغة ومسائلها كما يحللها علم الالسنية)[٣] وناهيك عن الانتقائية[٤] التي اتسمت بها هذه الدراسة ،وعن احجام الدكتور ميشال زكريا عن محاولة بحث مدى (اصالة تفكير ابن خلدون اللغوي ... والآراء الجديدة التي اتى بها في هذا المجال بالنسبة الى الفكر اللغوي العربي)[٥]، فقد عانت الدراسة من بعض ما عانت منه دراسة الدكتور محمد عيد من تفتيت وتفسير .

وخلاصة ما يمكن قوله بشأن هذه الدراسة ، ان الدكتور ميشال زكريا ،لم يفعل اكثر من انه ربط ابن خلدون بنوام تشومسكي وغيره من أعلام الفكر اللغوي الاوروبي ،اكثر بكثير مما ربطه بابن مضاء ،وابن جني وسيبويه . وهذه محصلة لا بد منها ، ان لم يكن لانه لم يرد ان يتناول جهود ابن خلدون في سياقها التاريخي والحضاري الخاص ،فلأنه تصدى لهذا البحث وفي ذهنه معيار واحد فقط لدراسة ابن خلدون .

وفي اطار ندوة ابن خلدون التي نظمتها كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط احتفالا بمرور ستة قرون على تحرير المقدمة ،قُدِّمت مقاربتان على جانب كبير من العمق والطرافة .

اما الاولى ،فقد قدمها (جاك لانغاد) المدرس في جامعة محمد الخامس ،بعنوان (فلسفة اللغة لابن خلدون)[٦]،وخلص فيها استنادا الى ما حدّ بان ابن خلدون

---

(١) فقد جاء في مقدمته للكتاب : (والطريقة التي التزمتها في عرض هذه الفصول والموضوعات التي ضمتها ، ان اذكر اولا ما فهمته من رأيه ،ببيانه وتفسيره ، وربما ابديت الرأي فيه بالتأكيد او المعارضة ،مع توجيه رأيه بما يوافق خطته ومنطقه وقوانينه - ثم اورد في نهاية كل موضوع من كلام ابن خلدون ما يدل على رأيه بنفسه ...الخ) .

(٢) ميشال زكريا - الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون ،ط ١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات ،بيروت ،١٩٨٦ . (٣) . المرجع السابق : ٥ .

(٤) وقدأقرالدكتور ميشال بذلك بقوله : (لذلك تراءا اقتصرنا البحث على ابراز مفهوم ابن خلدون للملكة اللسانية من خلال ابراز أهم الآراء التي شاءها معالم على طريق تحليل اللغة) . المرجع السابق ٦.

(٥) المرجع السابق : ٦ .

(٦) ندوة ابن خلدون - جاك لانغاد : ٣٧ - ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد اضمره في مقدمته الى نتيجتين :

اولا : انسحاب التضاد الذي يقيمه ابن خلدون بين البداوة والحضارة ،على اللغة في صورة تناقض بين فصاحة اللغة الاصيلة في القفر وبين تقدمها في المدن من ناحية ،وبين كمالها البدوي الجامد وبين حياتها الحضرمية القابلة للفساد في المدن من ناحية ثانية ،ضمن سيرورة جدلية (١).

ثانيا : ان اللغة العربية الفصيحة كما اضمر ابن خلدون ،هي لغة شفاهية وليست لغة كتابية ،لان العربي اذا اراد حسن الكلام وفصاحته وجب عليه ان يتوجه الى الصحراء او البادية ،ليجد اللغة القديمة الثابتة ،اما اذا اراد ان يتقدم وان يحصل على معارف جديدة ،فان عليه ان يتوجه الى المدينة حيث تفسد اللغة ،ويحتاج للكتابة لانقاذها من الضياع (٢) .

واما الثانية فقد قدمها الدكتور جمال الدين بن الشيخ ،مدير قسم البحوث العربية في جامعة باريس الثامنة ،بعنوان (من قوالب اللسانية الى الاساليب الشعرية) (٣). وقد جاءت هذه المقاربة عبارة عن مجموعة من التساؤلات وعد الباحث ان يجيب عنها في جزء ثان لم ينشر في اعمال الندوة . ويهمنا ان نورد خاتمة التساؤلات التي انهى بها الدكتور جمال الدين الجزء الاول من مقاربته وهي(٤):

١. هل ابدع ابن خلدون وأتانا بمقولات لم توجد في التراث النقدي والفلسفي الشائع في عصره ،وهل نوافقه في تصريحه انه لم يقف عليها (لاحد من المتقدمين) ؟ .

٢. هل نستطيع ان نقارن بين نظريته والنظريات الحديثة : الشكلانية منها والبنيوية والتوليدية ؟ .

هذه هي الدراسات والابحاث التي اهتمت بتفسير وتحليل ومقاربة علوم اللسان العربي في مقدمة ابن خلدون ،ووقفنا عليها . وهي على الارجح لا تمثل كل ما وضع من دراسات وابحاث ،فما من كتاب وضع في اللغة العربية وآدابها ،وخاصة منذ منتصف هذا القرن ،الا وتضمن اشارة او تنويها بما انطوت عليه المقدمة من ملاحظات هامة . كما ان المرجح أن هناك الكثير مما كتب عن ابن خلدون بلغات اجنبية في ضوء النظريات الالسنية المعاصرة ،مما لم نطلع عليه .

وفي ضوء ما اطلعنا عليه من ابحاث ودراسات ،لنا ان نسجل الملاحظات التالية على مناهج دراسة علوم اللسان العربي في المقدمة :

---

(١) المرجع السابق : ٤٥ .
(٢) المرجع السابق : ٤٥ - ٤٦ .
(٣) المرجع السابق : ٤٧ - ٥٦ .
(٤) المرجع السابق : ٥٥ - ٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اولا : نزوع بعضها الى الاحتفال الشديد بابن خلدون ،مع محاولة التهوين من شأن ملاحظاته بخصوص اللغات واللهجات ، او محاولة تغييبها . اعتقادا من بعض الباحثين بان في هذه الدعوة ما قد يسيء الى ابن خلدون .

ثانيا : نزوع بعضها الى قراءة نصوص ابن خلدون قراءة تفسيرية تفتيتية تلتزم بترتيب المسائل كما جاءت في المقدمة ،مما ادى الى افتقادها الى مفاهيم رئيسة تحتوي هذه المسائل المتفرقة .

ثالثا : نزوع بعضها الى ربط ابن خلدون بدائرة الفكر اللغوي الاوروبي اكثر من ربطه بدائرة الفكر اللغوي العربي .

رابعا : نزعة معظم الدراسات الى عدم دراسة ابن خلدون في سياق التراث النقدي واللغوي العربي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــل الثانـــــــي

المنهج ،والبيئتان : العامة والخاصة ـ مدخل الى التأويل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اشـــارة :

ما كان لابن خلدون أن يضع مقدمته ،ويغفل عن فرادة موضوعها ،ولكنه كان مدركا كل الادراك ذلك الفتح المعرفي الذى (أعثر عليه البحث ،وادى اليه الغوص)[١]. وهو اوالدال هذه في غنى عن كل ما قد ينتحله الباحث المعاصر ،من وسائل في البحث لوصل موضوع المقدمة (وهو العمران البشرى والاجتماع الانساني)[٢] بما يريده من موضوعات العلوم الاجتماعية والانسانية المعاصرة . وهو في غنى كذلك عن كل ما قد يتوسل به الباحث المعاصر ،من مبررات ،لوصل منهج المقدمة ،بما يميل إليه من مناهج بحث حديثة ،وذلك لان المقدمة تقدم نفسها موضوعا ومهمة ومنهجا .

وقصارى ما يمكن قوله : ان ابن خلدون قد وصل بمقدمته اقصى ما استطاعت ثمرات العلوم والمعارف الانسانية والعربية والاسلامية في عصره ان تؤدى اليه من صفوة تحليلية وتركيبية معا ،حتى ليمكن القول انه بهذا الفكر المتقدم استطاع أن يلامس آفاق المعارف الانسانية في الازمنة التي تلته بحضارات جديدة . فما هي ترى الشروط الموضوعية العامة والشروط الذاتية الخاصة التي اسهمت في ابداع المقدمة ودفعته الى كسر طوق التقليد وامتلاك منهج يفسر ما آل اليه العصر من انحطاط يبعث على القنوط واليأس والانزواء .

من العبث قطعا ،البحث عن اجابة صريحة عن هذا السؤال في المقدمة او التعريف الا ان بالامكان الحدس بهذه الاجابة استنادا الى الاشارات المضنية التي انطوت عليها كل من المقدمة والتعريف ،وان حشد هذه الاشارات وما كان منها في الجانب العام الذى يؤشر فيه وفي غيره من اعلام الثقافة ،ثم ما كان منها في الجانب الخاص الذي أعانه على تلمس شروط زمنه والوعي عليها بشكل يفوق الكثيرين ممن كانوا حوله لهو في راينا محاولة للعثور على اجابة مقبولة .

أ - منهج ابن خلدون العـــام :

يحدد ابن خلدون موضوع بحثه في المقدمة ،ومهمة هذا البحث ،فيقول :
(وكأن هذا علم مستقل بنفسه : فانه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الانساني - وذو مسائل ،وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد اخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان او عقليا . واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ،غريب النزعة ،فريد الفائدة ،اعثر عليه البحث ، وادى اليه الغوص[٣]. وليس من علم الخطابة الذي هو احد العلوم المنطقية ،

---

(١) ابن خلدون - المقدمة : ٣٣١/١ .
(٢) المصدر السابق : ٣٣١/١ .
(٣) المصدر السابق : ٣٣١/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي او صدهم عنه ،ولا هو ايضا من علم السياسة المدنية ،اذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل او المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ،ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه [١]...وكأنه علم مستنبط النشـــأة . ولعمري لم اقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة . ما ادري الغفلتهم عـــن ذلك ؟ وليس الظن بهم . او لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا فالعلوم كثيرة والحكماء في امم النوع الانساني متعددون ،وما لم يصل الينا من العلوم اكثر مما وصل[٢]...ونحن ألهمنا الله ذلك الى ذلك الهاما ،واعثرنا على علم جعلنا سن بكره وجهينة خبره . فان كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائـــر الصنائع انظاره وانحاءه ،فتوفيق من الله وهداية . وان فاتني شيء في احصائه ، واشتبهت بغيره مسائله ،فسلناظر المحقق اصلاحه ،ولي الفضل لاني نهجت لـــــه السبيل واوضحت له الطريق)[٣].

ولما كان ابن خلدون مدركا موضوع هذا العلم المبتكر (العمران البشـــري والاجتماع الانساني) ،ومهمته المتمثلة في بيان ما يلحق بهذا العمران البشري والاجتماع الانساني ،من الأحوال لذاته ،فليس بدعا ان يهتدي الى منهجه الخاص بوقوفه على حدود ذلك القانون العام ،الجامع المانع ،الصالح لكل زمـــــان ومكان :

(وأما الاخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة ولذلك وجب ان ينظر في إمكان وقوعه ،وصار فيها أهم من التعديل ومقدما عليه إذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط ،وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة. وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالامكـــــان والاستحالة أن ينظر في الاجتماع البشرى الذى هو العمران ،ونميز ما يلحقـــه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ،وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له . واذا فعلنا ذلك كان قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه . وحينئذ فاذا سمعنا عن شـــيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفـــــه . وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيمـــــا ينقلونه . وهذا هو غرض هذا الكتاب)[٤].

هي ذي اذن ،حدود هذا القانون في (تمييز الحق من الباطل) في كل ما يعرض من شؤون الاجتماع البشرى ،السابقة لزمن ابن خلدون واللاحقة :

---

(١) المصدر السابق : ٣٣٢/١
(٢) المصدر السابق : ٣٣٢/١
(٣) المصدر السابق : ٣٣٤/١
(٤) المصدر السابق : ٣٣١/١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اولا : لا بد في تقرير صحة الواقعة وصدقها من مطابقتها على مجمل الاحوال الواقعة في العمران ليتسنى بعد ذلك الحكم بامكانها او استحالتها. مما يملي استقراء العام المطرد بمعرفة طبائع العمران لتقرير صفة الخاص الماثل .

ثانيا: ولا بد من تقديم هذه المطابقة على تعديل الرواة وتجريحهم لان التعديل والتجريح علم خاص بتقرير صحة الاخبار عن تكاليف انشائية من امر ونهي وهي تكاليف حصل الظن بصدقها لما حصل الظن بوجوب الشارع ،وبالتالي فهو يقرر صحة الخبر عما حصل الظن بصدقه ،ولا يقرر صدق الواقعة أو كذبها الذى هو علم خارج التكاليف الانشائية .

ثالثا : ولا بد ايضا في هذه المطابقة من معيار صحيح (يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب) وهو معيار مستمد مما يلحق بالاجتماع البشرى (من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه) وليس مما ينفع في (استمالة الجمهور إلى رأى او صدهم عنه) لان القضية المنطقية قد تكون صادقة نظريا ،ولكنها قد لا تكون مطابقة للواقع ،وعليه فان المعيار المنطقي لا يصلح لتقرير امكان الواقعة او استحالتها[١].

ولم يغفل ابن خلدون عن تعيين معوقات هذا المنهج القانون ،التي تحجب الحقيقه وتبدل بها اكذوبة تروج بين الناس .

وأما اولى هذه المعوقات فهي الانصياع إلى الأمر المذهبي الذى يحول دون الحقيقة ويسدل عليها سجفا من الميول والاهواء :

(ولما كان الكذب متطرقا للخبر وبطبيعته وله اسباب تقتضيه . فمنها التشيعات للآراء والمذاهب ،فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه ،واذا خامرها تشيع لرأي او نحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة ،وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص ،فيقع في قبول الكذب ونقله)[٢].

وأما ثانية هذه المعوقات فهي الثقة العمياء بالناقلين ،وعدم تحرى مصداقيتهم : (ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار ايضا الثقة بالناقلين)[٣].

وأما ثالثة هذه المعوقات فهي الوهم المفضي الى صرف الحقيقة عن موضعها تبعا للتفسير الخاطئ .

وأما رابعة هذه المعوقات فهي التزلف لاصحاب الشأن بما يرضيهم ،ويشبع رغباتهم في الثناء عليهم : (ومنها تقرب الناس في الاكثر لاصحاب النحلة والمراتب

---

(١) مما أخذه ابن خلدون على علم المنطق افتقاره لمعيار مطابق للواقع ،انظر - المقدمة : ١٢١٢/٣، ١٢١٣ .

(٢) ابن خلدون - المقدمة : ٣٢٨/١.

(٣) المصدر السابق : ٣٢٨/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك ،فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة ،فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه وثروة ،وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في اهلها)[١]

وأما آخرة هذه المعوقات وأخطرها جميعا ،لا بل أكثرها تهديدا بطمس هذا القانون وهذا المنهج ،فهي الجهل :

(ومن الاسباب المقتضية له ايضا "يعني الكذب" وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الأحوال ،فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان او فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله[٢].

* * * * *

ان تحقيق شرط المعرفة بالحقيقة ،ليس كافيا ،عند ابن خلدون ،اذ لا بد من نقل هذه المعرفة بالحقيقة ،من حيزها الذاتي الممكن الى حيزها العام الفعلي وذلك بنشرها والعمل على تعميمها :

(ومتى عرف امرؤ قضية او استيقن امرا وجب عليه أن يصدع به)[٣].

وقد صدع ابن خلدون بالحق ،انسجاما مع هذا المنهج ،وعملا بضرورة عدم الانصياع للأمر المذهبي ،عندما وضع نفسه في مواجهة جمهور المؤرخين والمفسرين وأئمة النقل ،ناعيا عليهم ما وقعوا فيه من المغالط (في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا ،لم يعرضوها على اصولها ،ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة ،والوقوف على طبائع الكائنات ،وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار ،فضلّوا عن الحق ،وتاهوا في بيداء الوهم والغلط)[٤].

ولمزيد من التفصيل يعمد الى التنبيه على بعض هذه المغالط القاتلة ،التي ادى اليها الركون الى النقل ،والتشيع البغيض :

١ - التنبيه على التزيّد والمبالغة (في احصاء الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات)[٥] وهما تزيد ومبالغة صدرا عن المسعودى وغيره ،سواء اكان ذلك في معرض احصاء اعداد جيوش بني اسرائيل او احصاء اعداد جيوش المسلمين او النصارى[٦].

٢ - التنبيه على تهافت اخبار المؤرخين والمفسرين عن غزو تبابعة اليمن لافريقية وبلاد الشرق وارض الترك[٧]،وعن (إرم ذات العماد)[٨].

---

(١) المصدر السابق : ٣٢٨/١ .
(٢) المصدر السابق : ٣٢٩/١ .
(٣) المصدر السابق : ٣١١/١ .
(٤) المصدر السابق : ٢٩١/١ .
(٥) المصدر السابق : ٢٩٢/١ .
(٦) المصدر السابق : ٢٩٢/١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
(٧) المصدر السابق : ٢٩٥/١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ .
(٨) المصدر السابق : ٢٩٩/١ ، ٣٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- التنبيه على تشنيع بعض المؤرخين على الخليفة هارون الرشيد وأخته العباسة ،في شأن فتكة الرشيد بالبرامكة[١]. وعلى الخليفة المأمون في شأن نبذه بالسكر و الميل إلى الغلمان[٢].

٤- التنبيه على تهافت طعن الكثير من المؤرخين والأثبات في صحة انتساب العبيديين الفاطميين إلى الإمام اسماعيل بن جعفر الصادق[٣] . وضعف اعتمادهم (على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم ،وتفننا في الشماتبعدوهم [٤]. ومثل هذا الطعن في صحة انتساب الادارسة إلى علي بن أبي طالب[٥] .

٥- التنبيه على فساد مقالات (ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين أو نسبته إلى الشعوذة والتلبيس ... وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك،حتى فيما يزعم الموحدون اتباعه من انتسابه في أهل البيت)[٦].

إن ما أخذ ابن خلدون على عاتقه ،توخيه من منهج تاريخي ونقدي في آن،في معرض كلامه على العمران البشري والاجتماع الانساني،هو ذاته ما سوف يأخذه على عاتقه في معرض كلامه على العلوم واصنافها بشكل عام ، وعلى علوم اللسان العربي وموقعها من هذه العلوم بشكل خاص وهو ما نشير له في هذا الفصل .

ب - بيئة ابن خلدون العامة والخاصة :

ما من مفكر عاش عصرا مضطربا وجذف في تياراته السياسية والفكرية المتلاطمة كابن خلدون ،ولعل سيرته التي سردها في كتابه "التعريف" ،تكشف عن جانب كبير من هذا الاضطراب .

ففي المغرب العربي كان من الصعب أن يقوم حكم سياسي قوى ،بعد أن أخفق المرينيون في ذلك مع أنهم قضوا على دولة الموحدين وقد اسهمت الحروب الدائمة بين

---

(١) المصدر السابق : ٣٠٠/١ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،وما بعدها .
(٢) المصدر السابق : ٣٠٦/١ وما بعدها .
(٣) المصدر السابق : ٣٠٩/١ وما بعدها
(٤) المصدر السابق : ٣٠٩/١
(٥) المصدر السابق : ٣١٣/١ وما بعدها .
(٦) المصدر السابق : ٣١٧/١ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسر الحاكمة وثورات القبائل المتوالية في القضاء على أية بارقة أمل في استقرار المغرب سياسيا . فإذا أضفنا إلى ذلك مظاهر الركود الاقتصادي التي اناخت بظلها على المغرب العربي ،وانتشار الأمراض والأوبئة ،صار بوسعنا القول إن المغرب كان يغذ السير للدخول في طور الانحطاط . ولم تكن الاندلس بأحسن حالا من العدوة إذ كانت قد تحولت إلى هدف سهل لغارات الفرنجة ،في غفلة من أمرائها المشغولين عن الذود عنها بدسائسهم ومآربهم الشخصية ،في الوقت الذي غدا فيه أهلها من المسلمين بعيدي عهد بالقتال ،ولم يعودوا أولئك الفرسان الأشداء الذين كانت ممالك الشمال تحسب لهم ألف حساب .

أما دول المشرق في مصر والشام ،فعلى الرغم من أنها كانت ما تزال تمتلك بقية باقية من القدرة على حماية حدودها من خطر المغول ،إلا أنها كانت تضطرم بالفتن السياسية ،وتعج بالفساد .

هذا ،إلى أن الاوضاع الثقافية والفكرية السائدة ،كانت قد اتسمت بالجمود والنكوص الى التقليد ،رغم اتساع حركة التأليف وانتشار دور العلم ،ناهيك عن انتشار الشعوذة والخرافات وازدهار الطرق الصوفية أيما ازدهار.

وكما تساءلنا آنفا ،ها نحن نتساءل مرة أخرى : كيف استطاع ابن خلدون أن يقفز عن كل هذه المحبطات ،وكيف استطاع أن يصوغ بفكره ،من عوامل الانحطاط والتردي ،أثرا خالدا يفسر ظهور هذه العوامل ،ويدعو الى تجاوزها ؟ وكيف استطاع ان يمتلك منهجا مكّنه من استيعاب حركة المجتمعات الانسانية وحركة أجيالها وما يعرض فيها من ظواهر في المعرفة ،مستقلا بمنهجه في ذلك عن السابقين والمعاصرين له ،بحيث أنه عمل على الاستفادة من مظاهر الانهيار العام لبناء مفهوم متماسك عن العمران البشري والاجتماع الانساني وما يعرض فيهما من العلوم والمعارف . هذا ما سوف نحاول الإجابة عليه بتسليط الضوء على بيئته العامة والخاصة .

١. البيئة العامة :

خضع ابن خلدون لجملة شروط عامة محبطة ،فعلت فعلها في وعيه ،كما فعلت في وعي غيره ،وكان من المحتمل أن ينحصر تأثيرها في الانفعال السلبي بها ،لو لم يقيض له التوفر على تلك الشروط الذاتية الخاصة التي أعانته على امتلاك إجابة مقنعة تفسر له هذه الشروط العامة وتجعلها مقبولة . ولعل شرطي الاقتصاد والبيئة كانا في مقدمة شروط الاحباط التي احالها وعيه الخاص إلى عناصر مقبولة :

* الانحطاط الاقتصادي[1]: وقد خيم على المغرب العربي بعد نجاح الأوروبيين في

---

(١)يعبر ابن خلدون عن مفهوم الاقتصاد السياسي ،بكلمة (المعاش) وقد استوفى في مقدمته الحديث عن وجوه المعاش التي تعرض في المجتمعات : انظر الباب الخامس من المقدمة ،والجزء الثالث من النسخة المحققة ،ص ٩٠٥ - ٩٨٤ ،تحت عنوان : (في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مسائل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوصول الى مناطق انتاج الذهب عن طريق المحيط الأطلسي ،بدلا من البحر المتوسط ففقد المغرب العربي بذلك ميزته التجارية العامة في الوساطة بين الشرق والغرب مما أدى إلى شلّ الحياة الاقتصادية (١).

* القمع البيئي : وقد تمثل في أبشع صوره واكثرها مأساوية بالطاعون الجارف (الذى تحيف به الأمم وذهب بأهل الجيل ،وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاهـا وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها ،فقلص من خلالها ،وفـل من حدهـا ،وأوهن من سلطانها ،وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال احوالها ،وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر ،فخربت الأمصار والمصانع ،ودرست السبل والمعالم ، وخلت الديار والمنازل ،وضعفت الدول والقبائل) (٢).

وإن كان لنا أن نستنتج ما جد على البلاد - بعد أن ضربها الكساد ،وتحيفهـا الطاعون ،فقلّص من ظلال الدول وفلّ حدها وأوهن سلطانها - فإنه يبدو لنا أن هذه الأحوال قد أدت إلى ارتفاع صوت العامة ،واشتداد لغطهم ،وانتشار آدابهم ،وشيوع لهجتهم . وهو أمر يعرض في كل زمان ومكان ،لأن من المألوف أن يخفت صوت العامة ، ويقل لغطهم وتتوارى آدابهم في ظل الدول القوية ذات الحكم المركزي ،التي تميل عادة إلى الإعلاء من شأن الخاصة ،وشأن الآداب والعلوم الشريفة ،واللغة الفصيحة على حساب العامة وآدابهم ولهجاتهم ،وتسد عليهم وعليها المنافذ .

وقد رأينا مثل ذلك يحدث في المشرق ،اذ ما أن أخذت الدولة العباسية فـي التفكك ،حتى أخذت حركة العامة تتصاعد،وتتصاعدمعها آدابها ولهجاتها،مما أملى على شعراء العصر ،ضرورة القول في الأغراض التي كانت تعد محتقرة في نظر من سبقهم وغدا الشعر وسيلة التعبير عن الحاجات والهموم اليومية البسيطة . وقد التقـط ابن خلدون بحسه العميق،هذا التحول في الايقاع الحياتي ،الذى فرضته شروط العصر القاسية ،وأتاحة ارتخاء قبضة الدول التي لم تعد قادرة على بسط هيمنتها ،وعبـر عنه قائلا :

(فكأنما تبدل الخلق من أصله ،وتحوّل العالم بأسره ،وكأنه خلـق جديـد ، ونشأة مستأنفة ،وعالم محدث) (٣).

واتجه في ظل هذا الحس المرهف إلى كتابة تاريخ (يقطع) مع كل التواريـخ السابقة التي لم تعد صالحة في نظره ،لأنها لم توضع إلا لصاحب الأمر (فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونساءه ولقبه وخاتمه وماضيه وحاجبه ووزير) (٤). وإلا (لأهل الدولة وأبنائها متشوقين إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتفوا آثارهـم

---

(١) عبد القادر جغلول - الاشكاليات التاريخية : ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) ابن خلدون - المقدمة : ٣٢٥/١ ، ٣٢٦ .
(٣) المصدر السابق : ٣٢٦/١ .
(٤) المصدر السابق : ٣٢٤/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم ،وتقليد الخطـــــط والمراتب لأبناء صنائعهم وذويهم)[١].

وفي لحظة تيقن كامل ،ومعرفة تامة ،يصدع ابن خلدون بالحق ،ويصـــرخ متسائلا :

(فما الفائدة للمصنف في هذا العهد في ذكر الأبناء والنساء ونقش الخاتـــم واللقب والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهـــــم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم ؟)[٢].

نعم . إن هذه التواريخ في نظر ابن خلدون ليست إلا ذهولا عن حركة التاريـخ الحقيقية التي تحتاج من يعيها ويعبر عنها ،وذلك بكتابة تاريخ حركة المجتمـع والاجيال وليس بكتابة تاريخ يقتصر على ذكر الأبناء والنساء . تاريخ (يـــدوّن أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها)[٣].

وإن كان ابن خلدون لم يدّخر وسعا في التأريخ للأجيال ،مستوعبا في تأريخه لها حركة الخاصة منها والعامة ،وإنه لم يدخر وسعا أيضا في التأريخ لآداب هـــذه الأجيال ،الخاصة منها والعامة . وكما أفرد فصولا للكلام على علوم اللسان العربي (الشريفة) من نحوولغة وبيان وأدب وشعر ونثر ،فقد خصّ آداب العامة بقسط وافـر من اهتمامه ،وضمّن مقدمته من هذه الآداب ما أنف غيره من تضمينه لكتبهم ،وتكلّم على بعض لهجات العامة ،كلام الناقد الموضوعي الذي يتعامل مع الظاهرة الاجتماعية بجرأة غير متجاهل أهميتها ،ومن هنا وصف أعراضها وعمل على تفسيرها .

هكذا أثّرت الشروط العامة في كتابة المقدمة بشكل عام ،وهكذا أسهمت بشكـــل خاص في صياغة الفصول التي كتبها ابن خلدون عن علوم اللسان العربي موضوع بحثنا في هذه الدراسة .

٢. البيئة الخاصـــــة :

ألمحنا في مستهل كلامنا على البيئة العامة ،إلى الأوضاع السياسية المتردّية التي كانت تخيم على المغرب العربي والأندلس ،وأشرنا إلى إخفاق المرينيين فـــي بسط نفوذهم على المغرب العربي ،لانشغالهم بصراعاتهم العائلية الدامية ،حتـــى إن الواحد منهم قتل أباه للاستئثار بالسلطة[٤] ،من جهة ،ولانشغالهم بالصراع مـــع الأسر الحاكمة الأخرى : الحفصيين في تونس ،وبني عبد الواد في الجزائر،من جهة اخرى .

---

(١) المصدر السابق : ٣٢٤/١ .
(٢) المصدر السابق : ٣٢٤/١ .
(٣) المصدر السابق : ٣٢٦/١ .
(٤) فقد قام أبو عنان بقتل أبيه وأخيه ليخلص له الامر ،انظر تفصيل ذلك في : ابن خلدون – العبر : ٥٩٣/٧ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع أننا لا نجادل في أن هذه الظروف كانت عامة ،بحيث أنها أثّرت في ابن خلدون كما أثّرت في غيره من السياسيين والمثقفين ،إلا أننا نرى في الوقت نفسه ،ما كان لدى ابن خلدون من خصوصية أسهمت في تعميق حسّه بالواقع السياسي المتردي ،ودفعته إلى البحث عن أجوبة لهذا التردي . ونعني بهذه الخصوصية تلك الصلة الوطيدة التي ورثها عن أجداده مع الموحدين عموما ،والحفصيين خصوصا .

والحديث عن أي صلة ربطت بين ابن خلدون والموحدين ،سياسيا ،هو حديث عن صلة أعمق بالتيار الفكري العام الذي نتج عن دعوة الموحدين ،وغدا بمرور الزمن الانجاز الأهم لهم (١).

وليس من السهل الفصل بين التاريخ السياسي لأسرة ابن خلدون ،والتاريخ السياسي لدولة الحفصيين الموحدين في تونس . لإنه تاريخ مشترك ،يضرب بجذوره بعيدا في الأندلس ،عندما كان الحفصيون لمّا يزالوا ولاة على اشبيلية (٢).

وقد اضطلع أجداد ابن خلدون بتدبير شؤون الحكم والحجابة منذ أن أقام الحفصيون دولتهم . حتى سنة ٧٣٧هـ ،التي توفي فيها جده الأدنى (محمد بن أبي بكر) (٣).

وليس من السهل أيضا الفصل بين الموحدين والحفصيين ،فالآخرون ليسوا سوى امتدادا للأولين ،وحيثما تحدث ابن خلدون عن الموحدين نجده يشمل في حديثه الحفصيين ،وحيثما تحدث عن الحفصيين نراه يرنو الى الموحدين . ولعل اندثار دولة الموحدين في المغرب الاقصى فرض على ابن خلدون ضرورة النظر إلى الحفصيين على أنهم الأثر المتبقي من تلك الدولة القوية التي استطاعت أن تحقق وحدة المغرب العربي والأندلس سياسيا وثقافيا .

وانه لامر ذو مغزى ان لا يتوانى ابن خلدون عن المغامرة بنفسه من اجل شخص آخر - مع ان ابن خلدون لم يكن يدخر وسعا في انتهاز فرصة للنجاة بنفسه - لان هذا الشخص هو ابو عبد الله محمد الحفصي ،امير بجاية السابق (٤). وكانت هذه المغامرة هي التضحية الوحيدة التي قدمها لشخص آخر ولم تتكرر في حياته ابدا ودفع بسببها سنتين من السجن (٥).

---

(١) حرصا منا على الالتزام بأكبر قدر من الموضوعية ،فإننا سوف نعتمد في رسمنا لعلاقة ابن خلدون بالموحدين وإعجابه بهم، كتابيه: المقدمة والتعريف ،ولن نحيل الى تاريخه (العبر) إلا لأسباب تاريخية بحته ،لأن ابن خلدون وإن كان قد أرّخ للموحدين بحماسة في العبر ،فإن هذا التأريخ اقتضاه التأريخ لكل العهود في المشرق والمغرب وإظهار محاسنها ،وهو لا يعد دليلا على العلاقة المتميزة التي نود إبرازها .

(٢) ذكر أن أحد أجداده قد اتصل بالحفصيين في إشبيلية ،وأهدى مؤسس دولة الحفصيين في تونس جارية أصبحت تلقّب فيما بعد أم الخلفاء ،انظر - التعريف : ٩ .

(٣) المصدر السابق : ١٤ .

(٤) المصدر السابق : ٦٦ ،٦٧ ،٦٨ .

(٥) المصدر السابق : ٦٧ ،٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن هذه التضحية التي قدّمها ابن خلدون لم تذهب سدى ، إذ ظل الأمير ابو عبد الله ذاكرا له هذا الصنيع . حتى إذا نجح في استعادة كرسي حكمه في سنة ٧٦٥هـ ، أرسل له يستقدمه من غرناطة ليوليه الحجابة ، فأجابه ووافاه في منتصف عام ٧٦٦هـ ، وأقام عنده حاجبا حتى قام سلطان قسنطينة بغزو بجاية واستولى عليها وقتل الأمير أبا عبد الله [1]. وبذلك تبخّرت كل الآمال السياسية التي كان يعلقها على أميره [2].

غير أن هذا لم يحل دون استمرار إعجابه بالمهدي بن تومرت ودعوته التي أثمرت دولته مثلت لديه المثال النموذجي لدولة ذات نفوذ سياسي كبير ، وأفق ثقافي واسع .

ولعل الكلام على هذا الاعجاب الذي ترفده صلة سياسية عريقة ، وآثاره التي تبدت في وعي ابن خلدون ، يقتضي منا شيئا من التفصيل وكثيرا من الدقة ، ولا بأس والأمر كذلك ببعض الكلام على الموحدين والحفصيين .

الموحدون (والحفصيون):

جاءت دولة الموحدين (٥١٤هـ - ٦٦٨هـ) تتويجا عمليا وعقديا لدعوة المهدي بن تومرت ، على أنقاض دولة المرابطين التي كانت قد فقدت بريقا اكتسبته بالدفاع المستميت عن الثغور الاسلامية في الأندلس [3]. وغدت في شغل عنه لما استشرى فيها

---

(١) ابن خلدون - التعريف : ٩٤ - ١٠٠ .

(٢) انظر هذه العبارات لابن خلدون في التعريف :

ص ٩ : (ولما استولى الموحدون على الاندلس ..فكان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم ...الخ).

ص ١٢ : (..ودفع جدنا أبا بكر محمد الى عمل الأشغال في الدولة ، على سنن عظماء الموحدين فيها قبله ...الخ) .

ص ٦٦ : (وكانت قد حصلت بيني وبين الامير محمد صاحب بجاية من الموحدين مداخلة احكمها ما كان لسلفي في دولتهم ، وغفلت عن التحفظ في مثل ذلك ..الخ) .

ص ٩٥ : (ولما قدمت على السلطان أبي عنان ..نبضت عروق السوابق بين سلفي وسلف الأمير أبي عبد الله ، واستدعاني للصحابة فأسرعت ..الخ) .

ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ : حيث يقول من قصيدة له تظهر عدم فصله بين الموحدين والحفصيين ، وإعجابه بهم :

من شيعة المهدي بل من شيعة ... التوحيد جاء به الكتاب يفصل
بل شيعة الرحمن ألقي حبهم ... في خلقه فسموا بذلك وفضّلوا
شادوا على التقوى عزهم ... لله ما شادوا بذلك وأثلوا
قوم ابو حفص أب لهم وما ... أدراك ! و الفاروق جد اول

(٣) المراكشي - المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، الطبعة المصرية ، ١٣٢٤هـ : ١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ضروب اللهو والشرب الخمر وغلبة النساء على شؤون الحكم [١]. هذا ،رغم أنها كانت دولة الفقهاء بلا منازع ،إذ بلغت سطوتهم فيها حدا جاوز كل وصف[٢].

ولم يدّخر هؤلاء الفقهاء في بداية حكم المرابطين ،وسعا في إرساء الأركان المتينة للاسلام ،وتبرئته من كل جدل أو خلاف ثم ما لبثوا بعد أن تنعّموا وأثروا، أن ضيقوا على النظر في كتب أهل الكلام كل تضييق[٣]،وحرّموا الاشتغال في العلوم العقلية والفلسفية . وأسهموا بطريق غير مباشر في تكوين بعض المفاهيم الساذجة عن الخالق .

وفي ظل هذه الظروف الاجتماعية والفكرية المتردّية ،ظهر المهدى بن تومرت وكان قد جاب العالم الاسلامي والتقى بالجهابذة من علمائه وفلاسفته [٤]،ومتح من خزائن كتبه . فأفاد من أخطاء المرابطين في إنجاح دعوته بذكاء ملحوظ . ولجأ إلى استقطاب العامة وإلهاب مشاعرهم الدينية الدفينة بمداهمة أماكن اللهو التي كانت تعج بها دولة المرابطين وتكسير آلات الطرب وأواني الخمر [٥]. مما جعله يبدو في نظر العامة منقذا جريئا . ولجأ الى تفجير مشاعر البغض لدى العامة تجاه فئة الفقهاء الذين كانوا يقبضون على زمام الأمور في الدولة ،غير عابئين بكل مظاهر الفساد فيها ،وذلك بإظهار تعلقهم بالدنيا وابتعادهم عن الاصول ، واقتصارهم على الفروع [٦].

وعمد في المقابل ،إلى جملة من أمور العقيدة والسلوك والتنظيم ،جعلت لدعوته آذانا صاغية لدى آلاف من الناس . فقد أظهر الدعوة الى نبذ الفروع والعودة إلى الأصول من القرآن والسنة ،وعمل على التقرب من العامة والتبسّط معهم ونشر دعوته بينهم والتحدث إليهم بلهجاتهم [٧]. وتحرى الاقتداء بالسيرة النبوية ،حتى أن الناظر في سيرته يلحظ ذلك الميل الشديد الى التشبه بأفعال النبي[٨] صلى الله عليه وسلم . ونظّم أصحابه في طبقات ،تنظيما محكما ،يخدم

---

(١) انظر ،البيذق ـ كتاب أخبار المهدي بن تومرت ،تقديم وتحقيق وتعليق : عبد الحميد حاجيات ،الجزائر ،١٩٧٥ : ٤٦ ،المراكشي ـ المعجب : ١١٤ ،١٣٤ .

(٢) المراكشي ـ المعجب : ١١٠ .

(٣) المصدر السابق : ١١١ وما بعدها .

(٤) ابن خلدون ـ العبر : ٦/ ٤٦٥ ،المراكشي ـ المعجب : ١١٥.

(٥) البيذق ـ أخبار المهدى : ٣٦ ،٤٦ ،٥٢ ،٥٤ .

(٦) السبكي ـ طبقات الشافعية الكبرى ،تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو وزميله ، ط ١ ،نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه ،د . ت : ٦/ ١١٠ ،١١٧ .
البيذق ـ أخبار المهدي : ٥١ . وقد اراد ان يثبت لنفسه هذه الصفة فأعلن أنه المهدى المنتظر مستفيدا من تأثير بعض الاحاديث النبوية .

(٧) ابن خلدون ـ العبر : ٦/ ٤٦٦ ،٤٦٩ . المراكشي ـ المعجب : ١٢٠ .

(٨) البيذق ـ أخبار المهدي : ٦٤ . المراكشي ـ المعجب : ١٢٠ وما بعدها . ابن خلدون ـ العبر : ٦/ ٤٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اغراض الدعوة في ميادينها السياسية والعسكرية واصول العقيدة ، وهكذا لم يكن مستغربا ، ان تشتد دعوة الموحدين وتستوي على سوقها ،وتصبح دولة مترامية الاطراف ،ولكن الغريب حقا ان تتأخر دولة الحفصيين في الظهور حتى سنة (٦٢٦هـ) ، عندما استقل ابو زكريا ،يحيى بن عبد الواحد بن ابي حفص (ت٦٤٧هـ) بولاية تونس عن دولة الموحدين اذ ان المتمعن في سيرة الدعوة الموحدية يستغرب تقديم المهدي بن تومرت لعبد المؤمن بن علي على الشيخ ابي حفص،رغم ان الاخير كان صانعا للاحداث وموجها لها ،وان من خلف ستار،سواء اكان ذلك في عهد المهدي ام في عهد عبد المؤمن

وأيا كان الأمر ،فان تقديم عبد المؤمن على أبي حفص ،لم يغيّر الأخير ،بل ظل مخلصا لدعوة المهدي ،ومنافحا عنها ،وناصحا أمينا لعبد المؤمن حتى عندما جعل الإمارة في عقبه ،كما لم ينتقص من قدره ،وهو (شيخ) الموحدين المخصوص من بينهم بهذا اللقب [١].وما لم يقم به الشيخ القانع بمرتبة الرجل الثاني في دولة الموحدين ،قام به الحفيد ،منتهزا فرصة ارتداد المأمون ،أبي العلا بن إدريس (ت ٦٣٠هـ) ،رابع أمراء الموحدين عن دعوة المهدي الإمام المعصوم فأعلن "أبي الحفيد" استقلاله بتونس ،وخطب باسم المهدي[٢].

هذه لمحة موجزة عن الجانب السياسي في دعوة الموحدين التي أثمرت دولة كبرى ما لبثت أن تمخضت عن دولة أخرى هي دولة الحفصيين في تونس .

والحق أن هذه اللمحة ،ستبدو غير وافية بالغرض ،مالم نتكلم على الجانب الثقافي في دعوة الموحدين . إذ إن هذا الجانب كان ركنا رئيسا في الخطط التي اتبعها المهدي لنشر دعوته وكان مكملا للجانب السياسي .

فقد قامت الدعوة الموحدية على أساس متين من العقيدة ،صاغه المهدي من مقولات مذاهب كلامية مختلفة ،صياغة أظهرت قدرته الفائقة على الاستفادة من مضمون هذه المذاهب ،وتوظيفها في قالب جديد ،تحاشى به التناقضات الماثلة بينها .

ولعل إيرادنا النص الكامل (للمرشدة) أبلغ مثال على هذه المقدرة ،لما امتازت به من إيجاز وحسم ووضوح[٣]

* اعلم ،أرشدنا الله وإياك ،أنه يجب على كل مكلّف أن يعلم أن الله عز وجل واحد في ملكه ،خلق العالم بأسره العلوي والسفلي ،والعرش ،والكرسي ،والسموات والأرض ،وما فيهما ،وما بينهما . جميع الخلائق مقهورون بقدرته ،لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ،ليس معه مدبر في الخلق ،ولا شريك في الملك ،حي قيوم ، (لا تأخذه سنة ولا نوم)[٤]، (عالم الغيب والشهادة)[٥]، (لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء)[٦]،

---

(١) المصدر السابق : ٥٧٨/٦ .
(٢) المصدر السابق : ٥٩٤/٦ .
(٣) انظر نص هذه العقيدة عند السبكي ـ طبقات الشافعية : ١٨٥/٨ ـ ١٨٦ .
(٤) البقرة : ٢٥٥ .
(٥) الانعام : ٧٣ ، الرعد : ٩ ، المؤمنون : ٩٢ ، السجدة : ٦ ، الحشر : ٢٢، التغابن :١٨
(٦) آل عمران : ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(يعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين[١]، (أحاط بكل شيء علما)[٢]، (وأحصى كل شيء عددا)[٣] (فعّال لما يريد)[٤]، قادر على ما يشاء، له الملك والغناء، وله العز والبقاء، وله الحكم والقضاء، وله الأسماء الحسنى، لا دافع لما قضى، ولا مانع لما أعطى، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء، لا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا، ليس عليه حق، ولا عليه حكم، وكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون)[٥]، موجود قبل الخلق، ليس له قبل ولا بعد، ولا فوق ولا تحت، ولا ولايمين ولا شمال، ولا أمام ولا خلف، ولا كل ولا بعض، ولا يقال: متى كان، ولا أين كان، ولا كيف كان، ولا مكان، كوّن الأكوان، ودبّر الزمان، لا يتقيد بالزمان. ولا يتخصص بالمكان، ولا بشغله شأن عن شأن، ولا يلحقه وهم، ولا يكتنفه عقل، ولا يتخصص بالذهن، ولا يتمثل في النفس، ولا يتصور في الوهم، ولا يتكيف في العقل، لا تلحقه الاوهام والافكار، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٦].

ويتضح من تأمل هذه (العقيدة) أنه أخذ من الأشاعرة قولهم بلا تناهي قدرة الله على ما أوجد وما لم يوجد[٧]، وأخذ منهم القول بإرادة الله المطلقة وشمولها جميع الأفعال الحسنة والقبيحة[٨] دون رقيب أو حكم، مخالفا في ذلك المعتزلة الذين أثبتوا لله إرادة على فعل الحسن، ونفوا عنه غير ذلك.

وأخذ من المعتزلة قولهم بإثبات الصفات لله في آي السلوب، نفيا للتشبيه والتجسيم والتكييف[٩]. وأخذ من الظاهرية الحزمية القول بتسمية الله بأسمائه الحسنى، وإبطال الخوض في صفات الله[١٠].

---

(١) الانعام : ٥٩.
(٢) الطلاق : ١٢.
(٣) الجن : ٢٨.
(٤) هود : ١٠٧، البروج : ١٦.
(٥) الانبياء : ٢٣.
(٦) الشورى : ١١.
(٧) الاشعري - مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت : ٢٥٤/٢ وما بعدها.
(٨) المصدر السابق : ٢٥١/٢ وما بعدها.
(٩) السبكي - الطبقات : ١١٧/٦.
(١٠) ابن حزم - الفصل في الملل والاهواء والنحل، تحقيق : د. محمد ابراهيم نصر وزميله، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥ : ٣٢٥/٢ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أشاع هذا الاتجاه التركيبي في التفكير ، المنفتح على مقولات المذاهب كافة حالة من الحوار الخصب والجدل الهادف ، المرتكزين على قاعدتين هما :

١. رفض التقليد بإطلاق ،والاحتكام إلى الأصول من قرآن وسنة ،والإعراض عن علم الفروع واطّراحه ،لما أدى إليه من تفريع وتشويش للابتعاد عن الأصول ،والحيلولة دون الاجتهاد(١).

٢. إبطال القياس المعمول به استنادا إلى عرض الشاهد الفرعي (غير المنصوص عليه على الغائب الاصلي (الذى ورد فيه نص) ،واستبداله بقياس خاص تكون نتائجه مبنية على مقدمات مستمدة من الأصل(القرآن والسنة) ومتضمنة دلالة لفظية صريحة ، تنبه على الجامع في المعنى بين المقدمات والنتائج (٢).

وقد أدى الاحتكام الى هاتين القاعدتين إلى جملة أمور منها :

أولا : محاربة (فروع)(٣) المذهب المالكي من شروح وإضافات حول الموطأ والمدونة

---

(١) انظر نصوصا قاطعة لابن حزم ،يبطل بها التقليد إطلاقا ،فيما جاء به نص من قرآن وسنة في ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل ،تحقيق سعيد الأفغاني ،ط ٢ ،دار الفكر ،بيروت ،١٩٦٩ : ٥٢ - ٥٥ .

(٢) انظر بخصوص إبطال القياس فيما ورد فيه نص ،ابن حزم - ملخص إبطال القياس : ٢٧ - ٤٥ . وقد بين الدكتور الجابرى في كتابه (تكوين العقل العربي ،ط ٢ ، دار الطليعة ،بيروت ،١٩٨٥ : ٣٠٢) منهج الظاهريين الخاص في القياس بالقول يتلخص مذهب الاصبهاني كما قرره هو وابنه وأتباعهما في نقطتين اثنتين : الاولى هي القول بأن الشريعة نصوص فقط وأن الأحكام يجب أن تؤخذ من ظاهرها دونما تأويل او قياس . فالقرآن عندهم مبين بنفسه يدل ظاهر لفظه على المعنى المقصود وبالتالي فلا مجاز فيه ولا مجال للقياس . أما النقطة الثانية فتتعلق بما لم يرد فيه نص خاص مباشر ،وهنا يعمد الظاهرية إلى ما يسمونه "الدليل" وهو استدلال يعتمد على صريح النصوص أيضا ..فبدلا من القول مثلا إن النبيذ حرام قياسا على الخمر (الذى ورد فيه نص) وبناء على ظن الفقيه بأن علة تحريم الخمر هي الاسكار ،وهي متوفرة في النبيذ ...يضع الظاهرية مقدمتين مأخوذتين من النصوص مباشرة فيقولون "كل مسكر خمر وكل خمر حرام" =(حديث نبوي) ثم تأتي النتيجة :(كل مسكر حرام) وهي غير مصرح بها في النص ولكنها لازمة من ظاهره .

(٣) وهو ما نميل الى ترجيحه ،خلافا لما ذهب إليه بعض الدارسين من أن الموحدين قد أرادوا إبدال المذهب المالكي بالمذهب الظاهرى استنادا إلى قول المراكشي (كان قصده في الحملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ،وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ـالخ) وهو قول استنتاجي لا يعضده ما استشهد به المراكشي نفسه من قصة دخول ابن، الجد على يعقوب بن يوسف الذى اشتكى له من تفرع الأقوال ،ثم حسم الأمر بان قال : ليس إلا هذا ،وأشار الى المصحف ،أو هذا ،وأشار الى كتاب سنن أبي داود ،وكان عن يمينه ،أو السيف . انظر ،المراكشي - المعجب ١٨٤ - ١٨٥، وشوقي ضيف - المقدمة على تحقيق كتاب الرد على النحاة : ١٦ ،١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غدت بمر السنين سدا يحول دون النظر في الأصول .

ثانيا : الاهتمام البالغ بالظاهرية ،وإحياء آثار ابن حزم ،لما انطوت عليه من رفض مطلق للتقليد وابطال للقياس السائد(١).

ثالثا : انبعاث مدرسة ثقافية متميزة ،بما تهيأ لها من ظروف أهمها : اتاحة النظر في كتب المتكلمين وحرية الاشتغال في العلوم العقلية والفلسفية ، والحفز على الاجتهاد في العلوم والفقه والأدب(٢).

وكانت هذه المدرسة بحق ،الانجاز الأكبر للموحدين في المغرب ،والأبعد أثرا في بيئة المغرب الثقافية ،حتى إذا تهاوت دولتهم ،عمد المرينيون إلى إزالة كل ماله علاقة بهم . سوى هذه المدرسة التي اهتموا اهتماما بالغا بالمحافظة عليها ، فاستمرت متميزة باهتماماتها حتى عصر ابن خلدون .

وقد عكست هذه المدرسة في جانبها الفقهي والفلسفي ممثلا بابن رشد ثورة على أصول الفقه والفلسفة وتفريعات الفقهاء والفلاسفة عليها في آن. إذ عمد ابن رشد إلى تقرير الفصل بين الاشنين(٣)،والتأكيد على خصوصية طبيعة المعرفة لكل منهما (عالم الغيب وعالم الشهادة) من جهة ،وعلى تكامل معطياتهما والتقائهما في الهدف والغاية من جهة ثانية (٤).

---

(١) ويظهر هذا من قول المنصور يعقوب بن يوسف عندما وقف على قبر ابن حزم : كل العلماء عيال على ابن حزم . انظر ،المقرى ـ نفح الطيب : ٢٣٨/٣ .

(٢) ويظهر هذا من قول ابن رشد الذى شرح كتب أرسطو ولخصها بطلب من يوسف بن عبد المؤمن : (وقد رفع الله كثيرا من الشرور والجهالات ،والمسالك والمضلات بهذا الأمر الغالب ،وطرق به الى كثير من الخيرات ،وبخاصة على الصنف الذى سلكوا مسلك النظر ورغبوا في معرفة الحق) .
انظر، ابن رشد ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ،دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة ،ط ٣ ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،١٩٨٦ : ٦٧ .

(٣) وسوف نلاحظ لاحقا ،لدى كلامنا على موقع القضايا اللغوية والادبية من المقدمة ، مدى تأثر ابن خلدون بابن رشد ،حيث عمد إلى تصنيف العلوم إلى صنفين : وضعي ونقلي ،وقد عد علوم اللسان العربي من العلوم النقلية التي تجب معرفتها .

(٤) استندنا في هذا العرض الموجز للجانب الفلسفي إلى الدراسة الضافية للدكتور الجابرى. (المدرسة الفلسفية في المغرب والاندلس ـ مشروع قراءة جديدة لفلسفة ابن رشد) انظر الدراسة في كتابه نحن والتراث : ٢١١ ـ ٢٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفيما يتعلق بالدين اعتمد القرآن أصلا (يفسر بعضه بعضا) وذلك لإنه (ما من منطوق به في الشرع مخالف لما أدى إليه البرهان "ظاهرا" إلا إذا اعتبر الشرع وتصفحت سائر أجزائه ،وجد في ألفاظ الشرع ما يشهد لذلك التأويل أو يقارب أن يشهد)(١).

أما فيما يتعلق بالفلسفة فقد اعتمد (قراءة أرسطو بواسطة أرسطو نفسه)(٢)، بعيدا عن كل الشروحات السابقة التي أدت إلى تشويه فلسفة ارسطو ،وخلطها بمقولات إشراقية وأفلاطونية محدثة ،واضعا بعين الاعتبار الشديد ضرورة فهم هذه الفلسفة في إطار المعرفة والتاريخ ،الأرسطي اليوناني .

ولقد أثمرت في جانبها اللغوي والأدبي ،ممثلا في ابن مضاء(٣)،أحمد بن عبد الرحمن بن محمد القرطبي الظاهري (٥١٣هـ - ٥٩٢هـ) ثورة على أصول النحو وتفريعات النحاة عليها ،فقد ألف ثلاثة كتب ينقض فيها الأصول التي ابتدعها النحويون ،ولم يصل إلينا منها إلا كتاب واحد هو (الرد على النحاة)(٤)،وظاهر من عنوان الكتاب أن النحو ليس هو المقصود بالرد ،بل النحاة الذين (وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن ،وصيانته عن التغيير ،فبلغوا من ذلك إلى الغاية التي أمّوا ،وانتهوا إلى المطلوب الذي ابتغوا ،إلا أنهم التزموا مالا يلزمهم ،وتجاوزوا فيها القدر الكافي فيما أرادوه منها ،فتوعرت مسالكها ووهنت مبانيها ،وانحطت عن رتبة الاقناع حججها)(٥) .

وانسجاما مع الاتجاه العام للموحدين ،وجه ابن مضاء سهام نقده إلى الأصول التي ابتدعها النحاة ،داعيا إلى إلغاء بعضها إلغاءا تاما ،مثل نظرية العامل وقاعدة القياس والتمارين غير العملية ،والتخفف من بعضها مثل العلل(٦) .

---

(١) ابن رشد - فصل المقال : ١٦

(٢) الجابري - نحن والتراث : ٢٤٠ .

(٣) السيوطي - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ،تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ،المكتبة العصرية ،بيروت ،د.ت : ٣٢٣/١ .

(٤) مقدمة شوقي ضيف لكتاب الرد على النحاة : ٢٠. وكتابه (المدارس النحوية)، دار المعارف ،القاهرة ،د.ت : ٣٠٥ .

(٥) ابن مضاء - كتاب الرد على النحاة ،تحقيق الدكتور شوقي ضيف ،ط٢ ،دار المعارف ،القاهرة ،١٩٨٢ : ٧٢ .

(٦) ومن المهم الاشارة مقدما إلى أن ابن خلدون لم يصرح برفض القياس والعلل وإلغاء العامل ،ولكن ملاحظاته النحوية في معرض كلامه على اللغات توحي بأنه ذهب الى أبعد من ذلك عندما صرح بالاستعاضة عن حركات الاعراب بقانون آخر يستقرئ نظام العبارة ،مناديا بمشروعية اللهجات العامية ،ولا شك أن هذه الجرأة ما كانت لتتوفر عند ابن خلدون لولا ذلك التراث النحوي واللغوي في الاندلس ،الذي استند اليه ،والذي كان فيه للمفكرين والنحاة اليد الطولى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورغم أن هذه المدرسة كانت قد استحالت في عصر ابن خلدون إلى نخبة مشتتة هي البقية الباقية من تيار فكري نافذ ،ورغم أنها فقدت بانحدار دولة الموحدين ، تلك المظلة السياسية الواقية من التيارات التقليدية ،إلا أنها لم تكن قد فقدت بعد تأثيرها العميق وميزتها باعتبارها مدرسة ذات أفق ثقافي وفلسفي خصب وليس أدل على تميزها من أنها خرّجت في وقت واحد ،أعظم عقليتين في تاريخ المغرب والأندلس في القرن الثامن ،نعني ابن خلدون وابن الخطيب .

وما من شك في أن هذه المدرسة كانت مضطرة للتوفيق ما وسعها ذلك ،بين ولائها لعهد الموحدين الذهبي الذي لم يتكرر ،وبين ضرورة التعايش مع الواقع التي فرضتها المستجدات السياسية بشكل عام ،والفكرية بشكل خاص . إذ كانت النزعة إلى التقليد ،والانكباب على الفروع ،والاحتراز من الاشتغال في العلوم العقلية والفلسفية ،قد عادت لتسربل الحياة الثقافية العامة .

وإن خير مثلين للبقية الباقية من هذه المدرسة ،هما أستاذا ابن خلدون اللذان سبق ان ترجمنا لهما في الفصل الأول ،نعني الآبلي وعبد المهيمن[1] ،ولعل مزيدا من إلقاء الضوء على جوانب شخصيتهما الثقافية ،يساعدنا في تأكيد ارتباط ابن خلدون بهذه المدرسة وتأثره بها ،ثم تأكيد ارتباطه بالنموذج السياسي - الثقافي للموحدين.

وأولى الجوانب التي تلفت الانتباه في ثقافة هذين الاستاذين ،مالكيتهما الراسخة ،وهي غير مالكية المرابطين ،فتلك مالكية فروع وليست مالكية أصول ،وهي أيضا غير مالكية الأمويين في الاندلس ،فتلك مالكية متزمتة ،ومالكيتهما مالكية الموحدين التي عززتها علوم الكلام والمنطق والفلسفة .

وثانية الجوانب التي تلفت انتباهنا ،تلمذتهما لأساطين العصر من العلماء ،في العلوم العقلية والنقلية ،إذ تذكر المصادر أن الابلي تلمذ لمجموعة من العلماء وبزهم،منهم :

١. ابن البناء[2]: أبو العباس ،أحمد بن محمد بن عثمان (ت ٧٢١هـ) وكان عالم عصره في الرياضيات والعلوم .

٢. ابن الإمام[3]: أبو موسى ،عيسى بن محمد بن عبد الله (... - ٧٤٩هـ) وكان عالم المغرب في عصره إلى جانب أخيه عبد الرحمن .

---

(١) وقد ربطت ابن خلدون بهذين الاستاذين رابطة عائلية خاصة تمثلت في التجائهما إلى بيت بني خلدون في ظروف سياسية معينة ،ولا شك أن هذا قد زاد من تأثره بهما.

(٢) ابن حجر العسقلاني - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ،حققه وقدم له ووضع فهارسه : محمد سيد جاد الحق ،دار الكتب الحديثة ،القاهرة ،د.ت : ٢٩٧/١ - ٢٩٨ . ابن خلدون - التعريف : ٣٦ .

(٣) الحفناوي - تعريف الخلف : ٢٠١/١ - ٢١٣ . ابن خلدون - التعريف : ٣٥ ، ٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣. أبو الحسن الصغير[١]: علي بن محمد بن عبد الحق (... - ٧١٩هـ) وكان ففيه المغرب . وتذكر المصادر أيضا أن عبد المهيمن تلمذ لمجموعة منهم :

١. ابن الزبير[٢]: أحمد بن ابراهيم بن الزبير (٦٢٧هـ - ٧٠٨هـ) وكان امام عصره في علوم العربية والحديث والأصول .

٢. الغافقي[٣]: ابراهيم بن أحمد بن عيسى الإشبيلي (٦٤١هـ - ٧١٠هـ) وكان إمام عصره في علوم العربية والقراءات .

وإذا كان من قبيل الرجم بالغيب القول بأن هؤلاء الأساتذة كانوا ملتزمين التزاما كاملا بمبادىء المدرسة الثقافية في المغرب التي أرسى قواعدها الموحدون فإن من المؤكد اطلاعهم على تراث هذه المدرسة ، الفلسفي والأدبي ،وهو من الذيوع وقوة الحضور إلى درجة كبيرة ،ينتفي معها الظن بعدم اطلاعهم عليه ،مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنهم فسحوا في دروسهم مجالا واسعا لتدريس هذا التراث وشرحه لتلامذتهم ،ولو من باب العلم بالشيء .

لا بل إن هناك من المؤشرات ما يجعلنا نرى أن هذا التراث في جانبية: الفلسفي والأدبي ،قد وجد من يحتضنه بقوة ويوصله بأمانة إلى الأجيال اللاحقة ،إذ يؤكد ابن خلدون أن أستاذه الابلي قام بتدريس الإمام العالم الفذ ،فارس المعقول والمنقول ...أبي عبد الله ،محمد بن أحمد الشريف الحسني ...تلاخيص أرسطو لابن رشد[٤] مما يعني ان جهود ابن رشد الفلسفية كانت حاضرة بقوة في هذا العصر إلى جانب غيرها من الجهود[٥].

ولم تعدم جهود ابن مضاء اللغوية من يحتضنها ويتابعها ،إذ كلنا يعلم أن أحد أئمة النحو في ذلك العصر ،كان ظاهريا ،ونعني به أبا حيّان[٦]،محمد بن يوسف الغرناطي (٦٥٤هـ - ٧٤٥هـ) الذي رمى عن قوس ابن مضاء في كثير من المسائل النحوية ،فحمل على تزيّد النحاة من العلل والقياس ،ودعا إلى إلغاء التمارين

---

(١) ابن الخطيب - الإحاطة : ١٨٦/٤ ، ١٨٧ .

(٢) السيوطي - بغية الوعاة : ٢٩١/١ ، ٢٩٢ . ابن خلدون - التعريف : ٣٩ .

(٣) المصدر السابق: ٤٠٥/١ . المصدر السابق - ٣٨ .

(٤) المصدر السابق : ٦٢ ، ٦٣ .

(٥) وهو ما يؤكد اطلاع ابن خلدون الواسع على أعمال ابن رشد ،إذ لا يعقل أن لا يكون قد اطلع عليها وهو الذى أخلص في تتلمذه على استاذه الابلي . وعلى هذا فنحن لا نؤيد الدكتور ناصيف نصار فيما ذهب إليه من أن ابن خلدون لم يكن واسع الاطلاع على اعمال ابن رشد ،وهو مذهب غريب لا يعضده كثرة إشارات ابن خلدون إلى ابن رشد كشارح لأرسطو في غير موضع من المقدمة ، انظر ، ابن خلدون - المقدمة : ١١٢٤/٣ ، ١١٣٥ ، ١١٣٩ ، ١١٤٢ ، ١٢١٥ . ناصيف نصار - الفكر الواقعي : ٣٩ ، ٤٠٠ ، ٤١ .

(٦) السيوطي - بغية الوعاة : ٢٨٠/١ - ٢٨٥ . ابن خلدون - التعريف : ٢٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير العملية ، وأنهى باللوم على اتساع خلاف البصريين والكوفيين في الاعراب والصرف وتوسعهم فيه واعتبره من الخلاف الذى لا يقود الالى مزيد من التفريع[١]. وقد استطاع أبو حيان رغم ظاهريته أن يحتل مكانة سامقه ، ويخرج جيلا من النحاة في بيئة محافظة مثل مصر ، بما تهيأ له من علم واسع بالعربية وعلومها ، حتى أن السيوطي يقول معلقا على كتابه الارتشاف ومختصره (لم يؤلف في العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف وعليهما اعتمدت في كتابي جمع الجوامع)[٢].

فاذا أضفنا إلى ذلك القول بأن أستاذ هذا النحوى الكبير هو ابن الزبير الذى قال فيه السيوطي أيضا (وبه أبقى الله ما بأيدى الطلبة في الأندلس من العربية)[٣]، وعطفناه على إشارتنا إلى أن هذا الأستاذ هو نفسه أستاذ عبد المهيمن الذى أصبح فيما بعد استاذ ابن خلدون (وإمام ... النحاة بالغرب)[٤]، صار في مقدورنا القول أن جهود ابن مضاء اللغوية ظلت مستمرة وبقيت حاضرة .

وهكذا ، فان في وسعنا أخيرا ، في ضوء هذا التتبع والتحليل للبيئة ، أن نجمل المؤثرات التي وقفت من خلف آراء ابن خلدون في معرض كلامه على علوم اللسان العربي ، مؤرخا وناقدا ، فيما يلي :

أولا : مؤثرات عامة تتمثل في تعانق عامل الانحطاط الاقتصادى ، مع عامل القمع البيئي ، وما ترتب عليهما من ركود اقتصادى وخراب عمراني بشكل عام ، وتقلص نفوذ الدول وانحساره بشكل خاص ، مما أدى إلى صعود دور الطبقات "الأجيال" الدنيا وتصاعد آدابها ، على نحو دفع بابن خلدون الى الاضطلاع بمهمة التأريخ لهذه الطبقات ولآدابها ، فكان أن فسح لها في مقدمته مجالا واسعا للغاتها ولهجاتها العامة ، في سياق موازٍ لتاريخ اللغة العربية وتطورها ومشكلاتها ، وموشحاتها وأزجالها في سياق موازٍ لكلامه على تاريخ آداب اللغة العربية .

ثانيا : مؤثرات خاصة تتمثل في صلته المميزة من الناحية السياسية مع دولة الموحدين بشكل عام ودولة الحفصيين بشكل خاص ، مما أدى الى تأثره العميق بالناحية الثقافية المميزة لهذه الدولة ، التي لا يمكن فصلها بحال من الاحوال عن الناحية السياسية لأن هذه الدولة ، دولة عقائد ذات صبغة علمية راسخة أنتجت مدرسة كان لها مساهمات فلسفية وفقهية بالغة الأثر ، رسخت مفهوم الإبداع والتنوع في التفكير ، فكان أن انفتحت على المذاهب والآراء الكثيرة ، وأصلت القضايا الفقهية والفلسفية باعتمادها على اصولها بعيدا عن الشروح والتخليطات ، وكان لها مساهمات لغوية جريئة ، عملت على نقض ما تراكم من أسس ابتدعها النحويون ، فابتعدوا باللغة عن أصولها ، ولووا أعرافها عن مقاصدها .

---

(١) شوقي ضيف ـ المدارس النحوية : ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٢) السيوطي ـ بغية الوعاة : ٢٨٢/١ .

(٣) المصدر السابق : ٢٩٢/١ .

(٤) ابن خلدون ـ التعريف : ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تحدر هذا التراث إلى ابن خلدون من خلال نخبة من العلماء فجاء في مفاهيمه اللغوية والأدبية ، إيجابا وسلبا ، وهي حالة سوية من التمثل ، تظهر تفتح عقلية ابن خلدون وتبرز سمة الاختيار لديه ، فلم يكن في آرائه صدى مباشرا لما ثقف ، بل كان صدى متنوعا بين أخذ ورد .

كما ان تقاليد المدرسة الثقافية التي متح منها - ما ساعده الى ذلك - في انصاف الكثير من الجهود الادبية المهمة ، رغم اختلاف المذاهب والآراء .

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل ، اقتباسان ، واحد للآبلي وآخر لابن خلدون نعضد بهما ما ذهبنا إليه من الاعتقاد بخصوصية العلاقة السياسية التي ربطت بين ابن خلدون ودولة الموحدين من جهة ، وخصوصية الصبغة العلمية التي اتسمت بها هذه الدولة ، من جهة اخرى . فقد جاء في معرض تعريف ابن الخطيب بالابلي : (قال لي : قلت لابي الحسن الصغير: ما قولك في المهدي؟ فقال: عالم سلطان ، فقلت له : قد ابنت عن مرادي)(١) .

وفي هذا الاقتباس ما يؤكد صحة اعتقادنا باستمرار ولاء البقية الباقية من هذه المدرسة للموحدين ، وما يؤكد أيضا سطوع سمة العلم لهذه الدولة في ذهن اكبر علماء المغرب آنذاك ، وهما (الولاء وسمة العلم) اللذان نعتقد بأن الآبلي لم يدخر وسعا في تأديتهما لابن خلدون ، الذي كان بدورة أمينا في تأديتهما عندما نبه على فساد مقالات ضعيفي الرأى من فقهاء المغرب من القدح في الإمام المهدى صاحب دولة الموحدين ، فقال في خبر طويل :

(وانما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه ، فانهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأى مسموع القول موطأ العقب ، نفسوا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته . وأيضا فكانوا يؤانسون من ملوك لمتونة اعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم ، لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة . فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه . فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم ، ونقموا على المهدى ما جاء به من خلافهم والتشريب عليهم والمناصبة لهم ، تشيعا للمتونة وتعصبا لدولتهم . ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم ، وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقموا من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاؤهم فنادى في قومه ودعا الى جهادهم بنفسه ، فاقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصارا وحامية ، وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها ، قد باعوه على الموت ، ووقوه بأنفسهم من الهلكة

---

(١) المقرى - نفح الطيب : ٥/٢٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقربوا إلى الله تعالى باتلاف مهجهم في إظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ،ودالت بالعدوتين من الدول ،وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره ، والتقلل من الدنيا ،حتى قبضه الله وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه ....الخ)[1].

(١) ابن خلدون - المقدمة : ٣١٨/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

القضايا اللغوية في المقدمة : عرض وتحليل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ . مهـــاد :

عندما خص ابن خلدون في مقدمته ،علوم اللسان العربي ،ومنها علوم اللغـــة ، ببضعة فصول ،لم يكن خالي الذهن من الجهود اللغوية التي انجزت في المشرق وفي المغرب . بدليل اشاراته المغنية الى الكثير من هذه الجهود في معرض كلامه علـى علوم اللغة .

والحق ان الجهود اللغوية في عصر ابن خلدون ،كانت قد وصلت حد الاشباع التام، سواء أكان ذلك على الصعيد العملي التطبيقي البحت (الاشتقاقي والصرفي والتقعيدي) ام على الصعيد النظري الخالص (الفلسفي التجريدي). ولعل في تسليطنا الضوء علـى بعض هذه الجهود في المشرق بشكل عام ،وفي المغرب بشكل خاص ،ما يؤكد استناد ابن خلدون الى تراث لغوي ثر ومتنوع اتاح له فرصة كتابة بضعة فصول عن علوم اللغة ، على جانب كبير من الاهمية، مستفيدا من هذه الجهود ،ومتجاوزا بعضها في الوقـــت نفسه .

* * * * *

تسنمت قضايا اللغة مكانة رفيعة في جهود الكثير من المتكلمين والاصوليـــين ، واللغويين بطبيعة الحال . وقد كان التباين في المنطلقات المضمرة لدراســـة القضايا اللغوية لدى هؤلاء ،من بين الاسباب التي ادت الى اغناء هذه القضايـــا تقنينا وتفسيرا ،حتى ليمكننا القول ان الدراسات اللغوية كانت من الاتساع بحيث اشتملت على كثير من المسائل والقضايا التي يمكن ان تطرح الان على بساط البحث اللغوي المعاصر ،بدءا بمحاولة الاجابة عن السؤال العتيد عن اصل اللغة ،ومـــا يمكن ان تجر اليه هذه المحاولة من خوض في قضايا (ميتافيزيقية) بحتة ،مـــرورا بمحاولة امتلاك مفهوم تطبيقي يهدف الى تقنين اللغة والسيطرة على تفرعاتهـــا المتسارعة ،وانتهاء بمحاولة فلسفة هذه القضايا واكسابها ابعادا نظرية مجردة .

وقد يتبادر للذهن ترتيبا على التخليص الآنف الذكر لاتجاهات الدراسة اللغوية التراثية ،الاعتقاد القاطع بأن المتكلمين والاصوليين قد ابدوا اهتماما بالغـــا بمسألة أصل اللغة لارتباطها الجدلي بمسألة الخلق ،وان اللغويين قد ابدوا اهتماما بالغا بمسألة تقنين اللغة واخضاعها لقوانين كلية ، وان الفلاسفة قد اهتمـــوا بدراسة علاقة الكلام بالفكر . الا ان هذا الاعتقاد وان كان يصدق الى حد بعيد على مضمرات الدراسة لدى كل فئة من هذه الفئات - يظل اعتقادا عاما ،وذلك لان هواجس اي من هذه الفئات لم تكن بمعزل عن هواجس الفئات الاخرى ،لا بل كانت تتداخل في كثير من الاحيان .

ولعل قراءة متعمقة في الملاحظات اللغوية التي اوردها الجاحظ ،تظهر ذلـــك التداخل في اتجاهات الدراسة ،بحيث يمكننا الوقوف على الوجهة الفلسفية البحتة في دراسة اللغة من حيث هي مقوم اساس في وجود الانسان المفكر ،والوقوف علـــى الوجهة الكلامية في دراسة اللغة ،من حيث ارتباطها بمسألة الخلق وكونها دليلا على الوجود والموجود في آن ،والوقوف على الوجهة اللغوية الصرفة في دراســـة اللغة في ذاتها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي محاولته حد الحيوان ،عمد الجاحظ على طريقة (وبضدها تتعرف الاشياء) الى اخراج كل ما هو انساني من دائرة الحيوان ،فعرف الانسان بأنه (الفصيح)[١] ،وهي صفة اراد بها (المتكلم) خاصة وانه اورد في موضع آخر من جهوده نصا لخالد بن صفوان مؤداه ان الكلام هو القانون الذى يحتكم اليه في شأن تقرير مرتبة الموجودات في الوجود[٢].

على انه اذا كان (الكلام) هو الحد الفاصل بين الانسان والحيوان منطقيا ، فانه ايضا العلاقة التي تشد هذا الانسان الى الوجود الذى جعل لحكمة . ويرى الجاحظ هذه الحكمة على ضربين : (شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة ،وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ،فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على انه حكمة واختلفا من جهة ان احدهما دليل لا يستدل والآخر دليل يستدل ،فكل مستدل دليل ،وليس كل دليل مستدلا فشارك كلحيوان سوى الانسان جميع الجماد في الدلالة وفي عدم الاستدلال ،واجتمع للانسان ان كان دليلا مستدلا ،ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال وسموا ذلك بيانا)[٣].

ان الكلام اذن ،وسيلة استدلال الموجود على الوجود ،هذا ما رمى اليه الجاحظ في معرض دراسته للغة من الناحية الوجودية الصرفة ،ولكن تظل هناك ناحية اخرى تمليها طبيعة الوجود الاجتماعي للانسان ،انها حاجة هذا الوجود الى التواصل (حاجة دائمة واكدة ،وراهنة ثابتة)[٤]. بغية (سد الخلة ورفع الشبهة ومداواة الحيرة)[٥].

ليس هذا فحسب ،بل ان اللغة تغدو معادلا موضوعيا للوجود الانساني ،اذ بها فقط يتحقق شرط هذا الوجود (فلولا حاجة الناس الى المعاني والى التعاون والتوافد لما احتاجوا الى الاسماء[٦]) ،ومن البديهي القول ان عدم الحاجة الى الاسماء يعني عدم الحاجة الى الاجتماع وبالتالي الى الوجود .

في ضوء هذا التداخل الذى لا ينفي بحال من الاحوال ،حقيقة التمايز بين منطلقات الدراسة اللغوية لدى كل من هذه الفئات ،لنا ان نلحظ ذلك القدر المشترك الذي تخلل جميع الجهود ،الا وهو النظر الى اللغة على انها الحامل الرئيس

---

(١) الجاحظ ـ الحيوان ،تحقيق:عبد السلام محمد هارون ،ط ٢ ،مكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده ، القاهرة ،١٩٦٥ : ٣٢/١

(٢) الجاحظ ـ رسائل الجاحظ ،تحقيق:عبد السلام محمد هارون ،مكتبة الخانجي القاهرة ،١٩٦٤ : ٣٨٠/١ .

(٣) الجاحظ ـ الحيوان : ٣٣/١ .

(٤) المصدر السابق : ٤٨/١ .

(٥) المصدر السابق : ٤٤/١ .

(٦) المصدر السابق : ٢٠١/٥ ،وبطبيعة الحال ،فان الجاحظ هنا يخص بكلامه الوجود الواعي للانسان ،ولا ينفي هذا ذلك النوع من الوجود غير الواعي للحيوان الذى لا يحتاج الى الاسماء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للوجود التاريخي للمجتمع والفرد ،وعلى المستوى القومي او على المستوى الانساني بغض النظر عن المحصلة المعرفية التي انتهت اى من هذه الفئات الى استخلاصها والنظر اليها على أنها المحصلة الوحيدة الجديرة بالدراسة .

ان مفهوم الحاجة الى التواصل ،بحكم الوعي على الطبيعة الاجتماعية للوجود الانساني ،غدا الموجه الرئيس للدارسين بعد الجاحظ ،وانسجاما مع هذا المفهوم نص ابن جني على حاجة القوم (الى العبارات عن المعاني) التي اوجبتها ضرورة معرفتهم بـ (مصاير امورهم)[١]. وأكد الفارابي الترابط الوثيق القائم على الطبع والاقتضاء ،وليس الاتفاق والعرف[٢] بين الانسان واللغة ،بما ان النفس الانسانية بطبعها تجنح الى الدلالة[٣].

واسهب ابن مسكويه في تبيان السبب الذى احتيج من اجله الى الكلام فقال : (ان الانسان لما كان غير مكتف بنفسه في حياته ولا بالغ حاجاته في تتمة بقائه مدته المعلومة وزمانه المقدر المقسوم احتاج الى استدعاء ضروراته في مادة بقائه من غيره ،ووجب بشريطة العدل ان يعطي غيره عوض ما استدعاه منه بالمعاونة التي من اجلها قالت الحكماء (ان الانسان مدني بالطبع) وهذه المعاونات والضرورات المقتسمة بين الناس التي بها يصح بقاؤهم وتتم حياتهم وتحسن معايشهم هي اشخاص واعيان من امور مختلفة واحوال غير متفقة ،وهي كثيرة غير متناهية ،وربما كانت من امور مختلفة واحوال غير متفقة ،وهي كثيرة غير متناهية ،وربما كانت حاضرة فصحت الاشارة اليها وربما كانت غائبة فلم تكف الاشارة فيها فلم يكن بد من ان يفزع الى حركات بأصوات دالة على هذه المعاني بالاصطلاح ليستدعيها بعض الناس بعضا وليعاون بعضهم بعضا فيتم البقاء الانساني وتكمل فيهم الحياة البشرية)[٤].

وقد عبر عبد القاهر الجرجاني بطريقته عن الحقيقة التي سبق للجاحظ الاشارة اليها ،من حيث ان وجود الانسان وعدمه مناط الكلام فقال : (ولولا لم تكن لتتعدى فوائد المعلم عالمه ولا صح من العاقل ان يفتق عن ازاهير العقل كمائمه ،ولتعطلت قوى الخواطر والافكار من معانيها ،واستوت الفضية في موجودها وفانيها)[٥].

---

(١) ابن جني - الخصائص ،تحقيق: محمد علي النجار ،ط ٢ ،دار الهدى للطباعة ، بيروت ،د.ت : ٢/٣٠ .

(٢) الفارابي - كتاب الحروف ،تحقيق: محسن مهدى ،دار الشروق ،بيروت ،١٩٠٠ : ٧٧ .

(٣) المصدر السابق : ٧٥ .

(٤) التوحيدى وابن مسكويه - الهوامل والشوامل ،نشر احمد امين والسيد صقر ،القاهرة : ١٩٥١ : ٦ - ٧ .

(٥) الجرجاني - اسرار البلاغة في علم البيان ،نشر محمد رشيد رضا ،ط ٦ ،القاهرة ،١٩٥٩ : ٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا ،فاننا لو اردنا الاستطراد في استقصاء تأكيد الدارسين اهمية اللغة على اختلاف مذاهبهم ،لاحتجنا الى مجلدات ،ولكن حسبنا ما اوردناه من اشارات وحسبنا ان نختم ذلك بقول ابن حزم : (لاسبيل الى بقاء احد من الناس ووجوده دون كلام)(١) .

* * * *

وقد ارتبطت القضايا اللغوية لدى الدارسين ،قبل ابن خلدون ،ارتباطا وثيقا بمسألة أصل اللغة ،ومن الملاحظ ان هذه المسألة قد حازت على اهتمام الدارسين من متكلمين واصوليين وفلاسفة ،اضافة الى اللغويين . وقد انتهت الاراء حول هذه المسألة ،حتى عصر ابن خلدون الى اربعة اراء هي :

١. القول بالمواضعة .
٢. القول بالمحاكاة .
٣. القول بالتوفيق والالهام .
٤. القول بالتوقف .

وقد مال المتكلمون المعتزلة الى القول بالوضع مع انهم جوزوا امكانية الالهام والتوفيق من الله للانسان ،بعد ان استقام للاخير امر الوضع . وفي هذا يقول شيخهم عبد الجبار:

(اعلم انه لا بد من لغة يتواضع عليها المخاطب اولا ليصح ان يفهم عن الله سبحانه ما يخاطبه ،فاللغة الاولى لا بد فيها من مواضعة ،وما بعدها من اللغات يجوز كونها توقيفا ولذلك قلنا ان آدم عليه السلام لا بد من ان يكون واضع الملائكة لغة او عرف مواضعتهم ثم علمه جل وعز الاسماء)(٢).

اما الفلاسفة فقد مالوا الى القول بالوضع ،ولكن بعيدا عن التأثير بما علمه آدم ،وبدلا من القول بان آدم واضع الملائكة لغة ،يقرر الفارابي مبدأ جماعة حكماء الامة ومدبري امرها الذين نيطت بهم مهمة وضع اللغة وتقنين اصطلاحاتها فهؤلاء هم (الذين يتأملون الفاظ هذه الامة ويصلحون المختل منها وينظرون الى ما كان النطق به عسيرا في اول ما وضع فيسهلونه ،والى ما كان بشع المسموع فيجعلونه لذيذ المسموع والى ما عرض فيه عسير النطق عند التركيب لم يكن الاولون يشعرون به ولا عرض في زمانهم فيعرفونه او يشعرون فيه بشاعة المسموع فيحتالون في الامرين جميعا حتى يسهلوا ذلك ويجعلوا هذا لذيذا في السمع ،وينظرون

---

(١) ابن حزم - الاحكام في اصول الاحكام ،ط ٢ ،مطبعة الامام بمصر د . ت ، ٢٩/١ .

(٢) القاضي عبد الجبار - المغني في ابواب التوحيد والعدل ،الفرق غير الاسلامية تحقيق:محمود الخضيري ،القاهرة ١٩٦٥، ١٦٥/٥ : .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى اصناف التركيبات الممكنة في الفاظهم والترتيبات فيها ويتأملون أيها اكمل دلالة على تركيب المعاني في النفس وترتيبها فيتحرون تلك ،وينبهون عليها ويتركون الباقية فلا يستعملونها الا عند ضرورة تدعو الى ذلك ،فتصير عندها الفاظ تلك الامة افصح مما كانت فتتكمل عند ذلك لغتهم ولسانهم)[١].

اما الرأى الثاني فقد مال اليه ابن جني من اللغويين ،واسهب في عرضه[٢]، رغم اننا نقع له على آراء تحس منها ميلا شديدا الى الوضع ،لا بل حتى ميلا الى القول بالتوفيق والالهام[٣]. مما يدفعنا الى الاعتقاد بان ابن جني يؤسس فرضيته حول اصل اللغة على مقولة الوضع اساسا ،ثم يعمد بعد ذلك الى شرح كيفية الوضع بمحاكاة الطبيعة .

ولا شك اننا مع ابن جني ازاء محاولة تطبيقية على جانب كبير من الاهمية ، تصف لنا كيفية وضع اللغة ،انطلاقا من محاكاة اصوات الطبيعة ،وذلك (بالمضاهاة) بين اجراس الحروف واصوات الافعال التي تعبر تلك الاجراس عنها[٤]،حيث تمس الالفاظ أشباه المعاني[٥]،وتساق الحروف على سمت المعنى المقصود وصولا الى مفهوم (التصاقب)[٦].

ويخلص ابن جني من هذه المحاولة الى التمثيل لاقسام المحاكاة فيقسمها اقساما كثيرة[٧]،تظهر مساوقة اللغة مبنى ومعنى لاصوات الطبيعة وأفعالها .

وقال ابن حزم من الاصوليين بالتوقيف والالهام ،بعد ان تعرض بالنقض لمن قالوا بالاصطلاح والوضع . ولمن قالوا بان الكلام فعل الطبيعة وقد بنى نقضه للرأى الاول على ركيزتين هما :

* (الاصطلاح يقتضي وقتا لم يكن موجودا قبله لانه من عمل المصطلحين ،وكل عمل لا بد من ان يكون له أول فكيف كان حال المصطلحين على وضع اللغة قبل اصطلاحهم عليها ؟ فهذا من الممتنع ضرورة)[٨].

---

(١) الفار ابي - الحروف : ١٤٣ - ١٤٤ .

(٢) مما جاء في الخصائص : ٤٦/١ - ٤٧. (ذهب بعضهم الى ان اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيح الحمار ، ونعيق الغراب وصهيل الفرس وتزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل) .

(٣) يقول ابن جني في الخصائص : ٢٨/٢ . (تقدم في اول الكتاب القول على اللغة : أتواضع هي ام الهام ،وحكينا وجوزنا فيها الامرين جميعا) .

(٤) المصدر السابق : ٦٥/١

(٥) المصدر السابق : ١٥٢/٢ . (٦) المصدر السابق : ١٦٤/٢ .

(٧) انظر عرضا وافيا لجهود ابن جني اللغوية وقوله بالمحاكاة في كتاب الدكتور شوقي ضيف - المدارس النحوية : ٢٦٥ - ٢٧٦ .

(٨) ابن حزم - الاحكام : ٣٠/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* ان الاصطلاح على وضع لغة لا يكون ضرورة الا بكلام متقدم بين المصطلحين على وضعها او باشارات قد اتفقوا على فهمها وذلك لا يكون الا بكلام ضرورة)[١].

وبنى نقضه لرأى القائلين بالمحاكاة اجمالا على القول بان(الطبيعة لا تفعل الا فعلا واحدا لا افعالا مختلفة ،وتأليف الكلام فعل ضرورى متصرف في وجوه شتى [٢].

اما من قال منهم على وجه الخصوص بان (الاماكن اوجبت بالطبع على ساكنيها النطق بكل لغة نطقوا بها)[٣] فقد نقض رأيه بالقول : (لو كانت اللغات على ما توجبه طبائع الامكنة ،لما امكن وجود كل مكان الا بلغته التي توجبها طبيعته وهذا يرى بالعيان بطلانه ،لان كل مكان قد دخلت فيه لغات شتى على قدر تداخل اهل اللغات ومجاورتهم فبطل ما قالوا)[٤]. وانسجاما مع ظاهريته المتشددة فقد عمد الى القول بان اللغة توقيف من الله والهام منه [٥].

واخيرا فقد مال الغزالي الى التوقف عن الخوض في مسألة أصل اللغة ،اذ لا سبيل الى القطع فيها ببرهان حاسم او تواتر قاطع. وقد مهد لقوله بالتوقف عن الخوض في المسألة بان جوز الاحتمالات كلها جوازا عقليا ،في معرض تفسيره الآية : (وعلم آدم الاسماء كلها)[٦].

ولم يستبعد القول بان آدم ألهم الحاجة الى وضع اللغة ،او القول بأن آدم قد وقف على الاسماء التي سبق للملائكة ان اصطلحت على وضعها ،او القول بان الله قد علم آدم (اسماء السماء والارض وما في الجنة والنار دون الاسامي التي حدثت مسمياتها بعد آدم)[٧]،أو القول بان آدم بعد ان تعلم الاسماء نسيها ،ثم اصطلح اولاده من بعده على وضع اللغات التي استمرت بعد ذلك . وختم تجويزه لكل هذه الاحتمالات الممكنة بالقول : (والغالب ان أكثرها حادثة بعده)[٨].

غير انه - اذا تطلب الامر الجزم بوقوع أى من هذه الاحتمالات - يجنح الى عدم الخوض في ذلك ،لانه عبث لا طائل تحته ،وقد عبر عن ذلك بالقول : (اما الواقع من هذه الاقسام فلا مطمع في معرفته يقينا الا ببرهان عقلي او بتواتر خبر او سمع قاطع ،ولا مجال لبرهان العقل في هذا ،ولم ينقل تواتر ولا فيه سمع قاطع ،فلا

---

(١) المصدر السابق : ٣٠/١ .
(٢) المصدر السابق : ٣٠/١ .
(٣) المصدر السابق : ٣٠/١ .
(٤) المصدر السابق : ٣١/١ .
(٥) المصدر السابق : ٣١/١ .
(٦) البقرة : ٣١ .
(٧) الغزالي - المستصفى من علم الاصول ،ط ١ ،المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٣٧ : ١٤٥/١ - ١٤٦ .
(٨) المصدر السابق : ١٤٥/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبقى الا رجم الظن في امر لا يرتبط به تعبد عملي ،ولا ترهق الى اعتقاده حاجة ، فالخوض فيه اذا فضول لا أصل له)[١].

* * * *

وكان لا بد لقدماء الدارسين من الالتفات الى دراسة ظاهرة تعدد اللهجات ،وهي ظاهرة اهتم بدراستها اللغويون أكثر من غيرهم . ومن الراجح أن اوائل المشتغلين في العلوم اللغوية قد تمتعوا بافق رحب وحس لغوى يحسدهم عليهما الباحث اللغوى المعاصر ،اذ أننا لو نحينا عشرات الشروح والتعليقات التي تساقطت الينا استئنافا على الجهود اللغوية الرئيسة ،جانبا ،لاستطعنا الوقوف بجلاء على الغاية المشروعة لهؤلاء الاوائل ،وهي حفظ اللغة من الاندثار والتداخل ،باستقراء مخزونها التاريخي من الالفاظ والمعاني ،وتقنينها في فنوات ابتكرت لهذا الغرض ،دونما اى ادعاء بان هذا الذى اتخذوه سبيلا لصون اللغة هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وانسجاما مع هذه الغاية المشروعة ،اندفعوا بحماسة علمية تذكر لهم ،يجمعون مادة اللغة المتناثرة بين احياء العرب في صورة الفاظ تجرى على السنة القوم في تخاطبهم اليومي ،وفي صورة محفوظ شعرى هائل يقبع في الصدور .

ولعل اول ما وقف عليه الدارسون الاوائل حقيقة ان للعرب لسانين متمايزين هما لسان حمير ولسان مضر ،اما الاول فيقصد به مجموع اللغات اليمنية القديمة التي ازدهرت واندثرت بازدهار كثير من الممالك العربية الجنوبية واندثارها في شبه الجزيرة العربية . وقد ثبت حديثا بالدراسة المقارنة ان هذه اللغات متمايزة تمايزا بينا عن لسان مضر ،أى اللغة العربية الباقية (في كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والاساليب)[٢]، لا بل أن هذا التمايز يطال حتى (المفردات نفسها)[٣].

وقد ظهر ايضا ان ثمة احداثا تاريخية هامة ادت الى تحول معظم المتكلمين بهذا اللسان الى التكلم بلسان مضر والتأدب بآدابها ،خاصة تلك القبائل التي اندفعت شمالا بعد انهيار سد مأرب فساكنت قبائل مضر في الجزيرة العربية ، او سكنت فيما يلي الجزيرة العربية من اطراف الشام والعراق واقامت امارات كان لها شأن في تاريخ العرب قبل الاسلام .

غير ان هذا التحول لا ينفي امكانية احتفاظ هذه القبائل الجنوبية ،سواء تلك التي بقيت في جنوبي الجزيرة العربية بعد انهيار سد مأرب ،او تلك التي ساكنت قبائل الشمال ،باللغة الحميرية لغة تخاطب يومي ،الى جانب اللغة العربية التي

---

(١) المصدر السابق : ١٤٥/١ .

(٢) علي عبد الواحد وافي ـ فقه اللغة ،ط ٢ ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ، ١٩٤٤ : ٥٥ .

(٣) المرجع السابق : ٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت لغة تعبير وآداب ،لفترة طويلة من الزمن ،قيض للسان مضر اثناءها ، ان يبتلع لسان حمير لاسباب كثيرة (١). ولا ينفي ايضا امكانية تساقط بعض المفردات او الاساليب من لسان حمير الى لسان مضر (٢). كما ان هذا التحول لم يشمل بعض الاطراف القاصية من اليمن ،فاحتفظت بلهجاتها الموغلة في القدم واستمرت تتكلم بها حتى عصرنا الحديث(٣). واجمالا فقد عبر احد المع اللغويين العرب الاوائل عن هذه الحقيقة بالقول :(مالسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولاعربيتهم بعربيتنا) (٤).

* * * *

تظل هناك مسألة في غاية الاهمية لا بد من توضيحها قبل ان نعرض لاراء ابن خلدون اللغوية وتحليلها ،ونعني بها مسألة فساد اللغة او ما عبر عنه اللغويون القدامى باللحن وشيوع العامية .

وقد تقاسم البحث في هذه المسألة اللغويون والنحاة ،فاعتنى الاولون منهم بتتبع ما وضع في غير محله من الفاظ وما عبر به على خلاف ما اعتاد العرب ان يعبروا به عنه ،واعتنى النحاة بتتبع ما وقع من خلل في الحركات الاعرابية في المفردات والجمل . مع ان الفصل بين جهود هؤلاء وهؤلاء يظل امرا عسيرا،خاصة في المراحل الاولى لنشوء العلوم اللغوية ،اذ احتاجت هذه العلوم فترة غير قصيرة من الزمن حتى تخصصت .

---

(١) اورد الدكتور علي عبد الواحد وافي جملة من عوامل صراع اللغات في كتابه علم اللغة ،ط ٢ ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ١٩٤٤ ،فلتنظر هناك : ١٣٨- ١٥٥ كما تناول في كتابه فقه اللغة عوامل تغلب لهجة قريش على غيرها ،انظر : ٨٣ وما بعدها .

(٢) ومن ذلك الحديث النبوي الشريف : (ليس من أمبر أمصيام في امسفر) بتعريف الاسم والصفة بأم بدلا من أل في لهجة حمير . انظر ،علي عبد الواحد وافي - فقه اللغة : ٩٣ - ٩٧ . حيث عرض بتوسع لوجوه الخلاف بين اللهجات العربية .

(٣) جاء الدكتور علي عبد الواحد وافي على ذكر ثلاث لهجات باقية في كتابه فقه اللغة : ٦٥ ،الاولى اللهجة المهرية في منطقة مهرة شرقي حضرموت ،والثانية لهجة الشحر في منطقة الشرق من مهرة ،والثالثة اللهجة السوقطرية في جزيرة سوقطرة .

(٤) هو ابو عمروبن العلاء(ت ١٥٤ هـ) . انظر ابن سلام - طبقات الشعراء ،دار الكتب العلمية ،بيروت ١٩٨٠ : ٨ .
وقد افرد الدكتور شوقي ضيف ترجمة وافية له وتعريفا بجهوده اللغوية في كتابه المدارس النحوية : ٢٧ - ٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابرز ما يطالعنا في شأن التصدي لظاهرة اللحن ،تلك القصة المشهورة التي وقعت لابي الاسود الدؤلي مع ابنته ،والتي دفعت بابي الاسود الدؤلي للهروع الى علي بن ابي طالب قائلا : (يا امير المؤمنين،ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم ، واوشك ان تطاول عليها زمان ان تضمحل ،فقال له : وما ذلك ؟ فأخبره خبر ابنته فامره واشترى صحفا بدرهم ،وأقلّ عليه : الكلام كله لا يخرج من اسم وفعل وحرف جاء لمعنى. ثم رسم اصول النحو كلها ،فنقلها النحويون وفرعوها)[١].

وايا كان مبلغ حظ هذه القصة وغيرها مما ينسب لابي الاسود من الصحة ،فان ما نستدل عليه منها ،ان اللحن غدا في حدود منتصف القرن الهجري الاول ظاهره مقلقة لاوائل اللغويين ،وفي الوقت الذي لا نجد فيه ما يمنعنا من القول بوقوع بعض اللحن حتى في فترات ابعد من ذلك ،لاننا لا نرى في ذلك ما يضير اللغة العربية الفصيحة في شيّ ،على عكس كثير ممن تدفعهم غيرتهم المفرطة على اللغة العربية ،فاننا لا نشك في ان العربية كانت معربة قبل نزول القرآن الكريم ،وانه اي القرآن الكريم تنزل معربا ، لاسباب كثيرة اسهب في عرضها بعض الباحثين[٢].

وما من شك في ان الدافع الرئيس للتصدي لظاهرة اللحن ،كان دافعا عقائديا بحتا ،اساسه اختلاف الناس في قراءة القرآن ،بعد ان اتسعت رقعة الدولة الاسلامية اتساعا مفرطا ،ودخل في الدين الجديد مالا يحصى من الاقوام والملل ،على اختلاف السنتها ،فكان من الطبيعي ان يتفاوت الناس في قراءة القرآن ،تفاوتا اثار الرعب في قلوب بعض الصحابه ومنهم حذيفة بن اليمان الذي هرع الى عثمان بن عفان قائلا : (ان الناس قد اختلفوا في القرآن حتى اني والله لاخشى ان يصيبهم مثل ما اصاب اليهود والنصارى من الاختلاف فهمّ عثمان الامر ،واجمع رايه على ان يكتب للمسلمين اماما يرجعون اليه)[٣] .

وقد افاضت كتب النحو والاصول في شأن ضرورة الاعراب ولزومه لكل من اراد التعمق في علوم القرآن ،افاضة يصعب معها الفصل بين علوم القرآن والاعرّاب .

على ان هذا الدافع العقائدي الراسخ ،لا ينبغي ان يغيب عن ناظرنا الدافع القومي البحت ،فقد ترتب على حركة الفتوح الاسلامية الواسعة دخول الكثير من الامم والاجناس في الاسلام ،وكان لزاما عليها التكلم باللسان العربي الذي تنزل به القرآن الكريم ،غير ان تكلمها بهذا اللسان لم يخل من اخطاء حتى لدى بعض من اشتغل بالنحو العربي من هذه الاجناس[٤]،اضافة الى ان كثيرا من ابناء العرب ممن كانت امهاتهم من الاعاجم قد تأثرت لغتهم العربية بما تساقط اليها من لغات

---

(١) الاصفهاني ـ الاغاني ،شرحه وكتب هوامشه : عبد علي مهنا ،ط ١ ،دار الكتب العلمية ،بيروت١٩٨٦ : ٣٤٦/١٢ ـ ٣٨٨ .

(٢) ومنهم الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتاب فقه اللغة : ١٠٢ ـ ١٠٧ .

(٣) انظر شوقي ضيف ـ العصر الاسلامي ،ضمن سلسلة تاريخ الادب العربي ،ط ٦ ،دار المعارف بمصر : ٢٦ .

(٤) انظر ،الجاحظ ـ البيان والتبيين ،دار الفكر للجميع ، بيروت ،١٩٦٨: ١٦٨/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اخرى[١] ،وقد اجتمع هذان العاملان تحت وطأة تنامي الشعور القومي لدى العائلات العربية العريقة بتنامي الحركات الشعوبية واشتدادها ليدفعا بكثير من هذه العائلات الى التشدد في امر هذا اللحن ،والتحرز منه ،اذ عد من المثالب الكبيرة التي تنتقص من شرف الفرد العربي وتزري به ،وقد جسدت لنا المصادر هذا الموقف من خلال الكثير من الاقوال والاخبار التي تنسب الى بعض الخلفاء الامويين ،لا بل ان منها ما ينسب الى عمر بن الخطاب[٢].

ولعل هذين الدافعين ،الديني والقومي ،كانا خلف اول محاولة حقيقية لتقنين العربية لغة ونحوا ،على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) ،الذي استفاد ولا شك من الجهود التي تلت أبا الأسود الدؤلي ،وتمتع باطلاع خارق على اللغة العربية وآدابها ،وبثقافة منطقية ورياضية وظفها في بلورة أهم قاعدتين في النحو العربي (القياس والعلل)[٣] ،وبرزتا في(كتاب) تلميذه سيبويه الذي كان امينا في ايصال جهود استاذه ،وفي وضعه اول معجم عربي يستقصي كل الاحتمالات الممكنة لكل لفظة من الفاظ اللغة العربية .

ولا ينبغي ان يذهب الظن بنا ،في ضوء ما تقدم ،الى ان ثمة معركة كانت تدور بين اللغة الفصيحة التي وجدت في اللغويين والنحاة حارسا يقظا لها وبين اللغة الملحونة التي تكلم بها عوام الناس ،اذ ظلت اللغة الفصيحة رغم كل ما ترويه لنا المصادر من اخبار وأقوال بشأن اللحن وشيوعه في حرز أمين ،ولعل الخوف على هذه اللغة من الضياع والتداخل قد زال منذ اواخر القرن الاول ببروز نخبة متميزة من العلماء اضطلعت بمهمة الحفاظ على هذه اللغة من اى مؤثر كان ، ولكننا نظن أن الفصيحة والعامية قد تجاورتا بنسب تبعا لدواعي الاستعمال ،وكان اللغويون قادرين دوما على صون اللغة من اوضار اللحن ،وان امر استبدال اللغة الفصيحة باللغة العامية لم يكن واردا البته وما كان ليخطر ببال أحد ،كما أن من الثابت ان اوائل المشتغلين في اللغة كانوا من سعة الافق والتطلع بكلام العرب حتى أنهم كانوا يتحرزون من تلحين احد من الناس ،لعلمهم باتساع لغة العرب وثرائها . ومعرفتهم بان كثيرا مما تقوله العامة يمكن تخريجه في ضوء كثرة اللهجات التي تكلمت بها العرب .

وتبرز الروح المتسامحة مع آداب العامة ،التي تحلت بها كتابات الجاحظ[٤] - وهو من هو في اللغة والادب ،علما وغيرة عليهما - واهتمامه البالغ بآدابهم وامثالهم

---

(١) المصدر السابق : ١٦٧/٢ .

(٢) المصدر السابق : ١٧٠/٢ . وقد روى عن عبد الملك بن مروان انه قال : اللحن هجنة على الشريف . وروى ان الحصين بن ابي الحر كتب الى عمر كتابا ،فلحن في حرف منه ،فكتب اليه عمر : ان قنع كاتبك سوطا . اى اضربه سوطا .

(٣) شوقي ضيف - العصر العباسي الاول ،ضمن سلسلة تاريخ الادب العربي ،ط ٢ ،دار المعارف بمصر : ١٢٢ .

(٤) على سبيل المثال كتابه البيان والتبيين ،فقد افرد فيه بابا للحن وبابا لاخبار =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والفاظهم ،جانبا من جوانب هذا التجاور الذى يؤكد شيوع العامية من جهة ، وانتفاء الشعور بأنها تشكل تهديدا للغة الفصيحة من جهة اخرى .

واذا كان لا بد من استخدام كلمة (معركة) فانها خير كلمة نصف بها ما قام بين اللغويين من جدل ،اى بين سدنة اللغة الفصيحة انفسهم ،حين انقسموا مدرستين : مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة . اما الاولى فلها قصب السبق في وضع اسس النحو العربي ،قياسا وعللا وعوامل ،وعليها معظالاتها في الاحتكام الى القياس وتقديمه على السماع وتكثرها من العلل ،واما الثانية فلها احتكامها الى السماع واتساعها في اللغة ،وعليها معظالاتها في الاخذ بالشاذ من الالفاظ ،وولعها بالخلاف .

والحق ان الجدل بين هاتين المدرستين قد جاوز الحد ،خاصة عندما تراكمت عشرات الشروح والتعليقات من حول المتون ،فزادتها تعقيدا وتغريبا ،من حيث ارادت تقريبها ،واضفت على العلوم اللغوية طابع الجمود والتزمت حتى نفرت أشد الناس حاجة اليها وهم الشعراء والادباء [1] ،حتى جأر بالشكوى من هذا التزيد الذى لا طائل تحته نحويون خلص[2] .

واذا صح ما تصورناه آنفا من أمر الفصحى والعامية ،فان لنا ان نقرر ترتيبا على ذلك ،ان اهتمام اللغويين بالتأليف في لحن العوام او العامية لم يكن دافعه ضيقهم بما تلحن به العامة ،ولكنه كان في الغالب اهتماما بما تسرب من لحن العوام

= اللحانين ،انظر الجزء الثاني : ١٦٣ - ١٧٣ . كما أن كتابه (البخلاء) يعد موسوعة لآداب العامة .

(١) جاء في الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ،من تصحيح وضبط وشرح : احمد امين واحمد الزين ،لجنة التأليف والترجمة والنشر ،منشورات المكتبة العصرية ،بيروت صيدا : ١٣٩/٢ - ١٤٠ .

(وقف اعرابي على مجلس الاخفش فسمع كلام اهله في النحو وما يدخل معه ،فحار وعجب ،واطرق ووسوس فقال له الاخفش : ما تسمع يا اخا العرب ؟ قال : اراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا .....

وأنشد بعض الأعراب قائلا :

ماذا لقيت من المستعربين ومن ... تأسيس نحوهم هذا الذى ابتدعوا
ان قلت قافية فيه يكون لها ... معنى يخالف ما قاسوا وما وضعوا
قالوا لحنت وهذا الحرف منخفض ... وذاك نصب وهذا ليس يرتفع
وحرشوا بين عبد الله واجتهدوا ... وبين زيد وطال الضرب والوجع

.....الخ .) .

(٢) وأشهرهم ابن مضاء القرطبي بالطبع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى لغة الخاصة من القوم ،وقد سبق ان اوضحنا مبلغ حساسية الاستقراطية العربية تجاه مسألة اللحن ،وبطبيعة الحال فقد كان الادباء والشعراء ممن يعدون في خاصة القوم . وقد تتبعهم اللغويون في كل ما يقولون ويكتبون ،وضيقوا عليهم السبل[١] ،ولعل ما لاحظه ابو بكر الزبيدى ،محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ) على كتاب (لحن العامة) لابي حاتم السجستاني،سهل بن محمد (ت٢٤٨هـ) ما يعضد استنتاجنا ومؤداه ان اللغويين بعد منتصف القرن الاول لم يعودوا يأبهون بالعامية ، قدر ما يأبهون بلغة الخاصة التي أقاموا من انفسهم حرسا عليها . يقول الزبيدى :

(وقد وضع ابو حاتم كتابا اعتزم به تقويم ما غيره أهل عصره من كلام العرب وسماه كتاب لحن العامة ... واني لما تصفحت كتابه هذا رأيته مشتملا على ما يشتمل عليه سائر الكتب الموضوعة في اللغة ،ورأيت الفن الذى قصده ،والضرب الذى اعتمده ،ووسم الكتاب به نزرا فيما ضمنه من تفسير الغريب ،وتصريف الافعال ، وتوجيه اللغات ... فكان الكتاب مؤلفا لغير ما نسب اليه ،وعرف به)[٢].

وخلاصة كلام الزبيدى ،انه كان اولى بابي حاتم السجستاني ان يسمي كتابه (لحن الخاصة) اذ هو خلا-كما يقول من المادة التي كان يجب ان يشتمل عليها أى العامية وجاء (مشتملا على ما يشتمل عليه سائر الكتب الموضوعة في اللغة) أى الفصيحة ، واذن ،فهو كتاب مؤلف لغير ما نسب اليه وعرف به .

على أنه اذا كان عنوان هذا الكتاب قد ساعد في تمويه النزعة الى دراسة اللغة الخاصة عند اللغويين ،فان لنا في كتاب الحريرى ، القاسم بن علي (ت٥١٦هـ) الذائع الصيت (درة الغواص في اوهام الخواص) دليلا دامغا على هذه النزعة ،اذ لم يكتف الحريرى في هذا الكتاب برصد اغلاط المتأدبين مما يشيع على السنة العامة فحسب ،ولكنه بالغ في هذا الرصد حتى أنه (عدّ بعض الكلمات الفصيحة غير صحيحة)[٣]

---

(١) ومن اظهر الامثلة على ذلك كثرة تعقب عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي للفرزدق حتى هجاه الاخير قائلا :

فلو كان عبد الله مولى هجرته ولكن عبد الله مولى مواليا

فما كان من عبد الله الا انه قال : (اخطأت أخطأت ،انما هو مولى موال) لأن (موال) مضاف مجرور مثل جوار وغواش . على حين ان الفرزدق جعلها ممنوعة من الصرف فجرها بالفتح .

انظر ابن سلام - الطبقات: ١٣ . شوقي ضيف - المدارس النحوية : ٢٤ .

(٢) الزبيدي - لحن العوام ،تحقيق : الدكتور رمضان عبد التواب ،ط ١ ،القاهرة - ١٩٦٤ : ٥ - ٦ . وانظر البير مطلق - الحركة اللغوية في الاندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ،المكتبة العصرية ،صيدا - بيروت،١٩٦٧ : ١٤٦ - ١٤٧ -

(٣) شوقي ضيف - عصر الدول والامارات ،ضمن سلسلة تاريخ الادب العربي ،دار المعارف بمصر : ٢٩٥، ٤٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن هذه النزعة الى المبالغة في احاطة لغة الخاصة بأسوار عالية من الحذر قد ادت اضافة الى تجنيها على بعض الفصيح مما تلهج به العامة - الى عدم الانتفاع كثيرا من التراكم الهائل للمفردات التي باتت اللغة العامية تزخر بها ،بحكم الخصوبة التي تتسم بها الحياة الشعبية ،مما يستدعي عادة ضرورة ابتكار الكثير من الالفاظ والمعاني المعبرة عما يستجد من حاجات وادوات ومفاهيم تتراكم بايقاع متسارع . وقد حدت هذه (القطيعة) بين قاموس اللغة الفصيحة واللغة العامية ببعض الباحثين الى تقرير بعض النتائج ،على جانب كبير من الخطورة (١).

مع ذلك ،فلا نعدم بين اللغويين من اولى العامية في المشرق ،اهتماما خاصا فوثق بعض آدابها (٢)،اما اذا التفتنا الى المغرب والاندلس فسوف نفاجأ بأن العامية قد حازت على قسط كبير من اهتمام اللغويين . اذ نقف لدى القالي ،اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ) ،على اهتمام مبكر بنقل بعض لغات العامة عن اللغويين ،ومن هذا القبيل ما رواه عن ابي حاتم السجستاني أنه قال : العامة يقولون الشجر بكسر الشين وهو لغة والجيد الفتح كما يقرأ في القرآن : (والنجم والشجر يسجدان) (٣)

ثم يضع الزبيدي المتوفى بعده بربع قرن كتابه (لحن العامة) فينعى فيه على السجستاني انه الف كتابا (لغير ما نسب اليه وعرف به) ويلاحظ أن كثيرا من اللحن الذي نسبه السجستاني الى أهل المشرق قد سلمت عامة الاندلس (من موافقته ونطقت بوجه الصواب فيه) كما انه في ضوء نظره في المستعمل من الكلام في زمانه وأفقه

---

(١) انظر ،محمد عابد الجابري - تكوين العقل العربي ،حيث يقول : ٧٩ .
(لقد دخلت في اللغة العربية كلمات وتعابير جديدة ومفاهيم فلسفية وعلمية منذ عصر التدوين الى عصر ابن منظور صاحب (لسان العرب) . ومع ذلك يأبى الاطار المرجعي للعقل العربي ،عصر التدوين ،الا ان يجعل اللغة العربية (الرسمية) او الفصحى ،لغة القواميس ،تبقى دائما هي اللغة التي جمعت وصنعت من طرف الخليل وزملائه . اما ما حدث بعد ذلك ،بل وقبل ذلك ،من تطور ،فهو دخيل على لغة (الاعراب الاقحاح) ،ولذلك يجب تركه واهماله . ومن هنا ،وتحت تأثير هذا المبدأ جاءت قواميس المعاصرة ،مجرد مختصرات مشوهة احيانا - للمعاجم القديمة ... لقد جمدت اللغة العربية بعدما حنطت .. ولكن الحياة الاجتماعية لا تجمد ولا تتحنط . لقد انتقمت لنفسها بفرض لهجات (عربية) عامية كانت وما تزال (اغنى) كثيرا من اللغة الفصحى)!!!

(٢) فقد ذكر الدكتور شوقي ضيف في كتابه (عصر الدول والامارات : ٢٩٥) ان القاضي ابا الحسن عليا المؤيدي وضع كتابا سنة ٤٢٠ هـ في الامثال البغدادية العامة - وقد قام بنشر هذا الكتاب ماسينيون في القاهرة سنة ١٩١١.

(٣) قام البير مطلق ضمن دراسته (الحركة اللغوية في الاندلس) بعرض واف لجهود القالي اللغوية ،انظر : ١٨٧ - ٢٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينبه إلى أن هناك جملا لم يذكرها السجستاني ولا غيره من اللغويين (فيما نبهوا اليه ودلوا عليه مما افسدته العامة ... فأحالوا لفظه ، أووضعوه في غير موضعه)[١]

ولا نصل القرن السادس الهجرى ،حتى نقع على كتاب مهم هو (المدخل الى تقويم اللسان)[٢] لابن هشام اللخمي المتوفى سنة ٥٧٧هـ . ويتألف من ثلاثة اقسام يهمنا منها على وجه الخصوص القسمان الثاني والثالث .

اما القسم الثاني فهو مخصص لما تقوله العامة ويتضمن ثلاثة أبواب[٣]:

أ- (باب ما جاء عن العرب فيه لغتان فأكثر ، استعملت العامة منها اضعفها ،وربما استعملت اقواها ،وربما عدلت عن الصواب في ذلك ونطقت باللحن).

ب -(باب ما تلحن فيه العامة مما لا يحتمل التأويل ولا عليه من لسان العرب دليل).

ج -(باب ما جاء لشيئين او لاشياء فقصروه على واحد) .

وأما القسم الثالث فهو مخصص لما (تمثلت به العامة مما وقع في اشعار المتقدمين والمحدثين تلقنوها عن الفصحاء وهم لا يعرفون الاشعار التي اخذت منها وربما حرفوا بعض الفاظها) [٤].

وقد تعقب ابن هشام في هذا الكتاب الزبيدى قائلا : (وألف الزبيدى رحمه الله في لحن العامة ،وما تكلمت به في اوانه ،فتعسف عليهم في بعض الالفاظ وانحى عليهم بالاغلاظ ،وخطأهم فيما استعمل فيه وجهان وللعرب فيه لغتان ،فأوردت في هذا الكتاب جميع ذلك ،وما تعسف عليهم هناك)[٥].

وظاهر من كلامه هذا أنه اكثر تعاطفا من الزبيدى مع لغة العامة ،وأكثر ميلا الى تخريجها استنادا الى أن (من اتسع في كلام العرب ولغاتها لم يكد يلحن احدا)[٦] وتأكيدا لذلك فهو يستشهد بقول الاخفش الاكبر : (انحى الناس من لم يلحن احدا)[٧].

---

(١) الزبيدى - لحن العوام : ٦ - ٧ .

(٢) انظر حول الكتاب ومؤلفه بتوسع ،رضا عبد الجليل الطيار - الدراسات اللغوية في الاندلس منذ مطلع القرن السادس الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ،بغداد ١٩٨٠ : ٨٧ وما بعدها .
ولكتاب (المدخل الى تقويم اللسان) كما يقول الباحث (حظ غريب من النشر والعناية فقد حظي بكثير من اهتمام الباحثين اللغويين المحدثين ،ولكن لم يحظ بالنشر كاملا) : ٨٧ .

(٣) ابن هشام اللخمي - المدخل الى تقويم اللسان . نقلا عن رضا عبد الجليل الطيار:٨٨

(٤) المصدر السابق . نقلا عن رضا عبد الجليل الطيار : ٨٨.

(٥) المصدر السابق . نقلا عن رضا عبد الجليل الطيار ٩٠ .

(٦) المصدر السابق . نقلا عن رضا عبد الجليل الطيار : ٩١ .

(٧) المصدر السابق . نقلا عن رضا عبد الجليل الطيار : ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما يستشهد بقول الخليل بن أحمد (لغة العرب اكثر من ان يلحن متكلم)[١]،ويروى عن الفراء ان الكسائي قال: على ما سمعت من كلام العرب ليس احد يلحن الا القليل)[٢].

وتظل مساهمة ابن حزم من الاصوليين ، هي الاجرأ بلا شك ،اذ عمد في كتابه (التقريب لحد المنطق)[٣] الى استخدام الفاظ (سهلة سبطة ،يستوى ... في فهمها العامي والخاصي ،والعالم والجاهل) مؤكدا ان اسوأ آفات الترجمة هي تعقيدها ،عازيا هذا التعقيد الى ايراد الترجمة (بألفاظ غير عامية ولا فاشية الاستعمال)[٥]وهذه مغامرة جريئة من ابن حزم تضاف الى مغامراته الكثيرة ،اذ لا يترتب عليها ارتقاء الالفاظ العامية الى مستوى الالفاظ الفصيحة فحسب ،بل ان الالفاظ العامية تغدو هي الاكثر قدرة على حمل المعاني من الالفاظ الخاصة الوعرة ،والاكثر ملاءمة لتعميم العلم ونشره .

اما بعد هذا العرض للمسائل المتفرقة ،أصل اللغة وتطورها وفسادها ،فقد كتب ابن خلدون بضعة فصول في اللغة والنحو ،ظهر فيها تمثله للجهود التي سبقته خاصة في الاندلس ،وتطويره لبعض هذه الجهود ،وانفراده بنظرات لغوية مهمة نتوقف عندها ،عند تحليلنا للقضايا اللغوية في مقدمته .

ب . قضية النحو :

ما من كلام اكثر تضليلا للباحث ،من الكلام الذى عقده ابن خلدون على علم النحو اذ ان الباحث المتأمل فيما تكلم به في مستهل فصل علوم اللسان العربي ،ربما خرج بقناعة مؤداها ان ابن خلدون لم يضمر اى موقف تجاه هذا العلم ورجاله .

وقبل ان نعرض لكلامه التقليدى على النحو ،نود لو نتوقف عند ما مهد به لتقديم النحو على علم اللغة ،فقال : (والذى يتحصل ان الاهم المقدم منها "يقصد علوم اللسان العربي" هو النحو ،اذ به يتبين اصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ،ولولاه لجهل أصل الافادة . وكان من حق علم اللغة التقدم ،لولا ان اكثر الاوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له اثر . فلذلك

---

(١) المصدر السابق . نقلا عن رضا عبد الجليل الطيار : ٩٢ .
(٢) المصدر السابق . نقلا عن رضا عبد الجليل الطيار : ٩٢ .
(٣) ابن حزم - التقريب لحد المنطق والمدخل اليه بالالفاظ العامية والامثلة الفقهية ،تحقيق : د. احسان عباس ،دار مكتبة الحياة .
(٤) المصدر السابق : ٨ .
(٥) المصدر السابق : ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان علم النحو أهم من اللغة ، اذ في جهله الاخلال بالتفاهم جملة ،وليست كذلك اللغة)[١].

ان قراءة اولى لهذه العبارة ،تسلمنا ولا شك الى الظن بان ابن خلدون متعاطف مع علم النحو ،مثله في ذلك مثل الكثرة الكاثرة من العلماء على اختلاف اهتماماتهم كما ان عرضه التاريخي اللاحق على هذه الفقرة لعلم النحو ،يجعله يبدو في اهاب المؤرخ التقليدي . غير ان قراءة ثانية مدققة في العبارة نفسها تسلمنا الى فهم مختلف تماما ،تعززه تلك الملاحظات التي نثرها في ثنايا كلامه على علم اللغة ولغات الامصار واشعارها لذلك الجيل . واول ما نتوقف عنده في هذه العبارة ، ايماؤه الذي سيتحول الى تصريح فيما بعد الى تضمن اللغة لعلم النحو،على الرغم من الشروط الظرفية التي يوردها لتقديم علم النحو على علم اللغة ،وهو ما نستشفه من قوله (وكان من حق علم اللغة التقديم ،لولا ان اكثر الاوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب .. فانه تغير بالجملة ولم يبق اثر)[٢]. في حدود هذه العبارة لنا ان نستنتج أمرين :

اولا : ان معظم مادة اللغة (مفرداتها) لم تزل باقية لم تتغير في عهده .

ثانيا: ان علم النحو القائم في اساسه على فكرة الاعراب من حيث هو دال على الاسناد والمسند والمسند اليه ،قد تغير بالجملة ولم يبق له أثر ،في الاستعمال العامي على الاغلب .

ان المسوغ الظرفي ، اذن ،لتقديم النحو على علم اللغة ،هو هذا المصير المؤسف الذى آل اليه علم النحو ،بأن تغير بالجملة ولم يبق له أثر . نقول المسوغ الظرفي لان لدينا من الاشارات الخلدونية الواضحة ،ما يدفعنا الى الزعم بان ابن خلدون لم يكن معنيا بتقديم النحو على علم اللغة الا في حالة واحدة فقط هي حالة الكلام ضمن مستوى خاص من اللغة هو اللغة الفصيحة ، اذ يغدو النحو في هذه الحالة هو القانون الوحيد الضابط لاحتمالات المعنى استنادا الى فكرة الاعراب ،وما سوى هذه الحالة ، اى حالة الكلام ضمن المستوى العام من اللغة (العامية) فان النحو يتراجع الى الخلف تاركا مكانه لضوابط لغوية اخرى ،تضطلع بوظيفته الدلالية الخاصة .

ولعل هذا هو الفهم الذى يستقيم لنا معه التوفيق بين تأكيد ابن خلدون اهمية النحو وتقديمه على علم اللغة من ناحية ،ثم تأكيده الصريح فيما بعد ثانوية النحو ،كونه احد احكام اللسان ،من ناحية ثانية .

وان في العبارة التي سنوردها ، التالية للعبارة التي توقفنا عندها ،ما يكاد يرسخ لنا هذا الفهم لولا كلمة واحدة نراها أخلت بالمعنى كما فهمناه ، وخرجت عن السياق العام للمعنى ،ونستغرب عدم توقف المحقق عندها ،وعدم اشارته الى كونها مما يحتاج الى اجتهاد .

---

(١) ابن خلدون ـ المقدمة : ١٢٦٤/٣

(٢) المصدر السابق : ١٢٦٤/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول ابن خلدون (فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة ، اذ في جهله الاخلال بالتفاهم جملة ،وليست كذلك اللغة) .

ونقول انه لما كانت اكثر الاوضاع اللغوية باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الذى محله اللغة الفصيحة فحسب ،ولما كان تغير الاعراب بالجملة لم يضر اللغة في شيء كما يرى ابن خلدون ،فان القراءة المعقولة التي نقترحها لهذه الجملة هي :

(فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة ، اذ في جهله الاخلال بالتفاهم "خاصة" ، وليست كذلك اللغة) ،لان الاخلال بالاعراب في حال اللغة الفصيحة هو حقا اخلال بالتفاهم في حين ان الاخلال بالاعراب في اللغة العامية ،لا يترتب عليه اخلال بالتفاهم .

وايا كان الامر فلعل هذا الاجتهاد في توجيه هذا النص يتعزز اكثر عندما نتوقف عند قضية اللغة ،وهي القضية التي اولاها ابن خلدون عناية اكثر من النحو وتوسع في الكلام عليها ،على الرغم من تقديمه للنحو على اللغة ،هذا التقديم الذى نظننا اوضحنا شروطه الظرفية .

ويرى ابن خلدون انه لما كانت اللغة هي عبارة المتكلم عن مقصوده ،ولما كانت هذه العبارة فعلا لسانيا ،تاشيء عن القصد لافادة الكلام ،فانها لا بد ان تصير والحال هذه ملكة متقررة في العضو الفاعل لها ،وهو اللسان[١] . وكل امة تتوفر على هذا اللسان باصطلاحات تخصها ومنها امة العرب ،فانها كما يرى ابن خلدون من احسن الامم ملكات واوضحها ابانة عن المقاصد (لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور ..... ومثل الحروف التي تفضي بالافعال الى الذوات من غير تكلف الفاظ اخرى)[٢].

وقد خيل لابن خلدون ان هذا الايجاز في البيان مقصور على لغة العرب ،لا تشاركها فيه لغة من اللغات ،ذاهبا الى ان اللغات الاخرى تعمد الى استخدام الفاظ خاصة لتدل بها على كل معنى او حال . ولا حظ في هذا الصدد ان (كلام العجم في مخاطباتهم اطول مما نقدره بكلام العرب)[٣]. وغني عن القول ان اعتقاد ابن خلدون بقصور اللغات الاخرى عن الدلالة بغير الالفاظ ،هو اعتقاد يعوزه الكثير من الصواب ،ولو انه اكتفى بالقول ان من خصائص اللغة العربية دلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني ،لكان اصاب . اما استشهاده بالحديث النبوي على ما لاحظه من طول كلام العجم في مخاطباتهم قياسا الى كلام العرب ،فليس له موضع ، لان موضعه التدليل على بلاغة الحديث النبوى وايجازه قياسا الى بلاغة غيره من المتكلمين وايجازهم وليس قياسا الى غيره من الاعاجم [٤].

---

(١) ابن خلدون المقدمة : ١٢٦٤/٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٦٤/٣ .

(٣) المصدر السابق : ١٢٦٤/٣ .

(٤) والى هذا ذهب محقق المقدمة ،انظر :٣/ ١٢٦٥ ،هامش ١٧٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى هنا ،يظل كلام ابن خلدون جاريا في سياق اللغة فحسب ،أو لنقل في سياق الكلام على اللغة وهي لما تزل ملكة متأصلة في اللسان ،قبل ان تحتاج الى آلة تحفظها من الفساد .

فكيف يفهم ابن خلدون طروء هذه الحاجة الى حفظ اللسان ؟

يقول : (فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذى كان في ايدى الامم والدول وخالطوا العجم بما القى اليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم ،والسمع ابو الملكات اللسانية . ففسدت بما القي اليها مما يغايرها لجنوحها اليه باعتياد السمع . وخشي اهل الحلوم منهم ان تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على الفهوم فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد ،يقيسون عليها سائر انواع الكلام ويلحقون الاشباه منها بالاشباه ،مثل ان الفاعل مرفوع ،والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع . ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ،فاصطلحوا على تسميته اعرابا ،وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا ،وامثال ذلك . وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو . واول من كتب فيها ابو الاسود الدؤلي من بني كنانة ، ويقال باشارة علي رضي الله عنه ،لانه راى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها، ففزع الى ضبطها بالقوانين الحاصرة المستقرأة)[1].

ايثارا للاختصار ،فان بوسعنا تلخيص أهم ما جاء في النص السابق بما يلي :

١. فساد ملكة اللسان العربي بما تساقط الى مسامع العرب من العجم الذين اختلطوا بهم ،استنادا الى ان (السمع ابو الملكات اللسانية) .

٢. خشية اولي الامر من ان الفساد في هذا اللسان قد يؤدى الى الاخلال بفهم النص القرآني والحديث النبوى .

٣. تقنين اللسان العربي بقوانين وقواعد كلية مطردة ،مستنبطة من مجارى كلام العرب ،يقاس عليها انواع الكلام ،بحيث تلحق الاشباه منها بالاشباه (الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع)ثم تسمية التغير في الدلالة بسبب تغير الحركات في اواخرالكلمات اعرابا ،وتسمية الموجب لهذا التغير عاملا . وتدوين هذه الاصطلاحات كتابة ،وتضمينهافي صناعة مخصوصة تسمى النحو .

والحق أننا لو اردنا ان نؤرخ لنشوء النحو العربي بكل مشكلاته لما استطعنا ان نؤرخ له بأفضل من هذا النص الدقيق الموجز الواضح .

فقد كشف ابن خلدون في هذا النص جملة من الامور التي بدت له حقائق ،مع أنها ما زالت مثار اختلاف الدارسين المعاصرين .

---

(١) ابن خلدون ـ المقدمة : ١٢٦٤/٣، ١٢٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اما تقريره ان أبا الاسود الدؤلي اول من كتب في صناعة النحو - ويستوى بعدها ان كان الدؤلي فعل ذلك باشارة من علي او باجتهاد من نفسه - فهو تقرير يجادل في صحته حتى الآن بعض الدارسين (١).

واما عن قناعات بصدد بعض المفاهيم المتطورة التي قامت عليها صناعة النحو مثل مفهوم الاعراب والعامل فان في نصه الآنف الذكر ما يومئ الى اعتقاده بأنها كانت معروفة منذ ابي الاسود الدؤلي ،وقبل الخليل بن احمد الفراهيدى الذى وصلت الينا جهوده بأمانة من خلال (كتاب) تلميذه النابه سيبويه ،بدليل قول ابن خلدون :

(ثم كتب فيها الناس (يقصد صناعة النحو) من بعده (يقصد أبا الاسود الدؤلي) الى ان انتهت الى الخليل بن أحمد الفراهيدى ايام الرشيد احوج ما كان الناس اليها لذهاب تلك الملكة من العرب فهذب الصناعة وكمل ابوابها)(٢).

وعلى اية حال ،فعلى الرغم من النصوص المكرورة المتناثرة في ثنايا الكتب(٣)، التي تؤكد وضع النحو على يد ابي الاسود الدؤلي بصورة او بأخرى ،فان هذا يظل مع ذلك مما لا سبيل الى التسليم به كاملا ،خاصة وان هذه النصوص تنسب لابي الاسود الدؤلي الفضل في وضع بعض الابواب النحوية مثل باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم . وايا كان اسم واضع النحو ،فاننا نرى انه ليس بضائر لنا ،بقاء هذا الاسم مبهما ،خاصة وان فروعا من المعرفة ،تطورت وتقدمت رغم بقاء اسم واضعها مبهما ومثارا للجدل من جهة ،ولان العادة جرت باضطلاع غير شخص واحد بتأسيس علم من العلوم ،بنسب متفاوتة من جهة اخرى ،كما يحدث ان يُسكت عن هذه الجهود المتضافرة ويصار الى ابراز اسم واحد فحسب ،لعوامل كثيرة يقف على رأسها العامل المذهبي(٤) ،ولعله العامل الذى وقف بقوة من خلف ابراز شخص ابي الاسود الدؤلي في صورة واضع علم النحو .

على ان ما هو أهم من التسليم بمسألة وضع النحو على يد ابي الاسود الدؤلي او العكس ، هو تصورنا للمدى الذي قطعه علم النحو منذ ابي الاسود حتى الخليل بن احمد،وهي مرحلة يكتنفها غير قليل من الغموض ،خاصة وان معظم الجهود التي بذلت خلال هذه المرحلة لم تصلنا . وتساقط الينا عنها أخبار وقطع تدور في كتب القدماء . والراجح ان هذه المرحلة كانت زاخرة بالنشاط ،وانها

---

(١) نخص بالذكر منهم الدكتور شوقي ضيف - انظر بتوسع رأيه حول ذلك في :
- المدارس النحوية : ١٣ - ١٧ . - العصر العباسي الاول : ١٢١ .
(٢) ابن خلدون المقدمة : ١٢٦٦/٣ .
(٣) عرض الدكتور شوقي ضيف لهذه النصوص بتوسع في كتابه (المدارس النحوية ، انظر الكتاب : ١٣ - ١٧ . (٤) ابن سلام - طبقات الشعراء : ١٠ .
(٥) وقد نبه ابن خلدون في مستهل مقدمته الى خطورة هذا العامل ،انظر المقدمة ٣٢٨/١ . وغني عن الذكر ان ابا الاسود الدؤلي كان احد اصحاب علي بن ابي طالب المقربين ،ولا نستبعد ضلوع الشيعة في ابرازه كواضع لعلم النحو . وانظر رأيا قريبا من هذا للدكتور شوقي ضيف ،المدارس النحوية : ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت البيئة التي احتضنت جلقضايا النحو وما تولد عنها من جدل وخلاف فيما بعد بدليل أنها أظلت نخبة مميزة من العلماء ،نحويين ولغويين ،في مقدمتهم عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي (ت ١١٧هـ) وكان كما يقول ابن سلام (اول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل) . ثم تلميذه عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩هـ) الذى طرد القياس وعممه حتى خطأ شعراء فصحاء من العصر الجاهلي منهم النابغة الذبياني . وخالف جمهور القراء في اكثر من موضع للسبب نفسه ،وتوسع الى ذلك في تقدير العوامل المحذوفة ،ووضع مصنفين هما الجامع والاكمال ،وقيل ان الاول هو أصل كتاب سيبويه بعد أن طعمه الاخير بأقوال الخليل[١].

وظاهر من الترجمات المبكرة لهؤلاء الاعلام في كتب النحو واللغة ،ان بعض المفاهيم والقواعد مثل القياس والعامل والعلل ،كانت معروفة لديهم وانهم طبقوها بتوسع يظهر رسوخ قدمهم فيها ،مما يدفعنا الى القول بان نصف القرن الفاصل بين وفاة الدؤلي (٦٧هـ) ووفاة الحضرمي (١١٧هـ) ليس بالفترة الزمنية الكافية لنضج هذه القواعد والمفاهيم ورسوخها ،وان الحضرمي لا بد اتكأ على جهود سابقة ،مما يجعل من احتمال اشتغال الدؤلي او غيره من المهتمين بهذه المفاهيم في فترة مبكرة امرا قائما[٢].

وأيا كان الامر ،فلما كانت المصادر مجمعة على حقيقة اضطلاع نخبة من العلماء يقف على رأسها ابن اسحق الحضرمي ،بمهمة وضع القواعد الاساسية للنحو العربي فان ما كنى عنه ابن خلدون بالقول : (ثم كتب فيها الناس من بعده الى ان انتهت الى الخليل...)[٣] يبدو متطابقا مع هذا الاجماع ،بما يتضمنه من اقرار بتفلع هؤلاء النخبة بالقياس والعلل والعامل ،ومعرفتها .

وما ان يصل ابن خلدون في كلامه الى الخليل فتلميذه سيبويه ،حتى نحس معه انه استوفى غرض الكلام على النحو ،اذ هو بعد ذلك يستعرض صناعة النحو استعراضا محايدا ،متوقفا عند بعض النحويين وجهودهم خاتما استعراضه هذا بالتنويه بابن هشام تنويها جميلا .

يقول ابن خلدون : (واخذها عنه سيبويه ،فكمل تفاريعها ،واستكثر من ادلتها وشواهدها ،ووضع فيها (كتابه) المشهور الذى صار امام الكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع ابو علي الفارسي وابو القاسم الزجاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الامام في كتابه)[٤] .

---

(١) انظر عرضا وافيا لجهود هذه النخبة ،مع ترجمة موجزة لكل منهم ،في كتاب الدكتور شوقي ضيف ، المدارس النحوية : ٢٢ - ٢٩ .

(٢) للاطلاع بشكل موسع على الروايات المختلفة التي تنسب لابي الاسود الدؤلي الفضل في وضع علم النحو وبعض الابواب المهمة فيه ،انظر الاصفهاني - الاغاني : ١٢/٢

(٣) ابن خلدون - المقدمة:٣/ ١٢٦٦ .

(٤) المصدر السابق٣/ ١٢٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يشير الى ما نشأ من خلاف بين اهل صناعة النحو من بصريين وكوفيين ،واحتدام هذا الخلاف وتشعبه واثره على المتعلمين ،الى ان جاء بعض المتأخرين فوضعوا مختصرات في النحو مثل ابن مالك صاحب التسهيل ،او اقتصروا على المبادىء الاساسية مثل الزمخشري صاحب المفصل وابن الحاجب صاحب المقدمة ،وربما نظم بعضهم مطولات في النحو كابن معطي صاحب الالفية ،وابن مالك صاحب الارجوزتين : الكبرى (الكافية الشافية) والصغرى (الالفية)[١]. حتى اذا اقترب من الختام ،اشار الى ان هذه الصناعة كادت (ان تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران .

ويبدو ان وصول كتاب (مغني اللبيب عن كتب الاعاريب) لجمال الدين بن هشام الى المغرب ،قد جعله يشعر ببعض المزاء والاعجاب معا. فعن صنيع ابن هشام في المغني يقول : (استوفى فيه احكام الاعراب مجملة ومفصلة ،وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ،وحذف ما في الصناعة من المتكرر في اكثر ابوابها ،وسماه بالمغني في الاعراب ،واشار الى نكت اعراب القرآن كلها ،وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها ،فوقفنا منه على علم جم ،يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها ،وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا اثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه ،فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه)[٢].

ان ما تقدم من عرض وتحليل لمواقف ونظرات عند ابن خلدون تجاه قضية النحو يسلمنا الى نتيجة خاطئة مؤداها ان ابن خلدون وقف موقفا ايجابيا من النحو والنحاة او على الاقل موقفا حياديا . غير ان حقيقة موقفه ستبدو مختلفة تماما لو أننا عرضنا ما تقدم من آراء ونظرات على غيرها مما تناثر في معرض كلامه على مسائل أخرى تحت عناوين مستقلة . وهذا ما يدفعنا الى تأكيد ما أشرنا اليه في مستهل استعراضنا لقضية النحو عند ابن خلدون ،من أنه ما من كلام اكثر تضليلا في المقدمة من كلامه على علم النحو .

واول ما نحب التوقف عنده هو رأى ابن خلدون في الموقع الذي يحتله علم النحو بين العلوم ،وهل هومما يقصد الى تعلمه بالذات ام هو مما لا يقصد الى تعلمه بالذات .

يعقد ابن خلدون في مقدمته فصلا صغيرا ،على جانب كبير من الاهمية تحت عنوان (فصل في ان العلوم الالية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل)[٣]. وترتد اهمية هذا الفصل الى انطوائه على رأى ابن خلدون الواضح في مسألة مراتب العلوم ،وهي مسألة تدخل في باب فلسفة العلوم وعلى تماس تام مع مسألة فلسفة المنهج .

---

(١) ابن خلدون - المقدمة: ١٢٦٧/٣

(٢) المصدر السابق: ١٢٦٧/٣ ، ١٢٦٨ .

(٣) المصدر السابق: ١٢٤٨/٣ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبثقة تامة يقسم ابن خلدون العلوم المتعارف عليها قسمين[١]:

* (علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام ، وكالطبيعيات والالهايات من الفلسفة ... فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الادلة والانظار ،فان ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته وأيضا احا لمعانيها المقصودة) .

* (علوم هي آلية وسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات وكالمنطق للفلسفة ،وربما كان آلة لعلم الكلام ولاصول الفقه على طريقة المتأخرين ..فلا ينبغي ان ينظر فيها الا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل ،لان ذلك مخرج لها عن المقصود اذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير) .

ولسنا في حاجة الى الزعم بان كلمة العربية (الواردة) في النص الذى اوردناه آنفا انما تنصرف على الخصوص الى معنى واحد هو علم النحو ،بدليل ما ضربه ابن خلدون من امثلة لعلوم آلية حيد بها عن غايتها فقال: (وهذا كما فعل المتأخرين في صناعة النحو وصناعة المنطق واصول الفقه ،لانهم اوسعوا دائرة الكلام فيها واكثروا من التفاريع والاستدلالات بما اخرجها من كونها آلة وصيرها من المقاصد)[٢]

ان هذا التصنيف الخلدوني الحاسم ،يظهر موقفا ما كان لنا ان نلمسه بدقة في معرض كلامه على النحو الذى جاء مباشرة بعد توطئته لفصل (علوم اللسان العربي) وقال فيه : (اركانه اربعة : وهي اللغة والنحو والبيان والادب ،ومعرفتها ضرورية على اهل الشريعة ،اذ مأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ،وهي بلغة العرب ،ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ،وشرح مشكلاتها من لغاتهم)[٣]. ففي هذه التوطئة تأكيد ضرورة المعرفة ،وفيما اشرنا اليه من تصنيف للعلوم ، توضيح لحدود هذه الضرورة .

واذن ،فلنا ان نقرر مطمئنين ان ابن خلدون لم يعد في تقديره لموقع علم النحو بين العلوم ، النظر اليه على انه علم ثانوى او آلة ووسيلة . وهو تقدير يكمل من الناحية المنهجية قناعة ابن خلدون من الناحية التاريخية بان الحاجة الى هذا العلم قد كانت ماسة لما كان القرآن والحديث متنزلا باللسان العربي (وهما أصلا الدين والملة ،فخشي تناسيهما وانغلاق الافهام عنهما بفقدان اللسان الذى تنزلا به فاحتيج الى تدو ين احكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه ،وصار علما ذا فصول وابواب ومقدمات ومسائل ،سماه اهله بعلم النحو وصناعة العربية "و" ان العناية بلسان مضر من اجل الشريعة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا اليه)[٤].

---

(١) المصدر السابق : ١٢٤٨/٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٤٩/٣ .

(٣) المصدر السابق : ١٢٦٤/٣ .

(٤) المصدر السابق: ١٢٨١/٣ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ويلاحظ هنا ان ابن خلدون- تحت تأثير =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الحقيقة ،فان هذا التصنيف لا يعدم مسوغا من الناحية المنهجية ،اذ كلما خرجت هذه العلوم الالية عن المقصود (صار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها . وربما يكون ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها ،مع ان شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الالية تضييعا للعمر وشغلا بما لا يغني... وربما يقع فيها انظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو وهي أيضا مضرة بالمتعلمين على الاطلاق ،لان اهتمام المتعلمين بالعلوم المقصودة اكثر من اهتمامهم بوسائلها ،فاذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد ؟! فلهذا يجب على المتعلمين لهذه العلوم الآلية ان لا يستجروا في شأنها ،وينبهوا المتعلم على الغرض منها ،ويبقوا به عنده)[1].

ان مسوغات ابن خلدون كما نلاحظ يمكن اجمالها في مسوغين :

* مسوغ في حقل المعرفة يتمثل في عبث الانشغال بالعلوم الجزئية الآلية (النحو، المنطق ،الحساب) على حساب العلوم الكلية المقصودة لذاتها (الشريعة ،الفلسفة، الطبيعة) .
* مسوغ في حقل المنهج يتمثل في الضرر الذي يلحق بالمتعلم عندما تضيق عليه مداخل العلوم فيحول ذلك دون ظفرهم بالعلوم المقصودة لذاتها .

وما دمنا في سياق الحديث عن الاولي والثانوي والاصول والفروع ،فحري بنا اذن الالماع الى موقف آخر لابن خلدون ،يتصل بجملة مواقفه من قضية النحو ،لم يتضح لنا في معرض كلامه على علم النحو ،وهو اعتقاده بان كثرة الاختصارات مخلة بالتعليم مؤكدا عدم الفائدة من اتجاه (كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الالفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن . وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسرا على الفهم . وربما عمدوا الى الكتب الامهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه واصول الفقه وابن مالك في الفيته والخونجي في المنطق وامثالهم)[2].

ومسوغات اعتقاد ابن خلدون في هذا الصدد ،ليست ببعيدة عن مسوغات اعتقاده ان العلوم الآلية لا توسع فيها الانظار ،بل تكاد تكون ذات المسوغات ،فهو يرى ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم ومنها النحو ،مخلة بالتعليم (وذلك لان فيه تخليطا على المبتدئ بالقاء الغايات من العلم عليه ،وهو لم يستعد لقبولها بعد ... ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع الفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها . لان الفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويصة ،فينقطع في فهمها حظ صالح من

= الامر العقائدي كما سنشير الى ذلك لاحقا قد فصل بين الوسيلة والغاية مع انهما كل واحد في منهج البحث العلمي .

(١) المصدر السابق : ١٢٤٩/٣ . (٢) المصدر السابق : ١٢٤٢/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوقت . ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة في ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة المفيدين لحصول الملكة التامة. واذا اقتصر عن التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة ،فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها)[١].

نخلص من هذا الى ترتيب نتيجتين من وجهة نظر ابن خلدون هما: ثانوية النحو كعلم ،واخلال المؤلفات النحوية المختصرة بعلم النحو .

ما أبعد هاتين النتيجتين عن منطوق كلام ابن خلدون على قضية النحو عندما تكلم عليه بشكل محدد ،وما اقرب هاتين النتيجتين من منطوق ابن حزم الظاهري عندما تكلم على مراتب العلوم وحدود ما يحتاجه طالب الحقائق !،فقرر بكل الوضوح والحسم اللذين امتاز بهما ما قرره ابن خلدون ،بتفصيل اكثر وتحديد للمظان التي يستقى منها النحو فقال :

(ولا بد لطالب الحقائق ... من مطالعة النحو ،ويكفيه منه ما يصل به الى اختلاف المعاني بما يقف عليه من اختلاف الحركات في الالفاظ ومواضع الاعراب منها وهذا مجموع في كتاب (الجمل) لابي القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي الدمشقي)[٢]

لا بل ما اشد قربهما من منطوق ابن مضاء الظاهري حين اراد ان يبين حدود ضرورة المعرفة بالنحو فقال :

(واني رايت النحويين - رحمة الله عليهم - قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن ،وصيانته عن التغيير ،فبلغوا من ذلك الى الغاية التي اموا وانتهوا الى المطلوب الذي ابتغوا ،الا انهم التزموا مالا يلزمهم ،وتجاوزوا فيها القدر الكافي فيما ارادوه منها ،فتوعرت مسالكها ،ووهنت مبانيها ،وانحطت عن رتبة الاقناع حججها ،حتى قال شاعر فيها :

ترنو بطرف ساحر فاتر أضعف من حجة نحوي

على انها اذا اخذت المأخذ المبرأ من الفضول ،المجرد عن المحاكاة والتخييل ، كانت من اوضح العلوم برهانا ،وأرجح المعارف عند الامتحان ميزانا ،ولم تشتمل الا على يقين او قاربه من الظنون)[٣].

هذا قول ابن مضاء فيما يتعلق بتزيد النحاة ومبالغاتهم وتفريعاتهم . اما فيما يتعلق بكون النحو محض آلة او وسيلة ،فانه لم يعد ما ذهب اليه ابن خلدون

---

(١) المصدر السابق :١٢٤٢/٣ . (٢) ابن حزم - التقريب : ١٩٨ وما بعدها

(٣) ابن مضاء - الرد على النحاة : ٧٢ . وظاهر من كلام ابن مضاء انه يخص بالرد النحويين المغالين ولا يخص النحو العربي من حيث هو قوانين تضبط لغة العرب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من بعد ،وما سبق اليه ابن حزم من قبل فقال :

(من اخذ من علم النحو ما يوصله الى الغاية المطلوبة منه ،واستعاض من تلك الظنون - التي ليست كظنون الفقه ،التي نصبها الشارع صلى الله عليه وسلم ،ولا كظنون الطب التي جربت ،وهي افي الغالب نافعة ،في الامراض والآلام - العلوم الدينية ،السمعية منها والنظرية ،التي هي الجنة ،والهادية الى الجنة ،فقد نفعه الله بالتعليم ،وهداه الى صراط مستقيم ،واما من اقتصر كل الاقتصار على المعارف التي لا تدعو الى جنة ،ولا تزجر عن نار ،كاللغات والاشعار ،ودقائق علل النحو ومسليات الاخبار ،فقد اساء الاختيار ،واستحب العمى على الابصار)(١)

هذان الموقفان من النحو: ثانويته ،واختلاله بالتلخيصات ،ليسا أهم ما نشير اليه من مواقف لدى ابن خلدون ،لا بل هناك ما هو اهم واخطر ،مثل موقفه من ماهية علم النحو مثلا ،هل هو علم صوري ام هو علم مطابق ؟ .

ان من يتأمل الفصول التي عقدها ابن خلدون للكلام على اصناف العلوم الواقعة في العمران ،فانه لا شك يغبط ابن خلدون على ذلك المستوى من التماسك والانسجام في نظراته المتناثرة بين الفصول ،واكثر ما نحس هذا التماسك في تقييماته للعلوم الالية ،خصوصا المنطق والنحو . ان المنطق بالنسبة لابن خلدون علم ضروري بالقدر الذي نحتاج اليه لترتيب المقدمات والنتائج وتنظيم الافكار ،لكنه في الوقت نفسه ليس سوى علم صوري ،قد يثبت او ينفي مقولة ما ،الا انه لا يثبت او ينفي واقعة ،انه باختصار علم غير مطابق للواقع(٢). وما ينسحب على المنطق ينسحب على النحو ،ما دام انه هو الآخر آلة ووسيلة ،يقصد به الى غير ذاته .

---

(١) ابن مضاء - الرد على النحاة : ٧٣ - ٧٤ .
عطفا على اشارتنا السابقة بخصوص الفصل بين الوسيلة والغاية لدى ابن خلدون، نشير الى ان هذا الفصل ليس مقتصرا على ابن خلدون كما يبدو واضحا من النصوص التي اوردناها لابن حزم وابن مضاء،ولكنه فصل يتردد لدى جل اعلام الفكر العربي الاسلامي . وفي الوقت الذي نعتقد فيه ان باعث هذا الفصل هو الآمر العقائدي الذي هيمن على الامر المعرفي البحت ،فاننا نستغرب اجماع هؤلاء الاعلام على كون النحو وسيلة وليس غاية مع انهم ادرى منا ولا شك بان علوم العربية ،وعلى رأسها النحو ، كانت اول ما اتجهت اليه جهود الباحثين العرب وعليها قامت الثقافة العربية منذ مبتدأ عصر التدوين . لا بل ان هناك من الباحثين المعاصرين من يرى ان اصول التشريع الفقهي في الحضارة العربية الاسلامية قد استفادت وربما اقتبست من اصول النحو العربي التي ارساها الخليل الفراهيدي خاصة وانه كان معاصرا للشافعي الذي ارسى اصول الفقه . كما ان المتأمل في مناظرة السيرافي مع متى بن يونس يخرج بانطباع كان سائدا على ما يبدو مؤداه ان النحو العربي هو (اورجانون) الثقافة العربية في مواجهة المنطق اليوناني .
انظر ،الجابري - تكوين العقل العربي : ١٠٢ ،١٠٣ .
،التوحيدي - الامتاع والمؤانسة:١/ ١٠٨ - ١٢٨ .
(٢) ابن خلدون - المقدمة : ٣/ ١٢١٢ ،١٢١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعبارة خلدونية فهو (علم بكيفية لا نفس كيفية)[١] لانه يصف وينظم الكلام ولكنه ليس عين الكلام ، انه علم صوري يفصله عن واقع اللغة المسافة نفسها التي تفصل رجلا بصيرا بالخياطة او النجارة قادرا على وصف خطوات هذه الصناعة نظريا ،لكنه غير ممارس لها عمليا[٢].

ولما كان الوصف فعلا ،ولما كان ثمة صفة تعود من الفعل للذات كما جاء في احدى عبارات ابن خلدون[٣] ،ولما كان (العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل)[٤] ،فان من البداهة ان نجد (كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين ،اذا سئل في كتابة سطرين الى اخيه او ذوي مودته او شكوى او ظلامة أو قصد من قصوده اخطأ فيها عن الصواب واكثر من اللحن ،ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على اساليب اللسان العربي . وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ،ولا المرفوع من المجرور ،ولا شيئا من قوانين صناعة العربية)[٥].

هكذا يخرج ابن خلدون النحو والنحويين من دائرة البلاغة ،فهل كان اول من فعل ذلك ؟ قطعا لا ،فقد سبقه الى ذلك ابن شهيد وحمل على قصور النحويين ومعلمي اللغة ،وفي مقدمتهم ابن الأفليلي ،ابراهيم بن محمد (ت ٤٤١هـ)[٦]. فالحكاية قديمة اذن ،ولها جذور اندلسية راسخة .

على ان ابن شهيد لما حمل حملته الشعواء على النحويين ،نافيا ان يكون معلمو العربية محسنين لتعليم البيان ونافيا ان يكون البيان شيئا يمكن تعليمه ،فانه لم يعد في حملته هذه دائرة النحو العربي الخاص باللغة العربية الفصيحة، على حين ان ابن خلدون وسع الدائرة كثيرا ،فاعتبر ان ثمة بلاغة اخرى يمكن ان تقوم خارج دائرة اللغة الفصيحة وآدابها ،لا مدخل للاعراب فيها ولا عبرة بـ (خرفشة النحاة اهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق)[٧] ولكنها تحتكم الى العرف اللساني

---

(١) المصدر السابق:٣/ ١٢٨٦

(٢) المصدر السابق:٣/ ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ .

(٣) المصدر السابق:٣/ ١٢٧٩ .

(٤) المصدر السابق:٣/ ١٢٨٧ .

(٥) المصدر السابق:٣/ ١٢٨٧ .

(٦) انظر حول موقف ابن شهيد من النحويين ومعلمي اللغة : احسان عباس - تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة) ،ط ٢ ،دار الثقافة ،بيروت ١٩٦٩ : ١٤٢ - ١٤٥ .

(٧) ابن خلدون - المقدمة:٣/ ١٢٨٨ ، ١٣٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السائد والقرائن المصطلح عليها[١].

بقيت مسألة مهمة نختم بها هذه المناقشة لموقف ابن خلدون الحقيقي من قضية النحو ،هي موقفه من بعض اركان النحو العربي اعني القياس والعلل.

ما من نص بين ايدينا يمكن ان نستند اليه لنحكم حكما قاطعا على موقف ابن خلدون من هذه الاركان . على اننا لو سحبنا موقفه من القياس في اللغة على موقفه من القياس في النحو لخرجنا بمحصلة مؤداها اطراحه القياس في الغالب . وعلى اية حال فان لنا في قناعة ابن خلدون المتمثلة في كون اللغة اكثر شمولا واتساعا من النحو الذي هو ليس سوى حكم من احكام اللسان ،كما يقول ،ما يدفعنا الى الاعتقاد بان اطراحه القياس في اللغة عموما ،لا بد منسحب على القياس في النحو . ولما كان القياس يستدعي بالضرورة العلل ،اذ لا قياس دون علة ،فاننا نميل ايضا الى الاعتقاد باطراحه العلل ترتيبا على قوله : (... لا تثبت اللغات بقياس ما لم نعرف استعماله على ما عرف استعماله بجامع يشهد باعتباره في الاول شأن القياسات الفقهية ،فيثبت الخمر للنبيذ باستعماله في ماء العنب باعتبار الاسكار الجامع . لان شهادة الاعتبار في باب القياس انما مدركها الشرع الدال على صحة القياس من اصله . وليس لنا مثله في اللغة الا بالعقل وهو محكم)[٢].

لا بل ان في تمهيده لهذا الاحتجاج بالقول : (واعلم ان النقل الذي تثبت به اللغة انما هو النقل عن العرب انهم استعملوا هذه الالفاظ لهذه المعاني . لا نقول انهم وضعوها لانه متعذر وبعيد ،ولم يعرف لاحد منهم) الذي جاء في سياق نقض القول بالوضع في مسألة اصل اللغة ،ما يتطابق مع تأكيد الظاهريين على ان الصواب في رفع زيد من قولنا (قام زيد) هو القول : كذا نطقت به العرب ،وليس لانه فاعل وكل فاعل مرفوع ،اذ يترتب على هذا القول ،السؤال : ولم رفع الفاعل[٣].

وقد عبر ابن حزم عن اعتقاده بتهافت العلل بالقول (كلها فاسدة لا يرجع منها شيء الى الحقيقة البتة . وانما الحق من ذلك ان هذا سمع من اهل اللغة الذين يرجع اليهم في ضبطها ونقلها ،وما عدا هذا فهو - مع انه تحكم فاسد متناقض - فهو ايضا كذب ،لان قولهم كان الاصل كذا فاستثقل فنقل الى كذا .... شيء يعلم كل ذي حس انه كذب لم يكن قط ،ولا كانت العرب عليه مدة ثم انتقلت الى ما سمع منها بعد ذلك)[٤].

---

(١) ولكن ابن خلدون فاته كما يبدو أن هذه الملكة المحتكمة الى قرائن لم يقيض لها التقنين كما قيض للغة الفصيحة ،تاهيك عن ان هذه الملكة مهما اختلفت بقرائنها عن قوانين اللغة الفصيحة فهي تبع لها لانها احتفظت بكثير من علاماتها الاعرابية التي تساقطت اليها ،مثل الضمائر وعلامات التأنيث والتذكير وغيرها.

(٢) ابن خلدون - المقدمة : ١٢٧٢/٣ .

(٣) ابن مضاء - الرد على النحاة : ١٣٠ .

(٤) ابن حزم - التقريب : ١٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ . قضية اللغـــة :

من اللافت للنظر قدرة ابن خلدون على التمييز بين مستويين من الكلام هما :

أ الملكة اللسانية .

ب صناعة اللغـــة .

اما عن صفة الملكة فهي (متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان) . وهـي صفة وعادة تؤكد الاساس العضوي الوظيفي المنتج للغة بهدف (القصد لافادة الكلام)[١] وهذه الوظيفة المنتجة للكلام موجودة لدى كل امة دون استثناء ،بمصطلحاتهـا وموضعاتها الخاصة .

وحصول الملكة (اي تقررها في اللسان) رهن (بتكرار الافعال ،لان الفعل يقـع اولا وتعود منه للذات صفة ،ثم تكرر فتكون حالا ،ومعنى الحال انها صفة غيـر راسخة ،ثم يزيد التكرار فتكون ملكة اي صفة راسخة)[٢].

الامر اذن ،اشبه بتدرج صوفي في معراج المعرفة ،يبدأ مريدا فيصيب شيئا من نور المعرفة ،وما يزال يجاهد النفس منقيا اياها من معظم اوضارها متقلبا في احوال الجهاد ما شاء له التقلب ،حتى اذا اطرح بعض ما ظل عالقا في نفسه من اوضار ،دلف الى خلاص روحه ،فاقام واستقام .

وكذا الملكة : ما يزال المتكلم يكرر فعل الكلام باصطلاحات لسان ما ،حتـى يتحصل له شيء من صفة هذا اللسان ،ثم يجتهد في تكرار هذا الفعل حتى يتحصل على حال تكاد تكون صفة راسخة ،ثم يجتهد اكثر فيقيم في هذه الصفة وتصبح له حـالا راسخة ،ومقاما ثابتا .

ولا يصح تكرار الا لما هو مسموع (والسمع ابو الملكات اللسانية)[٣]،وحتـى يمكن الحصول على ملكة اللسان العربي ،فلا بد من احتذاء المتكلمين الاوائل الذين كانوا يترسمون كلام أهل جيلهم (واساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عـن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها اولا)[٤]. ثـم لا بد من الالتفات الى ان تمام الملكة ليس (بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب)[٥] ولذلك فلا بد في اتمام الملكة من الاستماع الى مناحي العـرب في كلامهم . فاذا سارت الامور على هذا النحو ،صارت ملكة اللسان منتجة لصناعـة هي اللغة ،كما ان (الخط صناعة تنتجها ملكة في اليد)[٦]. وهي مرحلة ينتقل فيها المتكلم من انتاج الكلام الى مرحلة التفكير في كيفية انتاج الكلام ،وملكـة اللسان تشتمل على هذه المرحلة ولكنها - أي هذه المرحلة - ليست سوى جزء من ملكة اللسان. ولما كانت (اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في اللسـان للعبارة عن المعاني)[٧]ولما كانت العربيـة (معرفة قوانين هذه الملكـة ومقاييسها خاصة)[٨] ،فان محصلـة ذلـك ان ملكة اللسـان العربي غير صناعـة

(١) ابن خلدون - المقدمة : ١٢٣٥/٣ ، ١٢٦٤ .
(٢) المصدر السابق : ١٢٧٩/٣ .
(٣) المصدر السابق : ١٢٦٥/٣ .
(٤) المصدر السابق : ١٢٧٩/٣ .
(٥) المصدر السابق : ١٢٧٨/٣ .
(٦) المصدر السابق : ١٢٦٢/٣ .
(٧) المصدر السابق : ١٢٧٨/٣ .
(٨) المصدر السابق : ١٢٨٦/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللسان العربي غير صناعة العربية [١].

ويمثل ابن خلدون لهذه الملاحظة المدهشة بمثالي عالم الخياطة وعالم النجارة ويتبع هذين المثالين البسيطين بالقول (وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة في نفسها) [٢] خالصا الى التقرير بان (العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل) [٣].

ان هذه المسافة بين مستويين من مستويات امتلاك اللغة : مستوى انتاج اللغة (امتلاك بالفعل) ومستوى التفكير في كيفية انتاج اللغة (امتلاك بالقوة) ،مسافة قابلة للتناقص بالنسبة للعالم غير المزاول تبعا لمدى اهتمامه بحفظ امثال العرب وشواهدها التي يمكن ان يعثر عليها في كتاب سيبويه ،والتي لا تغني عنها قوانين الاعراب . ولذلك فان من قيض له العكوف على هذا الكتاب واهتم بحفظ امثلته وشواهده مؤهل لاستيفاء ملكة اللسان العربي ،بخلاف من اغفل حفظ هذه الامثلة والشواهد واقتصر على حفظ القوانين النحوية المجردة اذ هو سيحصل حتما على صناعة اللسان ولكنه لن يحصل عليه ملكة [٤].

على هذا النحو من كثرة المحفوظ من كلام العرب ،قيض لكثير من العجم ان يصبحوا حملة العلم ،لا بل انهم كادوا ان يكونوا اغلبية ،مع انهم عجم في لغتهم ومرباهم ومشيختهم . وما ذاك الا لانهم (ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب) [٥] ولان الواحد منهم ترسم في خياله (المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم) [٦].

غير ان هذه حال من لم تتقدم له في لسانه ملكة العجمة او من كان صغيرا لم تستحكم في لسانه عجمة العجم ،قبل ان ينتقل منها الى اللسان العربي ، اما من تقدمت له في لسانه ملكة العجمة فقد (صار مقصرا في اللغة العربية) [٧] وصار من المتعذر عليه الابانة عن نفسه باللسان العربي ،او الفهم عن اللسان العربي ،ذلك ان حجابين يحولان دونه هما حجاب الخطاب وحجاب الكتاب .

اما حجاب الخطاب فمسدل بانعدام (اقتناص المعاني من الفاظها ...(و) معرفة دلالتها اللغوية عليها) [٨] لما كانت (الالفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر

---

(١) المصدر السابق:٣/ ١٢٨٦ .
(٢) المصدر السابق:٣/ ١٢٨٧ .
(٣) المصدر السابق:٣/ ١٢٨٧ .
(٤) المصدر السابق:٣/ ١٢٨٧، ١٢٨٨ .
(٥) المصدر السابق:٣/ ١٢٥٨ .
(٦) المصدر السابق:٣/ ١٢٨٨ .
(٧) المصدر السابق:٣/ ١٢٦٢ .
(٨) المصدر السابق:٣/ ١٢٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وروابط وختام على المعاني)[١]. وزوال هذا الحجاب رهن برسوخ المعرفة بدلالة الالفاظ (بحيث تتبادر المعاني الى (الذهن) من تلك الالفاظ عند استعمالها شأن البديهي والجبلي)[٢].

واما حجاب الكتاب فمسدل بتعذر معرفة رسوم الكتابة ودلالتها على الالفاظ المقولة ،وبذلك يغدو القصور عن المعرفة قصورا مزدوجا ،اكثر استحكاما من القصور عن فهم الخطاب[٣].

ولذلك فان الغالب ان يكون باع العربي في علم العربية اطول وملكته اقوى اذا قرن بنظيره العجمي في علم العربية . لما تقدم في لسان الاخير من عجمة بعكس العربي الذي يتميز بحس لغوي نقي ،يسعفه في ترسيخ ملكته[٤] .

هذا فيما يتعلق بحد الملكة ،فاذا انتقلنا الى صناعة اللغة، اي علم اللغة. الفينا ابن خلدون يعرف علم اللغة بالقول : (هو بيان الموضوعات اللغوية)[٥]. ويعلل لهذا التعريف بالقول : (وذلك انه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المساة عند اهل النحو بالاعراب واستنبطت القوانين بحفظها .. ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم ،حتى تأدى الفساد الى موضوعات الالفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب ،في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ،فا حتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ،فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك واملوا فيه الدواوين)[٦].

ويبدو ابن خلدون من خلال تعريفه لعلم اللغة ،والتعليل الذي اتبعه اياه، ميالا الى تحديد هذا العلم على انه البحث في معاني الكلمات ،وهذا استنتاج يمليه علينا قوله (حتى تأدى الفساد الى موضوعات الالفاظ) ومن البديهي القول ان موضوعات الالفاظ انما هي معانيها . ومن باب التجوز فان بوسعنا القول ان تحديد ابن خلدون لعلم اللغة على هذا النحو قد جاء مقابلا لاحد مباحث علم الدلالة الا وهو علم المعردات (lexicologie) الذي يقوم في حده الادنى على (البحث في معاني الكلمات ،ومصادر هذه المعاني)[٧] ويمكن ان يمتد بعد ذلك الى البحث في اختلاف معاني الكلمات في حدود اللغة الواحدة باختلاف عصورها والامم الناطقة بها ،وموت معاني الكلمات ونشأة معان جديدة ،

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١٢٦٠ .
(٢) المصدر السابق : ٣/ ١٢٦٠ .
(٣) المصدر السابق: ٣/ ١٢٦١ .
(٤) المصدر السابق: ٣/ ١٢٦٣ .
(٥) المصدر السابق: ٣/ ١٢٦٨ .
(٦) المصدر السابق: ٣/ ١٢٦٨ .
(٧) علي عبد الواحد وافي ـ فقه اللغة : ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعوامل التي ترجع اليها هذه الظواهر ،والنتائج اللغوية التي تترتب على كل منها ،والقوانين التي تخضع لها في سيرها)[١].

ومن المستغرب ان يعمد ابن خلدون الى هذا التحديد للغة ،حتى ولو كنا نعلم ان جل الجهود اللغوية السابقة لابن خلدون والتالية له قد استنفذت تقريبا في وضع المعاجم اللغوية التي قامت على استقصاء اكبر قدر ممكن من المعاني للفظ الواحد . واستحضار ما يمكن استحضاره من شواهد شعرية تدلل على صحة استخدام لفظ بعينه للتعبير عن معنى من المعاني ،خاصة ان ابن خلدون لا يقتصر في استعراضه للجهود اللغوية السابقة على تمييز القسم الاكبر من هذه الجهود التي اتخذت المعاجم اللغوية البحتة اطارا لها ،ولكنه ايضا يميز بعض تلك الجهود التي خرجت عن هذا الاطار ،واتجهت الى البحث في المجازات وغيرها .

فهو يستعرض معظم الجهود التقليدية بدءا بسابق الحلبة كما يقول الفراهيدي الذي الف كتاب (العين) ،مرورا بالزبيدي الذي اختصر العين وحذف منه المهمل كله وكثيرا من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ احسن تلخيص ،وانتهاء بالجوهري من المشارقة الذي وضع كتاب (الصحاح) وابن سيده من الاندلسيين الذي وضع كتاب (المحكم) وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها وغيرهم من اللغويين مثل كراع صاحب (المنجد) وابن دريد صاحب (الجمهرة) وابن الانباري صاحب المزهر[٢] ، حتى يصل الى رصد بعض الجهود اللغوية التي تميزت عن هذه المعاجم بالبحث في المجازات ،وتبيان ما تجوزت به العرب من الالفاظ ،وما تجوزت به من المدلولات مثل كتاب (اساس البلاغة) للزمخشري الذي يرى ابن خلدون انه كتاب شريف الافادة[٣] او بالبحث في فقه اللغة وهو مبحث عزيز المأخذ لانه (لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الامور الخاصة الفاظا خاصة بها ،فرق ذلك ... بين الوضع والاستعمال ... كما وضع الابيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ،ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالاشهب ،ومن الانسان بالازهر ،ومن الغنم بالاملح)[٤]،وقد وضع الثعالبي في هذا المبحث كتابه (فقه اللغة).

وقد كان من حق علم اللغة التقدم على علم النحو كما يرى ابن خلدون (لولا ان اكثر الاوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند اليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر) . أي ان معظم الالفاظ الموضوعة لافادة المعاني ،ما زالت متداولة لم تفقد مدلولاتها ،على عكس حركات الاعراب التي تحدد صرف هذه الالفاظ الى وجوهها الصحيحة من المعاني التي املى عدم الاهتمام بها لاحقا - من قبل العامة بالطبع - ضرورة الاحتكام الى

---

(١) المرجع السابق : ٥ - ٦ .

(٢) وبطبيعة الحال فان ما يورده ابن خلدون من جهود لغوية ،لا يمثل كافة الجهود اللغوية في التراث .

(٣) ابن خلدون-المقدمة:٣/١٢٦٩، ١٢٧٩ .

(٤) المصدر السابق:٣/١٢٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوانين ضابطة تعين على معرفة الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر .

على ان هذا المسوغ الاحترازي لتقديم علم النحو على علم اللغة ،لم يمنع ابن خلدون من تأكيد رأيه في ان اكثر ما ينبغي للاديب في نظمه ونثره ان يحذره هو حرف استعمال العرب من الكلام عن مواضعه فهو لحن في الموضوعات اللغوية ..... اشد من اللحن في الاعراب وأفحش[١].

ولم ينزلق ابن خلدون الى ما انزلق اليه من سبقه من لغويين ومتكلمين واصوليين وفلاسفة ،فلم يخض في مسألة أصل اللغة ،ولا فيما ادى اليه الخوض في هذه المسألة من شأن اولية لغة على لغة . وجاء كلامه مقتصرا على اللغة العربية فحسب . وقد بادر الى القول : (واعلم ان النقل الذي تثبت به اللغة انما هو النقل عن العرب انهم استعملوا هذه الالفاظ لهذه المعاني ، لا نقول انهم وضعوها لانه متعذر وبعيد ، ولم يعرف لاحد منهم)[٢] .

في ضوء هذا التأكيد لنا ان نستخلص موقف ابن خلدون الرافض للوضع ،لاستحالة البرهان على ذلك ،وافتقارنا الى دليل تاريخي يثبت ان فردا او مجموعة من العرب قاموا بوضع اللغة،وهنا يتبادر الى اذهاننا قول الغزالي بالتوقف ،غير انه - أي الغزالي - لم يخلص الى هذا القول الا بعد ان خاض في مسألة اصل اللغة وجوز كل الاحتمالات الواردة بشأن اصل اللغة تجويزا عقليا ،ثم توقف عن الجزم بوقوع أي منها ، لانعدام البرهان العقلي او التواتر الخبري او السمع القاطع ونص على ان الخوض في هذه المسألة ليس الا فضولا لا أصل له .

لقد امتثل ابن خلدون لهذا الرأي فلم يخض فيما خاض فيه غيره ممن سبقه ، واكتفى بتأكيد ان الاصل الذي تثبت به اللغة هو النقل عن العرب . وفي هذا التأكيد نقل للمسألة من حيزها الميتافيزيقي المطلق الى حيزها التاريخي المعلوم .

اذ ان ما قالته العرب مقدور على تحديده زمنيا بعصر الجاهلية وصدر الاسلام وغني عن الذكر القول بان هذا التحديد يستبعد ضمنا الخوض في اصل أية لغة اخرى سوى اللغة العربية ،وهو ما انزلق اليه السابقون في معرض تخميناتهم لهوية اللسان الاول الذي تكلم به الانسان .

وقد تجاوز ابن خلدون عن المأزق الميتافيزيقي الكامن في الخوض في مسألة اصل اللغة ،محددا البحث في اصل اللغة بمرحلة زمنية يمكن تصورها ،واستفاد من ادوات المذهب الظاهري الحزمي في رفض القول بالقياس . القياس الذي انتهى اليه رأي اغلب اللغويين . على انه اذا كان من السهل توقيف كل الآراء بصدد أصل اللغة لانعدام الدليل العقلي او التواتر الخبري ،فليس الامر كذلك بشأن

---

(١) المصدر السابق:٣/١٢٧١ .

(٢) المصدر السابق:٣/١٢٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مسألة تقنين اللغة ،وهي مسألة تطبيقية بحتة تالية على مسألة اصل اللغة وغير قابلة للتأثر بأي من الاراء الواردة بخصوص اصل اللغة . كما انها لا تعدم دليلا عقليا .

ولقد انهى رأي اغلب اللغويين في شأن تقنين اللغة الى الركون للقياس . وقد اسعفهم هذا القياس بادئ ذي بدء في استظهار المطرد والعام في اللغة ،وتعيين الشاذ والمهمل ،ثم ما لبثوا ان توغلوا في ذلك حتى صار القياس غاية في ذاته بعد ان كان وسيلة ،وحتى بعدت الشقة بازدياد هذا القياس ، بين ما قالته العرب ، وما ادت اليه المبالغة في القياس الذهني والمجرد .

ومن الملاحظ ان قول ابن حزم بتوقيف اللغة لم يحل دون توظيف ابن خلدون لادوات المذهب الظاهري . وما دام انه لم ينزلق الى الخوض في مسألة اصل اللغة ، فليس هناك ما يمنع بعد ذلك من توظيفه لادوات هذا المذهب ، بما يدعم آراءه في اللغة . والحق انه ما من ادوات مثل اداوات ابن حزم يمكن ان يعضد بها ابن خلدون رأيه في رد القياس وقد عمد ابن خلدون الى استخدام احد الامثلة المشهورة في الفقه الظاهري التي رمت الى ابطال قياس الشاهد على الغائب ،بدلا من ابداء حجج ابن حزم في رد العلل وبالتالي ابطال القياس في اللغة ،قائلا :

(وكذلك لا تثبت اللغات بقياس مالم يعرف استعماله على ما عرف استعماله ،بجامع يشهد باعتباره في الاول شأن القياسات الفقهية ،فيثبت الخمر للنبيذ باستعماله في ماء العنب باعتبار الاسكار الجامع . لان شهادة الاعتبار في باب القياس انما مدركها الشرع الدال على صحة القياس من اصله . وليس لنا مثله في اللغة الا بالعقل وهو محكم)[1].

ان هذا التطويع لهذا الدليل الظاهري بغية رد القياس في اللغة ،يومئ الى مدى تأثر ابن خلدون بالمذهب الظاهري الرافض للقياس في اللغة كما هو في الفقه والذي تسرب الى آراء المهدي بن تومرت الذي رفض القياس في اللغة ،ومن تلاه من الفلاسفة واللغويين الذين اظلتهم دولة الموحدين وقد استمر هذا الموقف الظاهري الرافض للقياس في اللغة حتى عصر ابن خلدون ،في شخص ابي حيان النحوي .

ولعل تساؤلا يثور حول الجامع الذي مكن ابن خلدون من الاستفادة من آراء اصوليين متعارضين مثل الغزالي باشعريته المفرطة وابن حزم بظاهريته الصارمة ،وجوابنا هو ان دولة الموحدين وامامها المهدي الذي تلمذ للغزالي وتأثر بابن حزم وجاءت آراؤه صدى قويا لآراء الاثنين هو الجامع الثقافي الذي مكن ابن خلدون من توظيف معطيات لمذاهب مختلفة ،لم تتصهر الا في بوتقة الموحدين .

وقد رد ابن خلدون ايضا ، القول بان لسان حمير ولسان مضر لسان واحد ،وذهب الى ان (لغة اخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها)[2] خلافا لما ذهب اليه البعض من انهما لغة واحدة ،فاجرى اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها على ان ابن خلدون يأتي في معرض

(١) المصدر السابق : ١٢٧٢/٣ . (٢) المصدر السابق : ١٢٨٢/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلامه على مغايرة لغة حمير للغة مضر،يأتي بتشبيه على جانب كبير من الخطورة ، مدللا على عمق هذه المغايرة بالقول :

(كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر)[١]،وهو تشبيه يتعدى الاعتراف بوجود لغة تجاور اللغة الفصيحة الى تأكيد اتساع الهوة بين لغة مضر الفصيحة ،ولغة العرب في الحواضر والامصار لعهده .

واذا صح هذا التأكيد ،فانه يعني ان اللغة العامية بسماتها التي يمكن ان نستشفها من خلال مقدمة ابن خلدون ،قد حققت انتشارا واسعا حتى لم يعد ممكنا معها القيام بمحاولات لتصويب لغة العامة من اللحن او تخريج ما فيها من الفاظ استنادا الى تعدد لغات العرب ، او الاستمرار في ممارسة تلك الرقابة اللغوية الصارمة على الادباء كما كان الحال في القرون السابقة . مع الاخذ بعين الاعتبار عدم الذهاب بعيدا في تصور هذه اللغة التي قصد اليها ابن خلدون ،اذ من الواضح انها ذات اللغة الفصيحة غالبا من حيث المفردات (الموضوعات) الا انها تخفّفت من حركات الاعراب ،والاعراب كما يرى ابن خلدون ليس الا احد احكام اللسان : (نجد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى ... ولم يفقد من احوال اللسان المدون الا حركات الاعراب في اواخر الكلم فقط ،الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعا معروفا وهو الاعراب ،وهو بعض من احكام اللسان)[٢].

لكن .. الم يسبق لابن خلدون ان اكد في مستهل كلامه ان النحو هو المقدم في علوم اللسان العربي ،معتبرا الاعراب لحمة هذا النحو وسداه ،من حيث هو دال على الاسناد والمسند والمسند اليه ؟ وهل هو يناقض نفسه ؟ ..

في تقديرنا انه لا تناقض في كلام ابن خلدون ،اذ افترضنا انه ينطلق من قناعة راسخة بوجود مستويين من اللغة : مستوى خاص هو اللغة الفصيحة المحتكمة الى اصول النحو العربي الذي به (يتبين اصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر)[٣]. ومستوى عام هو اللغة العامية المحتكمة الى (قرائن تدل على خصوصيات المقاصد)[٤].

وبما ان المستوى الخاص من اللغة قد حصل الاعتناء به لما (..كان القرآن متنزلا به والحديث النبوي منقول بلغته وهما اصلا الدين والملة ،فخشي تناسيهما وانغلاق الافهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلا به ،فاحتيج الى تدوين احكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه ،وصار علما ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل ،سماه اهله بعلم النحو ،وصناعة العربية ،فأصبح فنا محفوظا وعلما مكتوبا وسلما الى فهم كتاب وسنة رسوله وافيا)[٥].. ولما (كانت العناية بلسان مضر من اجل الشريعة

---

(١) المصدر السابق:٣/١٢٨٢ .
(٢) المصدر السابق:٣/١٢٨١ .
(٣) المصدر السابق:٣/ ١٢٦٤ .
(٤) المصدر السابق:٣/١٢٨٠ .
(٥) المصدر السابق:٣/١٢٨١، ١٢٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا اليه)[١]ـ فانه لم يعد هناك ما يمنع من الالتفات الى المستوى العام من اللغة ،لا بل (..لعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمور اخرى موجودة فيه ،فتكون لها قوانين تخصها ،ولعلها تكون في ا واخر على غير المنهاج الاول في لغة مضر ،فليست اللغات وملكاتها مجانا)[٢].

لنتأمل هذه العبارة (فليست اللغات وملكاتها مجانا) ولنحاول تأويلها في ضوء بعض الاشارات التي اوردها ابن خلدون .

ان الدافع الرئيس الى العناية بلسان مضر ،دافع واضح لا يحتاج تعيينه الى كثير عناء ،انه الدافع العقائدي البحت ،وهو دافع وقف عليه ابن خلدون ووقف عليه غيره من الباحثين قدماء ومحدثين ،فما هو الدافع في المقابل الى الاعتناء بلسان الامصار وتدوينه من جهة ،وما اسباب شيوع هذا اللسان من جهة اخرى ؟ـ

ان الدافع الى الاعتناء بلسان الامصار وتدوينه ،هو ما انفرد ابن خلدون بالوقوف عليه من بين القدماء على الارجح . انه الحاجة الى تدوين (احوال الخليقة والافاق واجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت بأهلها)[٣]،وقد كان من المستغرب حقا ان يستنكف ابن خلدون عن الاعتناء باللسان العربي لعهده ،وهو المؤرخ الذي اخذ على عاتقه مهمة التأريخ لاحوال عالم في طور التحول . وكان من البديهي ان يبدو لسان العرب لعهده اكثر الاحوال جدارة بالرصد والتسجيل . وان كانت العصبية الدينية هي الدافع الرئيس الى الاحتفاظ بلسان مضر في مستواه الوظيفي الخاص ، فان الدافع الى شيوع اللسان الحضري المغاير للسان مضر هو تفتت عصبية الدولة العربية وانفراط عقد مركزيتها السياسية بفعل تغلب العناصر الاجنبية عليها من فرس وترك وبربر . وعلى الرغم من ان هذه العناصر ظلت تحكم باسم الاسلام ،الا ان ابن خلدون في ضوء الترابط العضوي الوثيق الذي يقيمه بين العصبية الدينية (الاسلام) والعصبية القومية (العرب)[٤]،يبدو ميالا الى اعتبار كل ما هو عربي

---

(١) المصدر السابق ٣/١٢٨١ ، ١٢٨٢ .
وما تقدم من نصوص لابن خلدون يؤكد هيمنة الأمر العقائدي على الأمر المعرفي البحت لانه اذا كان الاعتناء بلسان مضر قد حصل بعد مجيء الاسلام لنزول القرآن به ونقل الحديث بلفته ،فان هذا لا يلغي حقيقة ان الاعتناء بهذا اللسان قد كان حاصلا قبل ذلك ولكن لاسباب اخرى اقتصادية وسياسية وثقافية تتصل بقريش

(٢) المصدر السابق ٣/١٢٨٢ .

(٣) المصدر السابق : ١/٣٢٦ .

(٤) جاء في المقدمة : ٣/١٢٥٧ .
(... مع ان الملة عربية وصاحب شريعتها عربي .. وانما احكام الشريعة التي هي اوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع واصحابه . والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التعليم والتأليف والتدوين ،ولا دفعوا اليه ،ولا دعتهم اليه =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اسلامي بالضرورة والعكس ليس صحيحا. وبمعنى آخر فان العصبية الدينية (الاسلام) التي تغلب بفضلها العرب على غيرهم من الامم ، انما تستند نصيا على البيان العربي، أو اللغة العربية التي تنزل بها القرآن ونقلت بها السنة ، ناهيك عن كل ما انطوت عليه السنة الشريفة من اشادة بالعرب ،وما ترتب على ذلك من جدل سياسي كان محوره الرئيس احقية العرب عموما بالحكم ،وقريش بوجه خاص .

لم يقف ابن خلدون عند حدود الاعتراف لهذه اللغة الثانية بالوجود ،ولكنه بادر الى اقتراح على جانب كبير من الاهمية فقال : (لعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بامور اخرى موجودة فيه ،فتكون لها قوانين تخصها ،ولعلها تكون في اواخر على غير المنهاج الاول في لغة مضر ،فليست اللغات وملكاتها مجانا)[1].

وتتمثل بعض القوانين المخصصة التي يمكن الاعتياض بها عن الحركات الاعرابية في التقديم والتأخير ،وعموما فان ابن خلدون يستخدم لفظة (القرائن) ليدل بها على أية ضوابط يمكن ان نستدل بها على (خصوصيات المقاصد) .

ولا شك في ان تمثل هذه الضوابط - واغلبها قرائن معنوية - هو من الصعوبة بمكان لولاان اللغة العامية كانت قد قطعت شوطا كبيرا ، اتاح للناس فرصة كافية للتواضع على هذه القرائن والتفاهم مباشرة . وعلى سبيل المثال فعندما نقول في اللغة العامية : (ضرب عمرو زيد) فان هذا التركيب الخالي من الاعراب لا يحتمل سوى معنى واحد فقط هو ان عمرا ضرب زيدا ،في حين ان ذات التركيب في حالة دخول الاعراب عليه يحتمل ان نقول ضرب عمرو زيدا وضرب عمرا زيد ،وعلى هذا ففي الوقت الذي نلاحظ فيه ان الذاكرة العامية تلزم اعتبار الاسم الاول فاعلا والاسم الثاني مفعولا به فاننا نلاحظ قابلية اللغة الفصيحة المعربة لاحتمال اكثر من معنى في حدود التركيب اللغوي الواحد ،تبعا لتغير حركات الاعراب[2].

على اية حال ،وعلى الرغم مما تمتاز به الفصيحة عن العامية ، الا ان ابن خلدون يبقى مع ذلك مصرا على ان اللغة العامية غير المعربة تظل محتملة في مستواها التعبيري الخاص لكثير من فنون البيان والبلاغة ،وفي هذا يقول :

= حاجة . وجرى الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ،وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقلته (القراء) أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا اميين ،لان الامية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عربا) .

وانظر ، المقدمة : ١٢٦٤/٣ في معرض حديثه عن علوم اللسان العربي (اركانه اربعة : وهي اللغة والنحو والبيان والادب . ومعرفتها ضرورية على اهل الشريعة اذ مأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ،وهي بلغة العرب ،ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ،وشرح مشكلاتها من لغاتهم) .

(١) ابن خلدون - المقدمة: ١٢٨٢/٣ .

(٢) وهذا يظهر ان اللغة الفصيحة اكثر وفاء بمتطلبات الحضارة وما تقتضيه من مستويات لغوية تعبر عن معان ذهنية مجردة لا تستطيع اللغة العامية ان تفي بغرض التعبير عنها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(..فنحن نجد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى والتعبير عن المقاصد والتفاوت فيه بتفاوت الابانة موجود في كلامهم لهذا العهد واساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم ،ومنهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم ،والشاعر المفلق على اساليب لغتهم ،والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك)[١].

والبلاغة كما يرى ابن خلدون هي (مطابقة الكلام للمقصود ومقتضى الحال من الوجود فيه ،سواء اكان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول او بالعكس ،وانما يدل على ذلك قرائن الكلام)[٢]. وبهذا لا يعود هناك محل للاعراب اذ محله في المستوى الخاص من اللغة الذي اشرنا اليه وهو اللغة الفصيحة ،واذن فالاعراب هاهنا (لا مدخل له في بلاغة اللسان العامي)[٣]. وينعى ابن خلدون على الكثير من اللغويين استنكارهم ما وضع بهذه اللغة من اشعار يرونها هجينة وليست معربة ،ذاهبا الى ان مبعث هذا الاستنكار هو افتقار هؤلاء الى ملكة هذا اللسان التي كانت ستوفر لهم فرصة تذوق هذا الشعر والتمتع به[٤].

ولا مزية لدى ابن خلدون للغة على اخرى من هذه اللغات العامية ،ما دام ان كلا من الناطقين بها (متوصل بلغته الى تأدية مقصودة والابانة عما في نفسه)[٥].

ويسهب ابن خلدون في ايراد نماذج من اشعار العرب وأهل الامصار لعهده ،مما وضع بلغة غير معربة ،وهو يبدي اعجابه بهذه الاشعار رغم خلوها من الاعراب ،لان الشعر كما يرى موجود بالطبع في اهل كل لسان ،والمهم فيه ان يلتزم (نسبة واحدة في اعداد الحركات والسواكن)[٦] ولا بأس بعد ذلك ان يقع في هذا الشعر ما اصطلح النحاة على تسميته باللحن ،لغة كان أم اعرابا . اذ ان المعول عليه في هذا الشعر هو مطابقة الدلالة للمقصود ومقتضى الحال (والدلالة بحسب ما يصطلح عليه اهل الملكة ،فاذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة)[٧].

وتشبه هذه الاشعار كما يقول ابن خلدون تلك المنظومة باللسان المضري ،من حيث انها تأتي على سائر الاعاريض المستخدمة في نظم الشعر الفصيح ،وتشتمل على كافة اغراضه من نسيب ومدح ورثاء وهجاء[٨]. والناظم في هذه اللغات يستطرد في

---

(١) ابن خلدون ـ المقدمة : ١٢٨١/٣ .
(٢) المصدر السابق:١٣٢٦/٣ .
(٣) المصدر السابق:١٣٢٦/٣ .
(٤) المصدر السابق:١٣٢٦/٣ .
(٥) المصدر السابق:١٢٨٤/٣/٣ .
(٦) المصدر السابق:١٣٢٥/٣ .
وقد يتراءى هنا ان هذا هو شرط ابن خلدون في الشعر ،ولكن عرضنا لقضية الشعر في الفصل التالي سوف يظهر ان هذا الشرط سيتراجع ازاء شروط فنية اخرى .
(٧) المصدر السابق:١٣٢٦/٣ (٨) المصدر السابق:١٣٦٤/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصيدته من فن الى فن على غرار شاعر القصيدة الفصيحة عندما يبغي الخلوص من غرض لآخر[١]. والغالب في هذه الاشعار ان يبتدئ الشاعر بذكر اسمه ثم يقدم لما يريد قوله بالنسيب ،وربما هجم على مراده مباشرة دون مقدمات[٢]. وتسمى القصائد المنظومة على هذا النمط عند العرب من اهل المغرب بالاصمعيات نسبة الى الاصمعي الراوية المشهور ،وتسمى عند العرب من اهل المشرق بالبدويات[٣]. وقد يترنمون بهذه القصائد ترنما يسيرا على خلاف الطرق الموسيقية ،ثم يغنون به . ويدعون هذا الغناء (حوراني) نسبة الى حوران على اطراف العراق والشام [٤].

ومما نظم في هذه اللغات اشعار موضوعة على اربعة اجزاء ،تخالف اجزاؤها الثلاثة الاولى الجزء الرابع في الروي ،وتلتزم قافية الجزء الرابع حتى آخر القصيدة ،على غرار المربعات والمخمسات التي احدثها المولدون في العصر العباسي[٥]

---

(١) المصدر السابق:٣/ ١٣٦٥ .

(٢) المصدر السابق:٣/ ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ .

(٣) المصدر السابق:٣/ ١٣٢٦ .

(٤) المصدر السابق:٣/ ١٣٢٦ .

(٥) المصدر السابق:٣/ ١٣٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الرابـــــع

القضايا الادبية في مقدمة ابن خلدون : عرض وتحليل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - مهـــــاد:

لعل مما يتجاوز طموحنا بكثيـــــر في هذا البحث ،رسم خطوط عريضة للجهـــود النقدية والادبيـــة السابقـــة لابن خلدون . ولهـذا فقـد رأينـــا ان من الاجـــــدى التوقف عند بعض العلامات المهمة في هذه الجهـود التي يمكن ان تمثل اضـــاءات تساعد في الكشف عن التمايز والتماثل بين نظرات ابن خلدون في الادب والنقـــــد ونظرات غيره ممن سبقوه .

ومن المفيد الاشارة الى ان احتكامنا لمحددات منهجية لم نألُ جهدا في مراعاتها، قد املى علينا ضرورة اضاءة بعض العلامات التي لمعت في المشرق العربي وكان لها تأثيرهـا الواضح في الجهود الادبية على امتداد رقعة العالم العربي والاسلامـــي ؛ واضاءة بعض العلامات التي كان لها دور في الحياة الادبية في الاندلس والمغـــرب ، بغية وضع جهود ابن خلدون في سياقها العام من حيث هو مفكر عربي اسلامي ،وفـــي سياقها الخاص من حيث هو مفكر ينتمي الى بيئة المغرب العربي .

وعلى الرغم من اعتقادنا بأن كافة الجهود النقدية والادبية في التراث ،تظل على اختلاف اتجاهاتها منتمية الى دائرة تاريخية وحضارية واحدة ،الا أننا نميل - رغبة في تعيين التمايز الذي لا يلغي الوحدة - الى تعميم تصنيف اجراه الدكتور جابر عصفور في كتابه (الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب) ، حيث ذهب الى القول بان هناك ثلاث بيئات اسهمت في (توضيح الاصول الاولى لمبحث الانواع البلاغية للصورة الفنية : بيئة اللغويين ،ثم بيئة المتكلمين ،واخيـرا بيئة الفلاسفة من شراح ارسطو بوجه خاص)[١].

وفي الحقيقة ،فليس هناك ما يمنع فيما نرى من تعميم هذا التصنيف علـــى جميع الجهود النقديـة والادبيـة في التراث ،اذ أننـا لو اردنا ان نرد أيا من هذه الجهود الى اطاره الخاص ،لما وجدنـا سوى هـذه البيئات بيئـة نرده اليها. وقد كان من الضروري الاشارة الى هذا التصنيف لاننا نعتقد بوجوب اضطلاع هـــذا البحث بتعيين البيئة التي تنتمي اليها جهود ابن خلدون او تلك التي تقترب منها اكثر من غيرها . وهو تعيين قد يكشف لنا عن مفارقات مهمة في فكر ابن خلدون .

ولا بأس والامر كذلك في ابراز أهم سمات هذه البيئات كما أوردهـــا الدكتور جابر عصفور :

* تعتبر بيئة اللغويين[٢] البيئة الاقدم زمنا ،وقد احتضنت جهودا تعود الـــى منتصف القرن الثاني للهجرة ،وتنسب الى اعلام مثل عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب والخليل بن احمد وسيبويه الذي ذهب البعض الى حد اعتبار بعض الملاحظات الاسلوبية

---

(١) جابر عصفور - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ،ط ٢ : دار التنوير ،بيروت ،١٩٨٣ : ٩٩ .

(٢) المرجع السابق : ٩٩ - ١٠٠ ،١٠٣ - ١٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي وردت في (كتابه) ثم ضمنت تاليا في علمي المعاني والبيان ، الارهاصات الاولى لمبحث البلاغة العربية .

ومن الملاحظ ان جهود بيئة اللغويين قد اتجهت في المقام الاول الى الحفاظ على اللغة العربية نفسها ، أي الى الحفاظ عليها في ذاتها ،وقد اسهمت هذه الوجهة على الارجح في عدم تمييزهم بدقة بين الشعر والنثر من حيث هما شكلان متمايزان من التعبير ،ومالوا الى القول بانعدام أي فارق بين الشعر والنثر باستثناء ان الاول يتطلب وزنا وقافية في حين ان الثاني يتحرر منهما . متغاضين بذلك عن خصوصية اللغة الشعرية الكامنة التي تجعل منها (مظهرا لنشاط عقلي متمايز عن نشاط الناثر)[١].

ويبدو ان انتساب معظم اعلام هذه البيئة اللغوية الى مدرسة البصرة بنزعتها العقلية والمنطقية الصارمة قد زاد من حدة هذا الاتجاه، ولذلك فليس غريبا ان تطغى ظاهرة مثل التشبيه على اهتمام هذه البيئة لان هذه الظاهرة تظل الاكثر احتمالا للتقسيمات العقلية المباشرة .

مع ذلك ،فان مما لا ينكره باحث ، اضطلاع هذه البيئة بمهمة تأسيس مباحث البيان العربي ،كما انها اطلعت اعلاما رفدوا الادب العربي بمساهمات ذات اهمية بالغة .

* وتأتي بيئة المتكلمين[٢] تالية على بيئة اللغويين ،ومتميزة عنها من حيث قيام اولى جهودها على أساس الدفاع عن العقيدة الاسلامية وما ادى اليه ذلك من اهتمام بمباحث بلاغية ونقدية . واجمالا فثمة عاملان وقفا بقوة من خلف الدراسات البلاغية في بيئة المتكلمين والمعتزلة ابرزهم ، هما:

- (دراسة القرآن نفسه ،وتبين حقيقة اعجازه ونظمه وتأمل المشكلات الاسلوبية الخاصة التي تعترض عملية التلقي لهذا النص ،وفي هذا الجانب تبرز جهود النظّام والجاحظ في حدود النصف الاول من القرن الثالث الهجري) .
- (تحقيق الغاية من تعلم البلاغة نفسها فالبلاغة عندهم عنصر هام في الاقناع الذي هو غاية الجدل الكلامي) .

وازاء ظاهرة التشبيه التي طغت على اهتمام اللغويين ،فقد طغت ظاهرة المجاز على اهتمام المتكلمين ،من حيث هي مقابل للحقيقة وليست نقيضا مطلقا لها كما هو الحال في شأن ظاهرة الكذب ،والى هذا ذهب الجاحظ الذي كان على الارجح اول معتزلي يوظف المجاز في التأويل .

وكما لم يميز اللغويون بدقة لاسباب تقدمت ،بين الشعر والنثر من حيث هما فعاليتان لهما خصائصهما ،فان المتكلمين بسبب من تحركهم من منطلقات عقائدية بحته واهتمامهم الشديد بمبحث المجاز بما يخدم النص القرآني لم تتضح عندهم الخصائص النوعية للشعر ،وتداخلت الحدود بين الشعر والخطابة بسبب من الترابط الوثيق لديهم بين البلاغة والجدل .

---

(١) المرجع السابق : ١١٧.

(٢) المرجع السابق : ١٠١ - ١٠٢ ، ١٤٤ - ١٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* وتظل بيئة الفلاسفة[١] ، البيئة الاقل وضوحا لو اردنا ان نتعقب بداياتها ،والاكثر اخلاصا للقضايا النقدية الحقيقية ،جماليا وفلسفيا ،في الشعر والنثر . وعلى الرغم من بعض المفاهيم المغلوطة التي راكمتها ترجمة متى بن يونس لكتاب ارسطو (الشعر) في هذه البيئة[٢] ، الا ان هذا الكتاب كان ذا اثر عميق في اثارة وانضاج الكثير من القضايا في تراثنا الادبي والنقدي واذا كان المتكلمون بعامة والمعتزلة منهم بوجه خاص هم مؤسسو البيان العربي ،فان بيئة الفلاسفة هي النافذة التي تسربت منها رياح الثقافة اليونانية ،مما يجعل الكلام على البيئة الفلسفية مختلفا الى حد ما عن الكلام على البيئتين الاخريتين.اذ أنناحين نتكلم عن بيئتي اللغويين والمتكلمين ،فاننا نتكلم عن (مدرسة) عربية صميمة ،رغم ما قد يقال عن خضوع المعتزلة لمؤثرات (هيلينية) اسهمت في توجههم من الادب الى الفلسفة ،او انها وسمت مباحثهم البيانية بسمة منطقية تحليلية على حساب الناحية الفنية والجمالية[٣]. لاننا حتى لو سلمنا بهذا التأثير فانه لا يلغي حقيقة ان المعتزلة عملوا على توظيف ادوات الفكر اليوناني فحسب في انشاء البيان العربي ومن ثم احتواء هذه الادوات في الوقت الذي انطلق فيه الفلاسفة العرب في جهودهم النقدية من مصادرات ارسطية خالصة قد تنطبق على الشعر والخطابة اليونانيين ولكنها لا تصلح للتطبيق على الشعر العربي ،ومع ذلك فقد اسهمت هذه الجهود في اثراء دراسة النواحي التجريدية العامة في الشعر والنثر من جنس الكلام على حد الشعر وماهيته وعناصره وعلاقته بالمنطق ...الخ .

وما تقدم قد يصح اطلاقه على جهود الفارابي وابن سينا وابن رشد ،اذ تواتر لديهم الاعتماد على ترجمة متى الخاطئة فكان ان اعط الوزن في الشعر الاهمية نفسها التي اعطاها ارسطو للمحاكاة على سبيل المثال[٤]. ولكن قد لا يصح اطلاقه على جهود قدامة بن جعفر (ت ٣٢٦هـ) الذي منح من الثقافة اليونانية الشيء الكثير ووقف على تلك القوانين التي تجعل من نقد الشعر اليوناني علما قائما

---

(١) المرجع السابق : ١٠١ - ١٠٢ ، ١٤٠ - ١٦٩ .

(٢) حول ترجمة متى بن يونس (ت ٣٢٨هـ) لكتاب الشعر ،وما ترتب على هذه الترجمة من نتائج ،اضافة الى مدى الاثر الذي احدثه كتاب الشعر في النقد العربي. انظر ،احسان عباس - تاريخ النقد الادبي عند العرب ،ط ٤ ،دار الثقافة بيروت ،١٩٨٣ : ١٨٦ - ١٨٧ ، ٤١١ - ٤١٨ . وانظر أيضا ،جابر عصفور - الصورة الفنية : ١٤٤ - ١٤٩ .

(٣) الجابري - بنية العقل العربي : دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ،ط ١ ،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ،١٩٨٦ : ٣١.والجابري يشير بهذا الى رأي للدكتور طه حسين .

(٤) جابر عصفور - الصورة الفنية : ١٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بذاته ،واراد تأسيس علم بنقد الشعر العربي ،فكان ان وضع حدا للشعر يجعله مستقلا عن علوم اللغة وغيرها ،ومرتبطا بطبيعة مادته من حيث هو قول موزون مقفى له معنى .

وعلى الرغم من ان قدامة قد بالغ كثيرا في اخضاع النقد لقوانين المنطق،غير فاصل بين منطق الشعر الخاص ،ومنطق الفكر العام الا انه كان صاحب قصب السبق ولا شك في وضع علم بالشعر العربي يجعله في منأى عن فوضى الاحكام الانطباعية والذوقية (١).

وقد قيض لجهود قدامة ان توّتي اكلها - وان جاء ذلك متأخر جدا - من خلال حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) الذي كان اكثر تفهما لطبيعة الشعر ومنطقه الخاص ،واكثر تمثيلا للروافد العربية واليونانية في آن (٢) .

ان تأكيد خصوصية البيئة الفلسفية ،جدير بالاهتمام لان جانبا كبيرا من الجهود النقدية قد قامت في التراث ،استنادا الى اهمية توضيح (السنة) العربية في القول. وقد اخضعت هذه الجهود اشعار كل من البحتري وابي تمام والمتنبي وابي العلاء ردا وقبولا لدراسات نقدية ،انطلاقا من هذا الشعور بالاهمية . وفي هذا السياق ينبغي التعامل مع القضايا الرئيسة في تاريخ النقد الادبي عند العرب .

ولعل اهم القضايا النقدية في تاريخ الادب العربي ،التي يمكن اعتبارها محاور رئيسة ،دارت من حولها قضايا فرعية كثيرة ،هي مشكل اللفظ والمعنى ومشكل عمود الشعر ومشكل العلاقة بين النظم والنثر. وهي القضايا ذاتها التي مثلت فيما نرى المحاور الرئيسة التي دار من حولها كلام ابن خلدون .

* قضية اللفظ والمعنى :

لم تخل الجهود التي سبقت الجاحظ (ت٢٥٥هـ) من اشارات متفرقة الى مشكل اللفظ والمعنى،ولكن الجاحظ هو الذي فجر هذا المشكل على نحو ربما لم يرده عندما قال في كتابه الحيوان (والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والقروي والبدوي والقروي) .

---

(١) انظر حول جهود قدامة بن جعفر النقدية ،جابر عصفور - مفهوم الشعر ،دراسة في التراث النقدي ،ط ٢،دار التنوير،بيروت١٩٨٢ : ٧٧ - ١١٩ . وانظر ايضا، احسان عباس - تاريخ النقد الادبي عند العرب : ١٨٩ - ٢١٤ .

(٢) انظر حول جهود حازم القرطاجني النقدية ،جابر عصفور - مفهوم الشعر : ١٢٥ - ١٤٨ . احسان عباس - تاريخ النقد الادبي : ٥٣٩ - ٥٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسواء اكان دافعه الى هذا القول الذي قد تنقضه عبارات متفرقه له ،دافعا عقائديا بحتا يتصل برغبته في الاتكاء على النظم دفاعا عن اعجاز القرآن الكريم، او كان دافعه تجنب الانزلاق فيما انزلق اليه نقاد عصره من تعقب لسرقات المعاني بين الشعراء، او كان دافعه امرا يتصل بطبيعة ثقافته الموسوعية التي هيأت له سهولة الخوض في اي موضوع كان فان مالا يسعنا تقريره هو مسؤوليته الكاملة عما مثله تسليم بعض من جاء بعده بهذه المقولة على علاتها ،من خطر على المباحث البلاغية والنقدية وتوجيهها وجهة شكلية فحسب [١]. اذ لم تحل جهود ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في التسوية بين اللفظ والمعنى تبعا لمعيار (الجودة والرداءة) [٢] ولاجهود ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) في تأكيد تلاحم الاثنين كما الروح والجسد [٣]،دون تبني ابي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) لمقولة الجاحظ بالكامل ودفعه اياها حتى اقصى حدودها الممكنة [٤].

كما لم تحل دون ظهور تذبذب في الموقف تجاه هذه القضية لدى ناقد مثل ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) [٥] ،وعلى اية حال ،فقد وضع عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) بنظريته حول النظم حدا لهذه الثنائية ،بنزعه القداسة عن اللفظة في ذاتها واعلائه من شأن مفهوم الدلالة التي لا يمكن تحققها الا في منظومة لغوية كاملة .

* قضية عمود الشعر :

وهي خير قضية يمكن ان تظهر مدى تعمق الصراع بين القديم والمحدث في تراثنا الشعري . والحق ان الفضل في اثارة هذه القضية يعود الى بضعة شعراء استفزوا

---

(١) هذه الدوافع ذكرها الدكتور احسان عباس - تاريخ النقد الادبي : ٩٨ - ٩٩ .

(٢) ابن قتيبة - الشعر والشعراء،ط ١ ،دار احياء العلوم ،بيروت،١٩٨٤ : ٢٤ - ٣٣ . وقد آثرنا استخدام معيار (الجودة والرداءة) اتباعا لرأي الدكتور احسان عباس - تاريخ النقد الادبي : ١٠٨ .

(٣) ابن طباطبا- عيار الشعر ،تحقيق : الحاجري وزغلول سلام ، القاهرة ،١٩٥٦ :١١، ١٢١ .

(٤) ابو هلال العسكري - كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ،حققه وضبط نصه : د. مفيد قمحية ،ط٢ ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٩٨٤ : ٧٢،حيث يقول : (وليس الشأن في ايراد المعاني لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، انما هو في جودة اللفظ وصفائه ،وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه ،وكثرة طلاوته ومائه ،مع صحة السبك والتركيب ،والخلو من اود النظم والتأليف ،وليس يطلب من المعنى الا ان يكون صوابا ،ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته ..) .

(٥) ابن رشيق - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،حققه وفصله وعلق حواشيه : محمد محيي الدين ،ج١ ،ط ٣ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ،١٩٦٣ : ١٢٤ - ١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بجرأتهم النقاد،وحفزوهم الى الجدل . وهؤلاء الشعراء الذين استفزوا نقاد عصرهم لا بل اصبحوا شغلهم الشاغل هم ابو تمام والبحتري والمتنبي وابو العلاء المعري من بعدهما ولكن على نحو اقل .

وتمثل موازنة الآمدي (ت ٣٧٠ هـ) فاتحة محاولات هدفت فيما هدفت الى ايجاد مفهوم لعمود الشعر [١] ،وليس من باب الصدفة ان تأتي هذه الموازنة معقودة لعلمين من الشعراء يصعب على اي دارس لظاهرة الصراع بين القديم والمحدث ان يتجاوزهما الا وهما ابو تمام والبحتري ،اذ هما رمزا هذا الصراع الذي استمر بعدهما طويلا . ورغم ان تحيز صاحب الموازنة كان سافرا الى جانب البحتري رمز القديم ،الا ان الموازنة ابرزت - رغم ذلك- الاتجاه الذي يمثله ابو تمام ابرازا كبيرا . ولا ريب في ان هاجس الانتصار للبحتري ولما يمثله في ذهن الآمدي كان الدافع الرئيس لوضع عمود الشعر [٢]، مما افقد الموازنة الكثير من الروح الموضوعية . وان كان هناك من الدارسين من يرى في بعض ما انطوت عليه الموازنة اهمية خاصة [٣]. غير ان معالجة على قدر كبير من الموضوعية قد توفرت لمفهوم (عمود الشعر) على يد القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ) في كتابه الوساطة ،الذي جاء تمثلا ذكيا لعناصر عمود الشعر كما وردت في الموازنة سلبا ،فكان ان ازال عنها الجرجاني ذلك واوردها

---

(١) الآمدي - الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ،تحقيق : السيد احمد صقر ، ج ١ ،دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ : ٤٩٦/١ .
وقد لخص الآمدي نظريته في عمود الشعر بالقول :(والمطبوعون واهل البلاغة لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني والاغراق في الوصف ،وانما يكون الفضل عندهم في الالمام بالمعاني واخذ العفو فيها كما كانت الاوائل تفعل مع جودة السبك وقرب المأتى) .

(٢) احسان عباس - تاريخ النقد الادبي : ١٦٢ .

(٣) فقد رأى استاذنا الدكتور هاشم ياغي مخايل نظرية في الخلق الادبي عند الآمدي تستقي عناصرها من الثقافة الاسلامية واليونانية ،وتصلح عند التدقيق في ابعادها لان تقوم عليها مفاهيم عصرية في رؤية العمل الفني ونقده استنادا الى قول الآمدي : (... ان صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود وتستحكم الا باربعة اشياء : جودة الالة ،واصابة الغرض المقصود ،وصحة التأليف ،والانتهاء الى نهاية الصنعة من غير نقص عنها ولا زيادة عليها ... ذكرت الاوائل ان كل حادث مصنوع محتاج الى اربعة اشياء : علة هيولانية وهي الاصل ،وعلة صورية ، وعلة فاعلة ،وعلة تما فيه ... الخ) .
انظر ،مجموع دراسات في الادب واللغة : ١٠١ - ١٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالايجاب [١]. ومع ان عبد العزيز الجرجاني لم يألُ جهدا في انصاف المتنبي الا انه لم يبتعد عن تلك المواصفات التقليدية للقصيدة العربية .

وما ان نصل الى المرزوقي في القرن الرابع (ت ٤٢١هـ) حتى نقع على مفهوم لعمود الشعر يكاد يبلغ حد الاكتمال ، اذا استطاع ان يبلور مفهوما شاملا لعمود الشعر يصعب معه اخراج اي شاعر عربي من نطاقه ، لا ابو تمام ولا المتنبي ولا المعري ، بما ان كل واحد من هؤلاء قد توفر له في شعره ولو عنصر واحد من عناصر عمود الشعر [٢] . وقد افاد المرزوقي في كتابة مقدمته الضافية لشرح لحماسة ايما افادة من جهود السابقين له ، الآمدي والجرجاني و قدامة وابن طباطبا ، ووظفها بذكاء في بناء مفهومه لعمود الشعر .

* قضية المنظوم والمنثور :

من بين القضايا النقدية الكثيرة التي اخذ ابو حيان التوحيدي على عاتقه مهمة اثارتها او محاولة الاجابة عنها ، تبرز قضية المنظوم والمنثور [٣] التي حاول جلو ملامح الاختلاف حولها بكل ما انطوت عليه هذه الملامح من ابعاد نقدية وبلاغية وفلسفية .

وتظهر بعض الحجج لتفضيل النثر على النظم او الموازنة بينهما كما اوردها التوحيدي على السنة البعض من النقاد والفلاسفة [٤] ، تلك الافاق الجديدة التي انفتحت امام الدراسات النقدية البلاغية بتأثير الفلسفة اليونانية التي اساسها

---

(١) القاضي الجرجاني - الوساطة بين المتنبي وخصومة ، تحقيق وشرح : محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البخاري ، ط٣ ، دار احياء الكتب العربية ، د. ت : ٣٣ - ٣٤ .
وقد لخص الدكتور احسان عباس نظرية عمود الشعر عند الجرجاني في ستة اركان هي : (شرف المعنى وصحته ، جزالة اللفظ واستقامته ، اصابة الوصف ، المقاربة في التشبيه ، الغزارة في البديهة ، كثرة الامثال السائدة والابيات الشاردة) ، انظر - تاريخ النقد الادبي : ٣٢٢ .

(٢) المرزوقي - شرح ديوان الحماسة ، نشره : احمد امين وعبد السلام هارون ، ج١ ط١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ : ١/٩-١٢ .
وانظر عرضا وافيا لنظرية المرزوقي في عمود الشعر وما زاده على عناصر الجرجاني عند الدكتور احسان عباس - تاريخ النقد الادبي : ٤٠٤ - ٤٠٩ .

(٣) ابو حيان التوحيدي - الامتاع والمؤانسة (الليلة الخامسة والعشرون) : ٢/ ١٣٠ - ١٤٧ .

(٤) المصدر السابق : ١٣٢/٢ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل بين الشعر والخطابة تبعا لمدى انطواء كل منهما على معياري الصدق او الكذب ، او لمدى احتمال كل منهما لان يكون سبيلا للاقناع .

وغير خاف ان منطلقات مشكلة المنظوم والمنثور كما يبرزها التوحيدي ،هي غير منطلقات هذه المشكلة كما بدت لدى المرزوقي (١) فابن رشيق(٢).

اما المرزوقي فقد نقل موقع القضية من حيز المعرفة الى حيز الاخلاق والعقيدة حين اراد ان ينتصر للنثر فاحتج لذلك بان الجاهليين كانوا يعلون من شأن الخطابة وتتسفف ملوكهم عن قول الشعر ،وان الشعراء قد ابتذلوا الشعر حين جعلوه وسيلة لرفع شأن الوضيع وخفض شأن الرفيع ،واخيرا فقد ختم احتجاجه بان ذهب الى ان عدم تنزل القرآن منظوما دليل على شرف النثر ورفعته (٣).

وعندما اراد ابن رشيق ان يرد هذه الحجج منتصرا للنظم ،فقد ظل يحوم في دائرة الاخلاق والعقيدة مستندا الى عادات العرب ونظرتهم للشعر والنثر ..(٤)الخ . وليس لنا ان نعجب من انزلاق ناقدين لامعين مثل المرزوقي وابن رشيق الى هذا المنزلق ،ما دام ان هاجس كل منهما في الانتصار للنثر او النظم هو في المحصلة الاخيرة الانتصار لمكانة الكاتب او الشاعر في المجتمع وايهما اعلى مقاما. وهو هاجس اخلاقي ادى بالضرورة الى تجاهل الخصوصيات الاسلوبية والمعرفية التي يتسم بها كل من النثر والنظم .

* * * * *

يظل من المفيد اخيرا ،تسليط بعض الاضواء على البيئة الادبية والنقدية في الاندلس والمغرب ،هذه البيئة التي لا يتعارض انتماء ابن خلدون اليها بشكل خاص ، مع انتمائه الى بيئته الادبية العربية الاوسع بشكل عام .

ويكاد معظم الدارسين يجمعون على ضعف الحضور الادبي للإندلس بشكل عام ،ومن المرجح ان هذا الحضور قد اتسم بما هو اكثر من مجرد الضعف في المرحلة التي عاش فيها ابن خلدون . ويقول الدكتور شوقي ضيف في هذا الخصوص :(.. لا نبالغ اذا قلنا بان شخصية الاندلس في الادب العربي ليست من القوة كما ينبغي (٥)) اما الدكتور احسان عباس فقد اوجز رايه في حياه النقد الادبي ابان عصر الطوائف والمرابطين بالقول :(.... ان النقد الاندلسي لم يستقل بكيان واضح ،شأنه في ذلك شأن النقد في العصر السابق - يقصد عصر سيادة قرطبة - وان المسؤول عن ضعفه انحياز مؤرخي الادب الى جانب المقامة في اظهار براعتهم الاسلوبية ،وتاثره بالقواعد الاخلاقية والدينية وثورته على الالحاد والفلسفة واللفظة (غير الشعرية) وما يزال هذا النقد يدور حول تعميم الاحكام او معالجة البيت الواحد بل اللفظة

---

(١) المرزوقي : شرح الحماسة : ١٦/١-١٨

(٢) ابن رشيق - العمدة : ١/ ١٩ وما بعدها .

(٣) المرزوقي - شرح الحماسة : ١٧/١ .

(٤) ابن رشيق - العمدة : ١٩/١ وما بعدها .

(٥) شوقي ضيف - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ،ط ٩ ،دار المعارف بمصر: ٤١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الواحدة)[١].

ومن الملامح اللافتة للنظر في الادب الاندلسي ذلك الاتجاه الى تقليد المشرق[٢]، وهو ملمح دفع ببعض الاندلسيين مثل ابن حزم وابن بسام بعده الى ان ينعوا على مواطنيهم هذا الاتجاه وان يقفوا مدافعين عن أصالة المساهمة التي رفدت بها الاندلس التراث العربي[٣] ،كما يلاحظ ايضا تعمق نزعة المحافظة في الادب الاندلسي خاصة بعد قدوم القالي الى الاندلس سنة (٣٣٠هـ) وبعثه الحياة في الاتجاه الادبي القديم الذي كان يترنح امام الاتجاه المحدث، وقد عضد هذا الانبعاث ، الكثير من الدراسات اللغوية والنحوية التي نشطت بفضل الحماسة التي بثتها محاضرات القالي في طلاب العلم من الاندلسيين[٤]. وما ينسحب على الاندلس ينسحب على المغرب ،وربما بصورة أشد ،وهو ما اكده ابن خلدون في غير موضع من مقدمته .

والحق أننا لا نعدم ،مع ذلك ،علامات فارقة في شخصية الاندلس والمغرب العربي الباهتة من الناحية الادبية . ومن ذلك بروز غير ناقد ومؤرخ أدب لامع علاوة على الموشحات التي جاءت بشكل عام ،وعبر تراكمات فنية طويلة ،تعبيرا عن تطور في شكل القصيدة العربية .

ومن هؤلاء النقاد الذين لا بد من الاشارة اليهم لغيرما سبب ،ابن رشيق ،وهو ناقد أثر بقوة في بيئة الاندلس والمغرب الادبية[٥]،ويمثل مرجعا مهما لاراء ابن خلدون الادبية .

أما ابن بسام صاحب الذخيرة ،فهو من أهم مؤرخي الادب الذين يمكن ان يجد لديهم دارس الادب الاندلسي ضالته من الاراء النقدية ،في ظل تبعثر الجهود النقدية في الاندلس[٦]. كما أنه على حد تعبير أحد دارسي الادب الاندلسي البارزين (أكثر النقاد بالاندلس في القرن السادس احتفالا بقواعد النقد وتطبيقها ...(و) من خير مؤرخي الادب الذين كان لهم منهج نقدي واضح المعالم)[٧].

---

(١) احسان عباس - تاريخ الادب الاندلسي . عصر الطوائف والمرابطين ،ط ٥ ،دار الثقافة ،بيروت ،١٩٧٨ : ١٠٦ .

(٢) شوقي ضيف - الفن ومذاهبه : ٤١٦ - ٤١٧ .

(٣) احسان عباس - تاريخ الادب الاندلسي . عصر الطوائف : ٩٨ - ٩٩ .

(٤) المرجع السابق : ١٠٨ .

(٥) انظر حول جهود ابن رشيق النقدية ومدى تأثيره في البيئة الادبية ،احسان عباس - تاريخ النقد الادبي : ٤٤٤ - ٤٥٩ .

(٦) احسان عباس - تاريخ الادب الاندلسي / عصر الطوائف : ٩٣ - ٩٤ .

(٧) احسان عباس - تاريخ النقد الادبي : ٥٠١ ،٥٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما ابن رشد ، الفيلسوف الفذ ،فقد اقدم على شرح "كتاب الشعر" لارسطـــــو ، محاولا ان (يطبق ما يمكن تطبيقه من آراء ارسطو على الشعر العربي)[١] الا ان تأثير هذا الكتاب كان ياهتا فيما يبدو بدليل عدم التفات أكثر الذين تحدثوا عن قضايا الشعر من الاندلسيين في القرن السابع اليه . أو أن البعض اطلع عليه - ومنهـم ابن خلدون على الارجح - ولم يشأ الاشارة اليه لاسباب اشرنا اليها في الفصل الاول من هذه الدراسة . ولم يكن حظ حازم القرطاجني صاحب منهاج البلغاء خيرا من حظ ابن رشد ،على الرغم من انه مثل ملتقى للروافد الثقافية الفرسية واليونانية[٢] ويبدو ان مساهمة هذا الناقد اللامع قد جاءت متأخرة جدا وبدت غريبة في عصر كان فيه التقليد والجمود قد سربل الحياة الادبية تماما . وانه لمن المستغرب حقا ان نجد تأثيرا لابن رشيق القيرواني ،ابن القرن الخامس على آراء ابن خلدون ،ولا نجد تأثيرا في المقابل لحازم القرطاجني الأقرب زمنا ،وشبيهه في موالاة الحفصيين .

ب - بين يدي القضايا الادبية :

قبل ان نعرض للقضايـا الادبيـة الرئيسة فـي المقدمة ،نـود ان نتوقف عنـــد عنوانين أثبتهما ابن خلدون في الفصل الذي عقده للكلام على علوم اللسان العربي ونعني بهما (علم البيان) و (علم الادب)[٣].

والنظرة الفاحصة فيما جاء تحت هذين العنوانين من كلام ،تظهر انه ليس فيـــه كثير غناء للباحث ،اذ طغت عليه سمة التقرير والتأريخ البحت ،ولا نجد فيه تلـك النظرات التي يمكن ان نستشف منها رأيا نقديا خاصا بابن خلدون ،كما أنه لم يخل من أخطاء .

ويرى ابن خلدون ان (البيان) علم حادث في الملة بعد علم النحو وعلم اللغة[٤] وهذا حق ،اذ ما كان للمتكلمين وفي مقدمتهم المعتزلة ان يشرعوا في وضع المقدمات الاولى لهذا البيان لولا تلك الجهود اللغوية والنحوية التي مثلت القاعدة الصلبة لهذا العلم وانطوت في الوقت نفسه على جراثيمه الاولى .

ولما كان هذا العلم مما يحتاج اليه للدلالة على احوال المتخاطبين او الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل بعد كمال الاعراب والابانة ،فهو كمالي في العلوم اللسانية ولذلك فان العناية به لعهد ابن خلدون عند أهل المشرق أكثر من غيرهم ،اذ المشرق اوفر عمرانا من المغرب والصنائع الكمالية توجد في العمران[٥]. ولا تغيب عـــن

---

(١) المرجع السابق : ٥٢١ .
(٢) المرجع السابق : ٥٣٩ وانظر ،جابر عصفور - مفهوم الشعر : ١٣٨ .
(٣) ابن خلدون - المقدمة : ١٢٧٣/٣ - ١٢٧٨ .
(٤) المصدر السابق : ١٢٧٣/٣ .
(٥) المصدر السابق : ١٢٧٣/٣ ، ١٢٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذهن ابن خلدون حقيقة ان ثمة هذا الفن انما هو في فهم الاعجاز من القرآن[١] ؛ وهو ما اضطلع به المتكلمون ايما اضطلاع. ولهذا كان المفسرون احوج ما يكونون الى هذا الفن[٢]، اذ بدونه يغدو من الصعب عليهم التعامل مع النص القرآني تأويلا وتذوقا ،لانه ليس نصا دينيا فحسب بل هو ايضا نص بلاغي معجز . وهكذا فليس في مقدور المفسرين ان يستغنوا في تعاملهم مع النص القرآني عن آي من ذخيرتيهم : العقيدة والبيان .

وفي لفته تظهر انسجامه مع بعض ما نبه اليه في التمهيد لمقدمته ،من ضرورة تحييد الامر المذهبي،فقد نوه بانفراد تفسير جار الله الزمخشري بالفضل على جميع التفاسير ،وفي هذا يقول : (واكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع أي القرآن باحكام هذا الفن بما يبدي البعض من اعجازه ،فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير)[٣]. الا انه يعود مستدركا لينبه الى نهجه الاعتزالي بالقول (لولا انه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ،ولاجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة)[٤].

ويورد ابن خلدون نبذة عن تاريخ علم البيان لم تخل من اخطاء ،بعد ان يفصل القول في اضافه الثلاثة ،فيقول : (ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد اخرى ، وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وامثالهم املاءات غير وافية فيها ، ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا الى ان محض السكاكي زبدته ،وهذب مسائله ورتب ابوابه ...،والف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان ،فجعل هذا الفن من بعض اجزائه [٥] .

وابرز اخطاء ابن خلدون في هذه النبذة اغفاله لشيخ البيان العربي عبد القاهر الجرجاني ،وابرازه للسكاكي (ت ٦٢٦ هـ) على نحو يدعو للتساؤل ، اذ سبق له ان اشار اليه على انه احد مؤسسي علم البيان العربي في الفصل الذي عقده لتبيان المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف والغاء ما سواها[٦]،من جهة ،ولم يتردد في التنويه بالزمخشري المعتزلي ،فلماذا يغفل التنويه بالجرجاني الاشعري الذي يلتقى معه في المذهب ،من جهة ثانية ،؟ .

ان الاجابة على هذا التساؤل - ان كان لا بد من اجابة - تتمثل في ترجيحنا عدم اطلاع ابن خلدون مباشرة على جهود الجرجاني ،ومعرفته بهذه الجهود من خلال السكاكي ،مما دفعه الى الظن بان جهود الجرجاني لا تختلف عن جهود بعض من ذكرهم كالجاحظ وقدامة .

ولا شك في ان اقتصار ثقافته البيانية على جهود السكاكي الذي متح منه جل

---

(١) المصدر السابق : ١٢٧٦/٣ .
(٢) المصدر السابق ١٢٧٦/٣ .
(٣) المصدر السابق : ١٢٧٦/٣ .
(٤) المصدر السابق : ١٢٧٦/٣ .
(٥) المصدر السابق : ١٢٧٥/٣ .
(٦) المصدر السابق: ١٢٣٩/٣. وانظر تعليق المحقق ص ١٢٧٥ ،هامش ١٧٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ارائه كما يصرّح هو بذلك [١]،جعله يظن ان السكاكي هو واضع علم البيان ،وغيّب عنه الدور الهام الذي اضطلع به الجرجاني في تأسيس البيان العربي ،كما غيب عنة ملاحظة الاثر المختلف حوله بين الباحثين المعاصرين ،الذي خلّفه السكاكي على مباحث البيان العربي [٢].

وعلى اية حال فليس لنا ان نطالبه بادراك كنه هذا الاثر ،وقد غاب عنه اصلا الاثر الذي خلفه الجرجاني . هذا،ومن غير المستبعد ان عدم اطلاعه على جهود الجرجاني قد ادى به الى التورط في ثنائية اللفظ المعنى والانحياز الى جانب اللفظ ،كما سوف نلاحظ لاحقا .

واذا نحن التفتنا الى ما جاء تحت عنوان علم الادب ،لم نجد ما يمكن ان يمثل قضية ادبية كبرى يمكن ادارة الكلام من حولها كثيرا .

اذ لا يأتينا ابن خلدون بجديد عندما يعرف علم الادب بالقول (هذا العلم لا

---

(١)حيث يقول (.. الى ان محض السكاكي زبدته ،وهذب مسائله ،ورتب ابوابه على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب) : ١٢٧٥/٣ .

(٢) فقد ذهب الدكتور شوقي ضيف الى القول :(.. تحولت البلاغة في تلخيصه الى علم بأدق المعاني لكلمة علم ،فهي قوانين وقواعد تخلو من كل ما يمتع النفس اذا سلط عليها المنطق باصوله ومناهجه الحادة ،حتى في لفظها واسلوبها الذي لا يحوي اي جمال ،وما للجمال والسكاكي ؟ انه بصدد وضع قواعد وقوانين كقوانين النحو وقواعده ،وهي قواعد وقوانين تسبك في قوالب منطقية جافّة اشد ما يكون الجفاف) .

انظر كتابه : البلاغة تطور وتاريخ ،دار المعارف بمصر ،١٩٦٥ : ٢٨٨ وما بعدها.

وذهب الدكتور محمد عابد الجابري الى القول :(هناك من الباحثين العرب المعاصرين من يلوم السكاكي على كونه مزج الحديث عن البيان وهو فرع من فروع علم البلاغة بالحديث عن الاستدلال وهو احد اقسام علم المنطق . ونحن لا نرى ما يبرر هذه المؤاخذه ،اللهم الا اذا كان المرء يصدر عن تصور يقيم فاصلا بين الخطاب المنطقي والخطاب البلاغي كما هو الشأن عند ارسطو ..... ونحن نعتقد انه اذا كان السكاكي او غيره من البلاغيين المتأخرين قد قرأوا اساليب البيان العربي قراءة منطقية فلانهم اكتشفوا طابعها المنطقي وليس لانهم كانو يقحمون المنطق في غير ميدانه .

انظر كتابه ،تكوين العقل العربي : ١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موضوع له ينظر في اثبات عوارضه او نفيها)[١] او عندما يفصل بعض نواحيه بالقول :(فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة : من شعر عالي الطبقة ،وسجع متساو في الاجادة ،ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة اثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية ،مع ذكر بعض من ايام العرب يفهم به ما يقع في اشعارهم منها ،وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة)[٢].

فالثابت ان هذا ما اصطلح عليه العرب ونقادهم القدامى ،وهو ما يقابل في اصطلاحنا الحديث لفظ (الثقافة) ،مع ملاحظة ان كلمة (الادب او الاديب)[٣] قديما، كانت تنطوي على معنى اخلاقي ،هو الغاية التي كانوا يرنون اليها من خلال الالمام بايام العرب وانسابهم واشعارهم ومفاخرهم ... الخ ،اذ ان فضائل العرب كانت تتمثل في هذه جميعا ،وهو مالا نظن ان الذهن يذهب اليه في ايامنا هذه عندما نطلق كلمة (ثقافة او مثقف) لانها غدت ذات دلالة معرفية بحتة منفصلة عن الدلالة الاخلاقية .

ولكن ابن خلدون يقفنا على حقيقة ذات مغزى ثقافي هام في القرن الثامن الهجري عندما يقول : (وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم ان اصول هذا الفن واركانه اربعة دواوين وهي : ادب الكاتب لابن قتيبة ،وكتاب الكامل للمبرد ،و كتاب البيان والتبين للجاحظ ،وكتاب النوادر لابي علي القالي البغدادي . وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها)[٤] .

ان هذه العبارة التي كثر تداولها بين الباحثين المعاصرين ،تشير بقوة الى المزيج الثقافي الذي كان سائدا في العالم العربي الاسلامي ،وهو مزيج مشرقي كما هو ظاهر ،فكل الكتب التي اوردها ابن خلدون ترتد لادباء ونقاد مشارقة ، ولا نستثني منهم القالي ،اذ حتى ابن خلدون نفسه اكد انه بغدادي . وبطبيعة الحال فان هذه الحقيقة هي خير ما يصور لنا المزيج الثقافي لابن خلدون ايضا ،

---

(١) ابن خلدون - المقدمة : ١٢٧٧/٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٧٧/٣ .

(٣) عرض الدكتور شوقي ضيف لمعنى كلمة ادب والتطورات التي طرأت على هذا المعنى عرضا وافيا ،في كتابه : العصر الجاهلي ،ضمن سلسلة تاريخ الادب العربي ،ط٨، دار المعارف ،القاهرة : ٧ - ١٠ .

(٤) ابن خلدون - المقدمة : ١٢٧٧/٣ - ١٢٧٨ .
ويلاحظ ان هذه الكتب اضافة الى كون كل واحد منها موسوعة في حد ذاته فانها تمثل مجتمعة دائرة معارف شاملة حقا لاداب اللغة العربية . فمن ملاحظات بلاغية وبيانية هامة نلقاها في البيان والتبين للجاحظ ،الى ثروة لغوية ونحوية في الكامل للمبرد . ومن مسائل ادبية واسلوبية لدى ابن قتيبة الى نصوص شعرية بالغة القيمة في نوادر القالي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فما كان له ان يشذ كثيرا عن هذا المزاج العام في اتجاهاته الادبية .

جـ. قضية النظم والنثر:

يميز ابن خلدون بوضوح بين فنين هما جماع لسان العرب : الشعر المنظوم ،وهو الكلام الموزون المقفى . والنثر وهو الكلام غير الموزون(١).

وقد يبدو لاول وهلة ، ان ابن خلدون يجعل من الوزن فيصلا بين المنظوم والمنثور وهذا حق اذا نحن اكتفينا بقراءة تمييزه الآنف ،الا ان قراءة اوسع في كلام ابن خلدون تقودنا الى ملاحظة عدم اكتفائه بالوزن فيصلا بين المنظوم والمنثور ، بل هو يجعل من الاساليب فيصلا قد يكون اكثر اهمية من الوزن . ويتحدث ابن خلدون عن اغراض الشعر واغراض النثر ،فيذكر المديح والهجاء والرثاء من اغراض الشعر ويذكر الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبه من اغراض النثر(٢) . ويلتفت الى القرآن الكريم فينبه على انه خارج الوصفين ،وان كان من المنثور المفصل بآيات تنتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها(٣). ويزيد ايضاح الفاصل بين المنظوم والمنثور بالقول : (واعلم ان لكل واحد من هذه الفنون اساليب تختص به عند اهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه ،مثل النسيب المختص بالشعر ،والحمد والدعاء المختص بالخطب ،والدعاء المختص بالمخاطبات وامثال ذلك . وقد استعمل المتأخرون اساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفيه وتقديم النسيب بين يدي الاغراض ،وصار هذا المنثور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن)(٤).

وينكر على المتأخرين من الكتاب الذين خلطوا بين هذين الفنين واستمرأوا استعمال اساليب الشعر في المخاطبات السلطانية ،وابتعدوا عن الترسيل ،منبها الى ان هذا الخلط مما يخل بالبلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من احوال المخاطِب والمخاطَب(٥). والمخاطبات السلطانية - كما يرى - ينبغي ان تتنزه عن اساليب الشعر (اذ اساليب الشعر تستدعي اللوذعية وخلط الجد بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات والتزام التقفية ،وهي امور كلها لا تناسب جلال الملك والسلطان ،وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه . كما يرى ان المحمود في المخاطبات السلطانية هو الترسل باطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر ،وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ،ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ،فان المقامات مختلفة ،ولكل مقام اسلوب يخصه

---

(١) ابن خلدون - المقدمة : ١٢٩٥/٣.
(٢) المصدر السابق : ١٢٩٥/٣ .
(٣) المصدر السابق : ١٢٩٦/٣ .
(٤) المصدر السابق : ١٢٩٦/٣ .
(٥) المصدر السابق : ١٢٩٧/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من اطناب او ايجاز او حذف او اثبات او تصريح او اشارة وكناية واستعارة. ويفسر اتجاه أهل العصر الى خلط ترسيلهم باساليب الشعر باستيلاء العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ،فكان ان عجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوبه ،وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام ... ويجيّرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب البديعية ويففلون عما سوى ذلك)[١].

ويلاحظ ابن خلدون ان اكثر من نحا هذا النحو وبالغ فيه ،كتاب المشرق وشعراؤه ،حتى انهم ليخلّون بالاعراب في الكلمات والتصريف اذا دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان معها، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس[٢].

والحق ان ثورة ابن خلدون على استخدام اساليب الشعر في النثر ،ليست أقل من ثورته على تفشي البديع في فنون الكلام بوجه عام . اذ ان المبالغة في طلب البديع هو قرين التصنع عنده ،على حين ان الاقتصاد في طلبه هو قرين الطبع والسجية. ولعل الفصل الذي عقده لتبيان المطبوع من الكلام والمصنوع وكيفية جودة المصنوع وقصوره[٣]،يظهر ذلك الى حد بعيد .

فالكلام المطبوع عنده هو الذي كملت طبيعته وسجيته ،من افادة مدلوله المقصود منه ،لانه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط ،بل المتكلم يقصد به ان يفيد سامعه ما في ضميره افادة تامة ويدل به عليه دلالة وثيقة[٤]. وقد يطعم هذا المطبوع بضروب من الصنعة والتزيين بعد كمال الافادة ،من تنميق الاسجاع ،او الموازنة بين جمل الكلام وتقسيمه بالاقسام المختلفة الاحكام، او التورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه ،او المطابقة بين المتضادات بغية ايقاع التجانس بين الالفاظ والمعاني فيحصل للكلام رونق ولذة في الاسماع ، وحلاوة وجمال . الا ان هذه المحسنات تظل مع ذلك (كلها زائدة على الافادة)[٥] .

وهو لا ينكر وقوع ضروب من الصنعة البديعية في كلام بعض الجاهليين من دون قصد ولا تعمد[٦]،أو وقوع ضروب من هذه الصنعة في مواضع متعددة من القرآن الكريم[٧]، الا انه يلاحظ ان الاسلاميين بدءا ببشار بن برد مرورا بأبي تمام وانتهاء بابن المعتز الذي ختم على البديع والصناعة اجمع ،قد وقع لهم ضروب من ذلك عفوا وقصدا وأتوا منه بالعجائب[٨].

---

(١) المرجع السابق : ١٢٩٧/٣ .
(٢) المصدر السابق : ٣ ١٢٩٨ .
(٣) المصدر السابق : ١٣١٧/٣ - ١٣٢١ .
(٤) المصدر السابق : ١٣١٨/٣ .
(٥) المصدر السابق : ١٣١٨/٣ .
(٦) المصدر السابق : ١٣١٩/٣ .
(٧) اورد منها ابن خلدون أمثلة عديدة ،وقد عيّن المحقق المحسّن البديعي في كل منها ،انظر : ١٣١٩ وهوامشها .
(٨) المصدر السابق : ١٣١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويورد ابن خلدون مثالا للمطبوع الخالي من الصنعة قول قيس بن ذريح :

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس في السر خاليا

ثم قول كثير :

واني وتهيامي بعزة بعدما تخليت عما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

ويعقب عليه بالقول : (فتأمل هذا المطبوع الفقيد الصنعة في إحكام تأليفه وثقافة تركيبه . فلو جاءت فيه الصنعة من بعد هذا الاصل زادته حسنا)[١]. ومن هذا يتضح ان ابن خلدون لا يقف من البديع موقف الانكار ،ولكنه ينكر المبالغة في طلبه او تكلفه ،والاهم من ذلك انه يراه مما يأتي زائدا في الكلام ،ولذلك فهو ليس داخلا في البلاغة ،اتباعا لرأي المتقدمين الذين اخرجوه عن البلاغة وعدوه في الفنون الادبية التي لا موضوع لها[٢]. وان كان ذلك لا يلغي ان للبديع شروطا ينقلها ابن خلدون عن ابن رشيق وغيره ،ويوجب على الناظم والناثر مراعاتها[٣].

و (الحاكم)[٤] في حسن استعمال البديع او سوء استعماله ،هو الذوق الذي اهتم كثيرا بتفسير فعقد له فصلا خاصا به[٥]. يقول ابن خلدون : (فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على اساليب العرب وانحاء مخاطباتهم ،وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده . فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه ،وسهل عليه أمر التركيب ،حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب . وان سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعة بأدنى فكر . وبغير فكر الا بما استفاده من حصول هذه الملكة ...وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه ،وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها اهل صناعة اللسان ... ولورام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه ... واذا عرض عليه الكلام حائدا عن اسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم اعرض عنه ومجه وعلم انه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ،وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية فان ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء ،وهذا امر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم)[٦].

---

(١) المصدر السابق : ١٣٢٠/٣ .
(٢) المصدر السابق : ١٣٢٠ .
(٣) المصدر السابق : ١٣٢٠ .
(٤) هذا لفظ ابن خلدون نفسه جاء في موضعين ،انظر : ١٣١٦/٣ ،١٣٢١ .
(٥) المصدر السابق : ١٢٨٩/٣ - ١٢٩٢ . (٦) المصدر السابق : ١٢٨٩/٣ - ١٢٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونستخلص من كلام ابن خلدون على الذوق قاعدتين :

الاولى : ان حصول ملكة الذوق منوط بالحفظ بالتدرب وهو ما اعاد الحديث فيه مرارا وتكرارا .

ثانيا : ان حصول ملكة الذوق ينتج احساسا صادقا باللسان،ولا ينتج بالضرورة علما باللسان .

وتستدعي هاتان القاعدتان الى اذهاننا تلك القاعدة التي قررها حامل لواء (سنة العرب) الآمدي ،بدعوته الى اعتماد (عمود الذوق)[١] الى جانب عمود الشعر، ومن الطبيعي ان يلجأ ابن خلدون الى مفهوم الذوق لانه يعضد زعمه بامكانية حصول الملكة دونما تمرس بالقوانين العلمية ،أي القواعد النقدية ،اعتمادا على الحفظ فحسب . الا ان المبالغة في الاحتكام الى مفهوم الذوق ،لا يفضي فيما نرى الا الى الكثير من الفوضى في الاحكام النقدية القائمة على الانطباع الذاتي والمزاج الشخصي ،وهو ما لم يسلم منه ابن خلدون عندما عرض لبلاغة الجاهليين والاسلاميين .

فعلى حين انه ذهب الى (ان القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة ،لما ان البشر مصروفون عن الاتيان بمثله)[٢] وهو يغلق الباب بطبيعة الحال في وجه القائلين بامكانية نشوء الملكة او الذوق عن القرآن الكريم ،اذا به يقرر في موضع اخر ان (مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه اعلى مقاما ... لانهم فرسان الكلام وجهابذته ،والذوق عندهم موجود باوفر ما يكون واصحه)[٣] ،ثم يؤكد ذلك في موضع ثالث بالقول (... ان كلام الاسلاميين من العرب اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهلية ومنظومهم ،فاننا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن ابي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الذمة والاحوص وبشار ،ثم كلام السلف من العرب في الدولة الاموية وصدرا من الدولة العباسية ،في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك ،ارفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ،ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم . والسبب في ذلك ان هؤلاء الذين ادركو الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثليهما .. الخ)[٤] .

ولا يحتاج الباحث الى كثير عناء ليظهر خطل هذه الاحكام وتناقضاتها . اذ كيف يستقيم لنا القول بضرورة الاحتكام الى (اساليب العرب) في انشاء النثر والنظم اذا نحن انتقصنا من بلاغة اهم مرحلة تاريخية نضجت فيها هذه الاساليب؟

---

(١) انظر ،الآمدي ـ الموازنة : ١: ١٩٩ ـ ٢٠٠ .
احسان عباس ـ تاريخ النقد الادبي : ١٦٦ .
(٢) ابن خلدون ـ المقدمة : ١٢٥١/٣ .
(٣) المصدر السابق : ١٢٧٦/٣ .
(٤) المصدر السابق : ١٢١٥/٣ ـ ١٢١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونعنى بها المرحلة (الجاهلية) . وكيف يستقيم لنا القول بان الاجيال في الامصار خاصة كلما بعد عهدها باللسان العربي قلت ملكاتها - وهو ما اكده ابن خلدون مرارا - والقول بان جريرا والفرزدق وبشار - وهم من شعراء الامصار أرفع بلاغة من شعراء الجاهلية ؟ لا بل من هو ذلك الناقد الذي يملك الزعم بان شعر حسان بن ثابت في الاسلام اعلى طبقة منه في الجاهلية ؟

هذه بعض التساؤلات التي يمكن ان تظهر التناقضات الداخلية في احكام ابن خلدون ،هذه الاحكام المتناقضة التي اداه اسرافه في الاحتكام لمقولة الذوق وحده الى الوقوع فيها ،من جهة ،والى التناقض مع مفاهيم اكدها مرارا ،من جهة اخرى .

ولو انه كان اقل احتكاما الى مقولة الذوق وحده لكان اكثر انسجاما مع مقولاته ،فمقولة الذوق فضفاضة تحتمل الكثير من التوجيهات الخاطئة والتأويلات المزاجية ،ولانها كذلك فقد قرر ابن خلدون ان القرآن الكريم لا تنشاء عنه ملكة او بلاغة او ذوق عندما اراد ان يفسر تفوق الاندلسيين الذين كان محفوظهم من اشعار العرب واداابها وافرا ،على اهل المغرب الذين اقتصروا في محفوظهم على القرآن والحديث [1] . وقرر العكس من ذلك عندما اراد ان يفسر تفوق ذوق الاسلاميين على ذوق الجاهليين كما يزعم هو . مع ان تقرير الاختلاف بين بلاغة الاسلاميين وبلاغة الجاهليين امر يحكمه في المقام الاول النظرة النسبية التي ترى الى الفارق في الدرجة وليس الى الفارق في النوع . وعليه فان القول بان شعر الاسلاميين - وليس شعر حسان منه على اية حال - جاء ارق حاشية واكثر سلاسة وامعن في الحضارة ،من اشعار الجاهليين الموغلة في البداوة ،يظل اكثر انصافا للفريقين .

د . قضية اللفظ والمعنى :

من اللافت للنظر ان يظل مفكر واديب مثل ابن خلدون متمسكا باحجية اللفظ و المعنى ،وما يدعونا الى الاستغراب ثلاثة امور :

اولا : ان هذه الثنائية المفتعلة قد وجدت معالجة معقولة على يد ابن قتيبة عندما ساوى بينهما ،وعلى يد ابن طباطبا عندما ماهى بينهما .

ثانيا : ان هذه الثنائية قد الغيت نهائيا ،على يد عبد القاهر الجرجاني عندما وضع نظرية النظم .

ثالثا : ان ابن خلدون يبدو ممن يعتقدون بقول النظام في الصّرفة ،ومن ثم فهو ليس مضطرا للانتصار للفظ كالجاحظ الذي ربما كان قد رفض قول استاذه النظام وآثر ان ينتصر للفظ على المعنى ،لكي يتسنى له اثبات وقوع الاعجاز في اسلوب القرآن .

يقول ابن خلدون :(اعلم ان صناعة الكلام نظما ونثرا انما هي في الالفاظ لا في المعنى ،وانما المعاني تبع لها ،وهي اصل . فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر انما يحاولها في الالفاظ بحفظ امثالها من كلام العرب ،

---

(١) ابن خلدون - المقدمة ١٢٥١/٣ ، ١٢٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليكثر استعماله وجريه على لسانه ،حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ،ويتخلص من العجمة التي تربى عليها في جيله ،ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم)[١] ثم يضيف راميا عن قوس الجاحظ: (والذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ ، وأما المعاني فهي في الضمائر . وأيضا فالمعاني موجوده عند كل واحد وفي طلوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ،فلا تحتاج الى صناعة، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه . وهو بمثابة القوالب للمعاني)[٢].

ويمثل على كلامه هذا بالقول : (فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ،والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء ، كذلك جودة اللفظ وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد ،والمعاني واحدة في نفسها . وانما الجاهل بتأليف الكلام واساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده، ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه بفقدان القدرة عليه)[٣]

ومما يدهش له المرء ان ابن خلدون اكد غير مرة ان (ملكات اللسان للعبارة عن المعاني لا تكون بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب)[٤]. وهذا رأي لا يقول به مفكر او ناقد لديه أي استعداد للانحياز الى اللفظ او المعنى . بل هو رأي يقترب من نظرية النظم التي قال بها الجرجاني . وحيث سبق ان رجحنا الظن بان ابن خلدون لم يطلع على جهود الجرجاني ،فاننا نرى لزاما علينا اقتراح تفسير لهذا الانحياز الى جانب اللفظ .

ونميل بحذر الى القول بان احد الدوافع التي حدت بمفكر كبير مثل الجاحظ[٥] ربما يكون هو عين الدافع الذي حدا بابن خلدون الى الانتصار للفظ على المعنى ونعني بهذا الدافع (الثقافة الموسوعية) التي تهيأت للاثنين بحيث انهما لم يترددا في اقتحام أي موضوع مهما كان شائكا ،فكان ان مثل التفكير بالالفاظ الهاجس الاكبر لديهما ،كي يتسنى لهما ايصال افكارهما للجمهور.

---

(١) المصدر السابق : ١٣١٢/٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٣١٢/٣ .

(٣) المصدر السابق : ١٣١٢/٣ - ١٣١٣ .

(٤) المصدر السابق : ١٢٧٨/٣ .

(٥) انظر ،احسان عباس - تاريخ النقد الادبي : ٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـ - قضية الشعـــر :

يستهل ابن خلدون حديثه عن الشعر بكلام لا يخرج عن دائرة المواصفات التـــي تواضع عليها النقاد القدماء ،من جنس الكلام على حسن التخلص وكيفية الاستطـراد من فن الى فن[١]، او تأكيد ضرورة مراعاة الوزن (حذرا من ان يتساهل الطبع في الخروج من وزن الى وزن يقاربه) وفق شروط واحكام تضمنها علم العروض ، او صعوبة هذا الفن وشرف رتبته عند العرب .

غير ان ما يستوقفنا في كلام ابن خلدون على فن الشعر ،امران :
اما الاول فهو ما ورد في مفتتح كلامه وما عاد لتأكيده بعد ذلك بالقول : (والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة مـــن المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده ،ويصلح ان ينفرد دون ما سواه فيحتاج من أجل ذلك الى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكـــلام الشعري في قوالبه التي عرفته له في ذلك المنحى من شعر العرب ،ويبرزه مستقـــلا بنفسه ،ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة، ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكا للقرائح في استجادة اساليبه وشحذ الافكار في تنزيل الكلام في قوالبه . ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربـــي على الاطلاق ،بل يحتاج بخصوصه الى تلطف ومحاولة في رعاية الاساليب التـــي اختصته العرب بها واستعمالها).[٢].

وعلى ما ورد في هذا الكلام من اهتمام بالتصنيع وهو ما سوف نشير اليه لاحقا، فان ما نود التنبيه اليه ههنا ،أهمية (وحدة البيت) ضمن (وحدة القصيدة) فـي نظر ابن خلدون للشعر.

اما الثاني فهو مفهوم (الاسلوب) ،وهو اكثر ما يشد اهتمام الباحث للتوقف عنده . يقول ابن خلدون : (ولنذكر هنا سلوك الاسلوب عند أهل هذه الصناعة ومـا يريدون بها في اطلاقهم . فاعلم انها عبارة عن المنوال الذي يسج فيه التراكيب او القالب الذي يفرغ فيه)[٣]،ثم هو ينبه على ثلاثة اشياء قد يظن البعض انهـا مما يرجع اليه في بناء هذا القالب ولكنها ليست كذلك[٤]:

اولا : لا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب .

---

(١) المصدر : ٣/١٣١٢ - ١٣١٣ .
(٢) المصدر السابق : ٣/١٣٠٠ .
(٣) المصدر السابق : ٣/١٣٠٠ .
(٤) المصدر السابق : ٣/١٣٠٠ - ١٣٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : لا يرجع الى الكلام باعتبار افادته كمال المعنى الذي هو وظيفة البلاغة والبيان .

ثالثا : لا يرجع الى الكلام باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي وظيفته العروض .

فاذا كانت هذه الاشياء الثلاثة ،ليست مما يرجع اليه ،فما هو اذن الشيء المعول عليه في امتلاك هذا القالب ؟ يجيب ابن خلدون : (انما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعها الذهن من اعيان التراكيب واشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب او المنوال ،ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب او النساج في المنوال ،حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ،ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه)[١].

حقا ،ان ما يقوله ابن خلدون هنا مشكل على الفهم ،اذ من ذا الذي يستطيع الجزم بمعرفة المعنى الحقيقي الذي رمى اليه بقوله : (التراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ...الخ) ؟.

ولكننا في ضوء اعتقاد ابن خلدون بان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني[٢] لنا ان نقترح تفسيرا لكلام ابن خلدون ،بالقول انه يفترض في الشاعر مسبقا القدرة على استحضار حالة في ذهنه تمثل صورة او سيالا شعوريا ،غير ان الشاعر ليس حرا في صوغ تفاصيلها ،لانه متقيد بتفاصيل محدودة، ولكي يتسنى له ذلك فهو مطالب باستقراء ذلك الموروث الهائل من الشعر العربي الجاهلي_على وجه الخصوص_ بغية تمثل التفاصيل الرئيسة للصورة التي يعود التعبير عنها . ثم هو بعد ذلك ليس عليه الا ان يختار الالفاظ المناسبة ،وفي هذه المرحلة فقط فهو مطالب بمراعاة قوانين الاعراب والبيان .

وللتمثيل عمليا لهذا الفهم ،فلنفترض شاعرا ما يرغب في التعبير عن حالة الالمام بالمكان القفر الذي هجرته الحبيبة . ان الشاعر هنا وقد اختار موقفا محددا مخيرا في ملء الصورة التي سيعبر بها ،بأي من التفاصيل التي يمكن ان تقدمها هذه النماذج الجاهزة ،ولكنه ليس مخيرا في تجاوزها . ففي مقدوره ان يتوجه للمكان بالخطاب على طريقة النابغة الذبياني :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الامد

---

(١) ابن خلدون ـ المقدمة : ١٣٠١/٣ .

(٢) على افتراض ان الصورة الذهنية هي المعنى وان التراكيب هي الالفاظ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي مقدوره ان يتوجه للمكان بالطلب من الاصحاب الوقوف والسؤال على طريقة دعبل الخزاعي :

قفا نسأل الدار التي خف أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات

وفي مقدوره ان يتوجه للمكان بالطلب من الاصحاب الوقوف والبكاء على طريقة امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

الخ ... المهم في الامر ، اذن، ان لا يتجاوز الشاعر في اختياره التفاصيل التي تقدمها نماذج جاهزة مثل ابيات النابغة ودعبل وامرىء القيس(١).

ومن البديهي القول ان مثل هذا الفهم - ان هو صح - للشعرية كما يراها ابن خلدون ،يملي على الشاعر ان يكون ممتلكا لذاكرة شعرية مكتوبة او محفوظة ، ولمجموعة من النماذج او القوالب التي تعبر عن انفعالاته ،ويظهر انشدادا لدى ابن خلدون لمرسوم خاصة في الشعر يشبه انشداد ابن طباطبا لسنة عربية في الشعر(٢). ولكنه انشداد لا يرتب الغاء تاما لخصوصية تجربة الشاعر،لان الشاعر قدر ما هو محتاج الى ذاكرة شعرية تصقل تجربته فهو غير مستغن بالقدر نفسه عند ذاكرته الخاصة . وهو ما سوف نلحظه في الشرط الثاني من شروط عمل الشعر كما يراها ابن خلدون .

ويستأنف كلامه على كيفية عمل الشعر،بعد ان عرض بالكلام على حد الشعر ، فيقرر ان لعمل الشعر واحكامه صنعته شروطا اهمها(٣):

اولا : حفظ المختار من شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ، كشعر الفحول الاسلاميين مثل ابن ابي ربيعة وكثير وذي الرمة وجرير وابي نواس وحبيب والبحتري والرضي وابي فراس .

ثانيا : الاقبال على النظم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال ،وتحبيذ نسيان المحفوظ حتى تنمحي رسومه الحرفية الظاهرة خشية اعادة استعمالها ،ولا يبقى في النفس حينئذ الا المنوال الذي ينسج عليه .

ثالثا : لا بد من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذلك المسموع لتنشيط القريحة ، اضافة الى الراحة التامة ،وخير الاوقات لذلك هو بعد الاستيقاظ من النوم وفراغ المعدة وصفاء الذهن . فاذا توفر العشق كان ذلك اكثر دفعا الى تنشيط القريحة ،فان استصعب على الشاعر بعد ذلك كله قول الشعر فليتركه الى وقت اخر ولا يكره نفسه عليه .

---

(١) هذه النماذج الشعرية اوردها ابن خلدون . انظر المقدمة : ١٣٠١/٣ .

(٢) ابن طباطبا - عيار الشعر : ١٠ - ١٢ - ١٢ ، ٣٢ - ٤٠ .
احسان عباس - تاريخ النقد : ١٣٤ .
جابر عصفور - مفهوم الشعر : ٣٥ .

(٣) ابن خلدون - المقدمة : ١٣٠٦/٣ - ١٣٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعا : مراعاة تحديد القافية قبل بناء البيت ، ومن ثم يبنى عليها الكلام الى آخره ، اذ ان عدم مراعاة تحديد القافية يجعل من الصعب وضعها في محلها ولذلك فقد تأتي نافرة قلقة . فاذا تم الانتهاء من البيت ولم يعبر عما يجيش في نفس الشاعر ، فليتركه الى موضعه الاليق به من القصيدة ، فان كل بيت مستقلل بنفسه . ثم ما عليه الا ان يختار الغرض الذي يؤلف فيه قصيدته .

خامسا : مراجعة الشعر بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ، ويجب على الشاعر ان لا يتردد في اطراح شعره اذا لم يبلغ فيه الاجادة .

سادسا : اخيرا ، من الضرورة بمكان مراعاة ما يلي :

أ - استعمال الفصيح من التراكيب واجتناب المولّد وما يقع تحت الضرورة الشعرية . فانها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة .

ب - اجتناب المعقد من التراكيب قدر الامكان ، وعدم حشد المعاني في البيت الواحد ، اذ ان خير الكلام ما كانت الفاظه تطابق معانيه او معانية تسابق الفاظه .

ج - اجتناب الحوشي من الالفاظ والمقعر والسوقي المبتذل بالتداول ، فانه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة . فيصير مبتذلا ويقرب من عدم الافادة .

هذه شروط عمل الشعر واحكام صنعته عند ابن خلدون ، اما الشرطان : الاول والثاني فهما مما تردد عند كثير من نقاد العرب وما اكده ابن خلدون في غير موضع ، اذ ان الحفوظ الجيد لدى ابن خلدون هو المعول عليه في امتلاك ملكة اللسان او ملكة البلاغة ، واما الشرط الثالث فهو بعض ما افاده ابن خلدون من كتاب العمدة لابن رشيق [١] ، وهو من الامور النسبية التي تتفاوت من شاعر الى شاعر ، ولذلك يصعب القطع فيها . واما الرابع فهو تأكيد ما قررناه سابقا من ان ابن خلدون يجعل من وحدة البيت أساسا مهماً لبناء القصيدة [٢] .

---

(١) ابن رشيق - العمدة : ٢٠٨/١ .

(٢) ذهب الدكتور احسان عباس الى القول بصدد تصور ابن خلدون لطريقة النظم : (بعد ان يرتاض المرء في حفظ الشعر ، ترسخ في ذهنه قوالب معينة ، فاذا اراد ان ينظم قصيدة فما عليه الا ان يستحضر القالب في نفسه ، ثم ان يملاه بالقوالب الصغيرة او التراكيب) ، تاريخ النقد الادبي : ٦٢٣ .
ويظهر من هذا القول ان الدكتور احسان عباس ، يرى ان ابن خلدون عنى بالقالب (القصيدة) وهو رأي يمكن ان يكون صحيحا في حدود مستهل كلام ابن خلدون على الاسلوب ص (١٣٠١) ولكن مقارنة هذا الكلام بعبارات وردت في مواضع اخرى ، اشرنا اليها ، يدفعنا الى الاعتقاد بانه يعني بالقالب (البيت الشعري) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على حين اننا نلمح لديه في ضوء الشرط الخامس ميلا الى التصنيع الذي يختلف بطبيعة الحال عن التصنع . واما الشرط السادس فهو ما قد يمثل تحويرا لبعض عناصر عمود الشعر كما ترددت لدى الآمدي والجرجاني والمرزوقي من حيث شرف المعنى وصحته ،وجزالة اللفظ واستقامته ،والبعد عن التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام وتكلف المعاني ..... الخ .

ونخلص من هذا العرض لكلام ابن خلدون على (الشعرية) لنعرض لكلامه على حد الشعر . وهو يسارع الى رفض قول العروضيين في حد الشعر من حيث انه الكلام الموزون المقفى [١] ،لانهم يحكمون في نظرتهم للشعر قوانين مثل الاعراب والبلاغة والوزن. ويبادر الى اقتراح حد لم يقف عليه لاحد من المتقدمين [٢].

يقول ابن خلدون : (الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والاوصاف ، المفصل باجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على اساليب العرب المخصوصة به) [٣].

ويزيد هذا الحد ايضاحا على طريقة المناطقة كما يلي [٤] :

١. فقولنا الكلام البليغ جنس ،وقولنا المبني على الاستعارة والاوصاف فصل (للشعر) عما يخلو من هذه ،فانه في الغالب ليس بشعر .
٢. وقولنا المفصل باجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل .
٣. وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة لان ابياته لا تكون الا كذلك ،ولم يفصل به شئ .
٤. وقولنا الجاري على الاساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجر منه على اساليب العرب المعروفة ،فانه حينئذ لا يكون شعرا انما هو كلام منظوم .

ولنا ان نستخلص من هذه التحديدات للشعر ، النتائج التالية :

اولا : ان الشعر من بين الفنون جنس كلامي مستقل بذاته ،مشترك في صفة البلاغية مع اجناس كلامية اخرى .

ثانيا : ان الشعر مستقل بذاته عن غيره من الفنون بقيامه على الاستعارة والاوصاف وفي هذا فصل أولي له من جهتين :

أ - من جهة ان بعض الشعر يخلو من الاستعارة والاوصاف ولكن البعض قد يعتبره شعرا .

ب - من جهة ان الاستعارة والاوصاف هي الصق بطبيعة النظم ،وقد تقع في النثر ، وان وقعت في الاخير ،فليس في وقوعها ما يدعو الى اعتباره شعرا .

---

(١) ابن خلدون - المقدمة : ١٣٠٥/٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٣١٤/٣ . ومع ان ابن خلدون قد زعم انه لم يقف لاحد من المتقدمين على تعريف يشبه ما جاء به ،الا اننا نلاحظ تأثره بطريقة قدامة بن جعفر في حد الشعر -الجنس والفصل .

(٣) ابن خلدون - المقدمة : ١٣٠٥/٣ .

(٤) المصدر السابق : ١٣٠٥/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : ان الشعر (مستقل بذاته عن غيره من الفنون لانه مفصل باجزاء متفقه الوزن والروي) وفي هذا فصل نهائي له من حيث هو فن ذو شكل محدد بقوانين معلومة ،عن كافة الاجناس الكلامية الاخرى باتفاق الكل .

رابعا : ان الشعر قائم على وحدة هي البيت الشعري المستقل في غرضه ومقصده عما قبله وبعده في القصيدة ،وفي هذا بيان لحقيقة البيت الشعري في ذاته ،وليس فصلا له عن شيء آخر .

خامسا : ان الشعر يكون عربيا فقط اذا جرى على الاساليب العربية المعروفة ،وفي هذا فصل للشعر العربي عما عداه ،مما قيل بلغة عربية ولكنه لم يترسم اساليب العرب ،فهو محض نظم .

وفي ضوء هذه النتائج المستخلصه لنا ان نسجل مطمئنين اكثر من حقيقة . تبرز رأي ابن خلدون في ماهية الشعر . فهو من جهة يفصل فصلا تاما بين الشعر والخطابة او بين النظم والنثر ،على نحو يدعو للاعجاب ،متجاوزا بذلك الكثير من النقاد العرب الذين خلطوا بين الاثنين لدرجة ان المسافة عند بعضهم تضاءلت كثيرا بين الرسالة النثرية والقصيدة الشعرية [١]. ومن جهة ثانية ،يقدم شرطا فنيا من اهم شروط الابداع الشعري مثل الاستعارة والاوصاف ،على شرط شكلي مثل الوزن و الروي ،وهي تقدمة تذكر له ، اذ ليس كل كلام موزون يمكن ان يعد شعرا خاصة اذا كان القصد منه تعليميا او اخلاقيا . وهو من جهة ثالثة يؤكد ان القصيدة وحدة كلية تتألف من مجموعة وحدات ،كل وحدة تمثل بيتا قائما بذاته معنى وغرضا انسجاما منه مع فهمه الخاص (للشعرية) كما اجتهدنا في تبيانه سابقا ليخلص الى ان الشعر لا يكون عربيا الا اذا كان جاريا على اساليب العرب ،واساليب العرب كما ظهر لنا في مثال الوقوف على الطلل هي بمثابة نماذج شعرية (تراكيب) يجب ان تحتذى بيتا بيتا،مما مهد له الطريق كي يخرج بلباقة شعركلمن المتنبي والمعري من دائرة الشعر العربي على لسان اشياخه بالقول : (وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون ان نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على اساليب العرب من الامم ،عند من يرى ان الشعر يوجد للعرب وغيرهم) [٢].

ونختم كلامنا على قضية الشعر عند ابن خلدون بعرض رأيه في السبب الذي من أجله ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر[٣]. والحق ان لنا استغراب مثل هذه

---

(١) كما نجد عند ابن طباطبا مثلا ،انظر عيار الشعر : ٦ ،٧٨
وانظر أيضا : احسان عباس - تاريخ النقد الادبي : ١٣٦.
جابر عصفور - مفهوم الشعر : ٦٣ .
(٢) ابن خلدون - المقدمة : ١٣٠٦/٣ .
(٣) المصدر السابق : ١٣٢٢/٣ - ١٣٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المخالفة من ابن خلدون لابن رشيق ،مخالفة صريحة تصل الى ايراد بعض مسوغات المرزوقي لتفضيل النثر على النظم[١]. وعلى أية حال فلا ينبغي لاستفرابنا ان يطول ،لان ابن خلدون كان شاعرا مادحا الى جانب وظائفه الاخرى التي شغلها قبل ان يتفرغ لتأليف المقدمة ،وقبل ان يرتحل الى مصر ليصبح قاضي قضاتها . وما من شك في ان ابن خلدون لم يعد بحاجة الى بذل اشعاره طمعا في نيل منصب وقد أصبح قاضي قضاة مصر ،لا بل ربما تمنى لو تناسى الآخرون انه كان في يوم من الايام شاعرا مادحا[٢].

ان هذه الرغبة في تناسي الماضي الشعري هي من القوة الى الدرجة التي تجعل منها سببا وجيها لمخالفة ابن رشيق ،حتى ولو كان المنجم الذي يمتح منه اراءه في الادب والنقد .

وهكذا ،ففي الفصل الذي عقده لتبيان ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر ، يؤكد ابن خلدون "بداية" علو منزلة الشعر عند العرب الجاهليين ،ثم يعلل انصراف العرب في صدر الاسلام عن الشعر بما شغلهم من امر الدين والنبوة والوحي وما ادهشهم من اسلوب القرآن ونظمه ،حتى اذا استقر الاسلام في نفوسهم ،ولم ينزل القرآن في تحريم الشعر وحظره ،وسمعه النبي وأثاب عليه ،رجعوا الى اهتمامهم به ،وصار بعد ذلك وسيلة يتقرب بها الشعراء الى الخلفاء من بني امية وبني العباسي ،فيجيزونهم بالجوائز السنية ، محتفلين بهم أيما احتفال ،الى أن جاء جيل مولد من الشعراء القاصرين في ملكاتهم ،فمدحوا بأشعارهم امراء العجم الذين غلبوا على امر الدولة الاسلامية ،وصار الارتزاق بأشعارهم همهم الوحيد ،فملأوا شعرهم لذلك بالكذب والاستجداء ،فذهبت المنافع التي كانت في الشعر وانف منه أهل الهمم والمراتب من المتأخرين ،وتغير الحال ،واصبح تعاطيه هجنة في الرئاسة ومذمة لاهل المناصب الكبيرة .

و - قضية الموشحات والازجال :

كنا قد جئنا على ذكر الفصل الذي عقده ابن خلدون لاشعار العرب وأهل الامصار لعهده ،في الفصل الثالث من هذه الدراسة[٣]،فعرضنا لكلامه على الاشعار العامية من اصمعيات وبدويات وحورانيات والحقناه بجملة ما عرضنا له من مسائل وقضايا لغوية . ورأينا ان من حق هذه الاشعار العامية ان تذكر في اطار القضايا

---

(١) انظر ، المرزوقي - شرح ديوان الحماسة : ١٦/١ - ١٨ .
(٢) وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في ترجمته لابن خلدون ان ابن الخطيب : (لم يصفه بعلم وانما ذكر له تصانيف في الادب وشيئا من نظمه ولم يكن بالماهر ،وكان يبالغ في كتمانه مع انه كان جيد النقد) . انظر ،رفع الاصر : ٣٤٤/٢ .
(٣) انظر الفصل الثالث من هذه الدراسة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللغوية ،لان ما اورده ابن خلدون من ملاحظات بخصوصها هو خير تتمة لارائـــه المتميزة في اللغات السامية ،لان هذه النصوص جاءت امثلة تطبيقية لما قال به .

وقد آثرنا ارجاء الحديث عن تتمة ما جاء في فصل اشعار العرب وأهل الامصار لعهده من كلام على (الموشحات والازجال للاندلس)[١] لعلتين :

الاولى : ان الموشحات والازجال ظاهرتان لا محيد عن الالتفات اليهما ،لكل دارس لقضية الشعر العربي ،سواء اكان هدف هذه الدارس التأريخ ام تبيـــن الخصائص الفنية ام تحليل الموضوعات . ولما كانت قضية الشعر ممـــا يندرج في القضايا الادبية ،فقد كان من الطبيعي ان ندرج قضية الموشحات والازجال في فصل القضايا الادبية .

الثانية : ان ما جاء في مقدمة ابن خلدون من كلام على (الموشحات والازجـــال للاندلس) هو مما ثبت انه ليس له ،ثبوتا قاطعا لا يعتريه شك .

ولقد ظل كلام ابن خلدون على الموشحات والازجال المعتمد الاول لكل من الف في هذين الفنين من قدماء ومحدثين ،ولم يتردد أحد في نسبة الفضل في التأريـــخ الممتاز لهذين الفنين اليه ،الى ان وقع المرحوم الاستاذ الدكتور عبد العزيز الاهواني على مخطوط كتاب (المقتطف من ازاهر الطرف)[٢] لابن سعيد المغربي[٣]، فلفت نظره الفصل الثاني عشر من هذا المخطوط الذي حمل عنوان (الخميلة الثانية عشرة المشتملة على ملح الموشحات والازجال) لان ما جاء فيه جعله يستحضر - على الارجح - ذلك الكلام المشهور المتداول بين الدارسين على انه لابن خلدون . ولـم يطل به الوقت لكي يقف على حقيقة أيدتها القراءة النصية المقارنة ،وهـــي ان ابن خلدون قد سلخ الفصل الثاني عشر من كتاب ابن سعيد بالكامل ،وأودعه مقدمته .

---

(١) يقع الفصل الذي تكلم به على اشعار العرب وأهل الامصار لعهده في احـدى واربعين صفحة (١٣٢٤ - ١٣٦٥) ،منها أربعة عشر صفحة للكلام على اشعـــار العرب السامية من اصمعيات وبدويات وحورانيات (١٣٢٤ - ١٣٣٧) ،ومنها سبـع وعشرين صفحة للكلام على الموشحات والازجال (١٣٣٧ - ١٣٦٥) وقد جاء كلامه على الموشحات والازجال تحت عنوان فرعي هو (الموشحات والازجال للاندلس) .

(٢) ابن سعيد - المقتطف من ازاهر الطرف ،تقديم وتحقيق ودراسة : د- سيد حنفي حسنين ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،١٩٨٣ .

(٣) هو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد (٦١٠هـ - ٦٨٥هـ) ،مؤرخ وعالم وأديب وشاعر . له كثير من الكتب المطبوعة والمخطوطة عدا المقتطف - (انظر دراسة وافية عن جهوده النقدية بخاصة ،في كتاب الدكتور احسان عباس ،تاريخ النقد الادبي : ٥٣٢ - ٥٣٧ .
كما ان الدكتور سيد حنفي قد استوفى التعريف به ،والاحالة الى مصادر ترجمته في تمهيده لكتاب المقتطف من أزاهر الطرف : ٩ - ٢٢ .
وقد سلكه الدكتور محمد زكريا عناني مع وشاحي القرن السابع في كتابه الموشحات =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اشار الدكتور الاهواني لكشفه هذا لاول مرة[١]،في مقالة له نشرتها باللغة الاسبانية مجلة الاندلس عام ١٩٤٨ ، الا ان هذه المقالة لم تف بالغرض ،ربما لانها نشرت بلغة اجنبية ،فلم تتح لمعظم الدارسين العرب فرصة الاستفادة منها .

غير ان هذا الكشف قد اتيح له ان يكون تصريحا مدويا في مهرجان ابن خلدون الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٦٢ . وقد تقدم الاهواني الى هذا المهرجان بحث عنوانه (ابن خلدون وتاريخ فني التوشيح والزجل)[٢] تضمن فصلة محققة تمثل الفصل الثاني عشر من كتاب ابن سعيد المغربي ،وتبرز ابرازا اكيدا صواب ما ذهب اليه .

وفي عام ١٩٨٣ ،قامت الهيئة المصرية العامة للكتّاب ،باخراج كتاب (المقتطف من أزاهر الطرف) من تقديم وتحقيق ودراسة الدكتور (سيد حنفي حسنين)،فأكد في تمهيده للكتاب ما سبق للدكتور الاهواني ان ذهب اليه ،ملخصا أهم الملاحظات التي سجلها الدكتور الاهواني ونورد منها[٣]:

١. انه كان بين يدي ابن خلدون وهو يكتب (فصلة) عن الموشحات والازجال في مقدمته ،كتاب ابن سعيد (المقتطف من ازاهر الطرف) ينقل عنه نقلا حرفيا دون تصرف او تغيير .

٢. ان المقارنة بين نصي ابن خلدون وابن سعيد تدل على ان ابن خلدون قد اسقط (الحجاري) الذي استقى منه ابن سعيد اخباره ،تلك الاخبار التي اوردها الحجاري في كتابه (المسهب في غرائب المغرب) كما تدل على ان ابن خلدون قد اسقط اسم ابن سعيد من اول الفصل ولم يشر الى كتابه (المقتطف) الذي نقل عنه ،وانه وان ذكر ابن سعيد بعد ذلك عدة مرات ،فان ذكره له ... يوهم القارئ ان ابن خلدون ينقل عن ابن سعيد اخبارا وينقل عن غيره ما سبق تلك

= الاندلسية ،سلسلة عالم المعرفة ،ط ١ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ،الكويت ،١٩٨٠ : ١٦٤ .

(١) Al-Andalus،مجلة الدراسات العربية في مدريد وغرناطة ، المجلد ١٣ ،ج١ ، ص١٩ - ص٣٦ ،١٩٤٨ . نقلا عن بحث الدكتور الاهواني الذي تقدم به لمهرجان ابن خلدون في القاهرة عام ١٩٦٢ ،وقد قام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بنشر البحث ضمن أعمال المهرجان ، انظر اعمال مهرجان ابن خلدون: ٤٧٣ - ٤٨٧ .

(٢) جاء في تمهيد الدكتور سيد حنفي لكتاب المقتطف ص ٢٣ ان عنوان البحث الذي تقدم به الدكتور الاهواني هو (ابن خلدون والادب) والصحيح ان هذا هو عنوان المحور الذي عالج في اطاره الدكتور الاهواني علاقة ابن خلدون بتاريخ فني التوشيح والزجل .

(٣) د . سيد حنفي - التمهيد على تحقيق كتاب المقتطف : ٢٣ - ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاخبار ،على حين ان الكلام كله من المقتطف ،سواء في ذلك ما جاء في نص ابن خلدون بعد قوله "قال ابن سعيد" او ما جاء قبل هذه العبارة .

٣. ان في نص ابن خلدون بعض سطور تزيد على ما بين ايدينا من نسخة المقتطف ، ولكن مراجعة هذه الزيادات اليسيرة ،يقطع بان بعضها كان في اصل المقتطف وسقط من ناسخ المخطوط ،لان ابن خلدون نفسه في احد هذه الزيادات قد أشار الى ابن سعيد ،اما البعض الآخر من هذه الزيادات فيرجح الدكتور الاهواني انه ايضا كان في الكتاب ثم سقط من النسخة التي وصلت الينا ،لانه يتفق مع سياق نص ابن سعيد .

هذا ،وان مما يؤسف له ويدعو الى التساؤل ،ان تخلو طبعة مقدمة ابن خلدون المحققة من الاشارة الى هذا الكشف خلوا تاما ،على الرغم من ان الاستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي ،كان ممن شاركوا في مهرجان ابن خلدون(١) ، وكان حريا به ان يشير الى هذا الكشف في طبعات المقدمة(٢) التي تلت انعقاد المهرجان المذكور لسببين :

الاول : انطواء الفصل الذي نشره الدكتور الاهواني ،على تصويب لبعض الاخطاء والتحريفات التي ظلت على حالها في الطبعة الثالثة من مقدمة ابن خلدون(٣).

---

(١) جاء في تمهيد الدكتور علي عبد الواحد وافي للمقدمة ،ص ١١٤ : (وقد اسعدني الحظ بأني كنت من اعضاء هذا المهرجان ،وقدمت له بحثين احدهما (ابن خلدون منشىء علم الاجتماع) والآخر في (الموازنة بين ابن خلدون واوجيست كونت) .
وجاء في موضع آخر من التمهيد ،ص ٢٦٩ :("ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع" للاستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي ،فصل من "اعمال مهرجان ابن خلدون" المنعقد في القاهرة من ٢ - ٦ يناير سنة ١٩٦٢ . وقد نشر هذه البحوث "المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية).

(٢) فقد أحال الدكتور علي عبد الواحد وافي في الطبعة الثالثة من المقدمة (مزيدة ومنقحة!) إلى ابحاث ودراسات له يعود تاريخ بعضها الى سنة ١٩٧٦ ، أي ان هناك ١٤ سنة على اقل تقدير بين تاريخ نشر بحث الدكتور الاهواني وتاريخ صدور الطبعة الثالثة من المقدمة التي جاءت دون تاريخ .

(٣) على سبيل المثال لا الحصر ،نورد بعض الاخطاء التي وقعت في صفحة واحدة فقط وظلت على حالها في الطبعة المحققة وما يقابلها من التصويبات التي جاءت في الفصلة التي نشرها الدكتور الاهواني :

الطبعة المحققة من المقدمة	صفحة	الفصلة المحققة من كتاب المقتطف	صفحة
١. كان المخترع لها بجزيرة الاندلس (مقدّم بن معافر الفريري)	١٣٣٨/٣	..المخترع لها بجزيرة الاندلس (مقدّم بن معافي القبري)	٤٧٧
٢. واخذ ذلك عنه ابو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد	١٣٣٨/٣	..وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد .	٤٧٧
٣. وجاء مصليا خلفه منهم ابن رافع رأس شعراء المأمون ..الخ.	١٣٣٨/٣	..وجاء مصليا خلفه منهم ابن أُرفع رأسه شاعر المأمون..الخ.	٤٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثاني : ان عدم الاشارة الى هذا الكشف ،سيؤدي - وربما أدى - بالباحثين الذين لم يطلعوا على بحث الدكتور الاهواني الى ترتيب نتائج خاطئة في معرض دراستهم لجهود ابن خلدون .

وعلى أية حال ،فلم يكن محقق المقدمة هو الوحيد الذي اغفل الاشارة الى كشف الدكتور الاهواني . اذ خلت كتب بعض الدارسين المرموقين من الاشارة الى هذا الكشف أيضا[١] ،وان كان بعضهم الآخر قد اشار الى ان ابن خلدون قد نقل عن ابن سعيد[٢].

وللحقيقة ،فنحن لا ندري السبب الذي من اجله اغفل (معظم)[٣] الدارسين الاشارة الى واقعة نقل ابن خلدون عن ابن سعيد ،اذ ربما كان السبب هو عدم الرغبة لدى البعض في زعزعة صورة ابن خلدون المهيبة وربما يكون السبب هو افتراض معرفة الباحثين بالكشف الذي توصل اليه الدكتور الاهواني وربما يكون السبب عدم الرغبة في تكرار ما سبق اليه الغير ،وربما يكون غير ذلك .

وبعد ان عرضنا لملابسات واقعة نقل ابن خلدون عن ابن سعيد واظهرنا مدى الاجحاف بحق الدكتور الاهواني صاحب الفضل في الكشف عن هذه الواقعة لنا ان نتساءل : هل يحق لنا ان نبحث قضية الموشحات والازجال على انها من القضايا الادبية في مقدمة ابن خلدون ،ام ان من حق هذه القضية ان تبحث في كتاب "المقتطف من ازاهر الطرف" بشكل خاص ،وفي اطار جهود ابن سعيد الادبية بشكل عام ؟

في تقديرنا ان من حق هذه القضية ان تبحث في اطار كتاب المقتطف وفي اطار جهود ابن سعيد ،لان صاحب الفضل اولى به،ولان من حق ابن سعيد على الباحثين ان يقولوا : (قال ابن سعيد في المقتطف بدلا من قولهم قال ابن خلدون في المقدمة)[٤]

---

(١) اذ لم يشر الدكتور شوقي ضيف الى ذلك في الطبعة التاسعة من كتابة المتداول (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) ،علما بأن الطبعة الرابعة لهذا الكتاب قد صدرت في عام ١٩٦٠ . وقد أحال في معرض حديثة عن الغناء الاندلسي والموشحات والازجال على مقدمة ابن خلدون ،انظر الكتاب : ٤٥٠ - ٤٥٥ .

(٢) ذكر الدكتور احسان عباس في كتابه (تاريخ الادب الاندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ،ص ٢١٩) : (.. كتب ابن خلدون في مقدمته فصلا عن الموشحات نقل فيه ما قاله ابن سعيد في المقتطف) ويعود تاريخ الطبعة الاولى من هذا الكتاب الى عام ١٩٦٢ . هذا ومن حق الدكتور احسان عباس الذي تفضل مشكورا باعارتي بعض المصادر والمراجع ان اذكر له اشارته علي بأهمية الرجوع الى بحث الدكتور الاهواني .

(٣) فانصافا للحقيقة نذكر للدكتور محمد زكريا عناني انه اشار الى كشف الدكتور الاهواني ،والى (إتكاء) ابن خلدون على ابن سعيد ،انظر له ،الموشحات الاندلسية : ١٢ هامش (٣) ،٢٢٠ هامش (٤) .

(٤) د. عبد العزيز الاهواني - ابن خلدون وتاريخ فن التوشيح والزجل : ٤٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وان كان ثمة فضل يمكن ان يعزى لابن خلدون فهو أنه وضع فصلا (ذا قيمة تضطر الباحثين للرجوع اليه والاعتماد عليه ،لانه تعرض فيه لفنون الشعر العامي في عصره هو ....وتوسع فيما نقل من نصوص عن المغرب ،وسيظل له مع ذلك الاطار العقلي والذي وضع فيه ابن خلدون الفصل كله شاهدا على امتيازه وتفوقه وحسن ادراكه)(١)

ولقد اصاب الدكتور الاهواني في تعيينه الهدف الذي من اجله نشر نص ابن سعيد حين قال : (ولم ننشره لتجريح ابن خلدون بقدر ما نشرناه لانصاف ابن سعيد)(٢)، وهذا في رأينا قول سديد لانه يحول دون تورط الباحثين المحدثين فيما تورط فيه بعض نقادنا القدامى حين استنفذوا جهودا كبيرة في تعقب سرقات الشعراء بوجه خاص ،ولان هاجس الباحث الحقيقي ينبغي ان يكون هاجسا علميا بحتا لا هاجسا اخلاقيا ،بحيث يتعامل مع واقعة نقل ابن خلدون عن ابن سعيد على انها واقعة تبرز لنا مصدرا جديدا من مصادر ثقافة ابن خلدون وليس على انها واقعة سرقة ،خاصة وان في اثبات ابن خلدون لاسماء الكثير ممن نقل عنهم او افاد من جهودهم ما يجعلنا نحسن الظن به ،ويدفعنا الى التعامل مع اي كشف عن نقول جديدة على انها تعزيز لمعرفتنا بمصادر ثقافته (٣). وليس على انها فرصة لتعرية ابن خلدون . وبعكس ذلك ،فسوف نجد انفسنا مضطرين للتعامل مع جل اعلام تراثنا على انهم لصوص اذ ما من مفكر او ناقد من القدماء الا ونقل عمن سبقه ،تارة يصرح بهذا النقل وتارة يسكت . واضعين نصب اعيننا حقيقة اننا لا نعرف على وجه الدقة تلك المعايير التي كان يحتكم اليها القدماء في التأليف والنقل .

---

(١) المرجع السابق : ٤٧٧ .

(٢) المرجع السابق : ٤٧٦ .

(٣) نردد هنا ما قاله الدكتور فهمي جدعان ردا على من اراد ان يتخذ من الكشف عن كتاب (بدائع السلك) لابن الازرق مدخلا للطعن على ابن خلدون . وقد اجتهدنا في تبرير سكوت ابن خلدون عن التصريح ببعض مصادره بعدم توفر الكتب التي رجع اليها اثناء اقامته في قلعة ابن سلام ،مما جعله يملي من الذاكرة على الارجح ،مرجئا مراجعة تأليفه الى ما بعد فراغه من التأليف على (الكتب والدواوين التي لا توجد الى بالامصار) . انظر الفصل الاول من هذه الدراسة ،ص :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا ما نحن القينا نظرة عامة على ملاحظات ابن خلدون التي عملنا على تكشيفها في ثلاث قضايا رئيسة هي النظم والنثر ،واللفظ والمعنى ، وعمود الشعر ،فان هذه النظرة قد تجعلنا نتريث في ترديد افتراضنا حول تأثر ابن خلدون بالموحدين والمذهب الظاهري . اذ ان هذه النظرات على ما فيها من تناقضات احيانا لافتة للنظر ، فان جزءا غير يسير منها قد جاء متفقا مع مع آراء ليس بوسعنا الزعم بأنها مما يتفق وقولنا بتأثير للموحدين او المذهب الظاهري .

فهو قد انحاز مثلا الى جانب اللفظ على حساب المعنى مسايرا الجاحظ المعتزلي في ذلك ، ومرددا مقولته عن المعاني المطروحة . ثم هو يستمد من ابن رشيق الكثير من اراله المتصلة بصناعة الشعر ويصرح بذلك .

وهكذا فان هناك بعض الملاحظات التي قد تهدد افتراضنا بلا شك . على اننا لو عرضنا معظم الملاحظات على مقولة جوهرية في دعوة الموحدين والمذهب الظاهري لانزاحت عن عيوننا غشاوات كثيرة .

(العودة الى الاصل ... العودة الى الينبوع) تلكم هي عماد المذهب الظاهري ودعوة الموحدين . وهي المقولة التي تتأسس عليها معظم ملاحظات ابن خلدون في الادب والنقد .

فاذا كان لا بد من التحصل على ملكة اللسان العربي في اللغة ،كذلك لا بد من امتلاك اساليب العرب في الشعر والبيان والبلاغة ،ومعاييرهم في الذوق . وهل اساليب العرب الا موروثهم النقي شعرا ونثرا ، الخالص من الشوائب في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ،وما جاء على شاكلته .

ولان هذا الاصل يجب ان يصان من الخلل ،فلا بد من الحفاظ على خصوصية اساليبه بحيث لا تطغى اساليب الشعر على النظم ،ولا تحجب اساليب المحدثين من بديع ومحسنات نضارة بيانه . وباختصار فان هذا الاصل هو رسوم تحتذى بدقة .

هذا من جهة ايضاح العلاقة المضمرة بين آراء ابن خلدون في الادب والنقد وآراء دعوة الموحدين ومذهب الظاهريين ، اما من جهة ما تميزت به هذه الآراء في ضوء دراستها في سياق التراث النقدي العربي فان ابن خلدون يبدو متميزا في فصله التام بين النظم والنثر من جهة ،وفي دعوته الى تنقية اساليب النظم والنثر مما لحق بها من أوضار التصنع والتكلف بالبديع والمحسنات . وهي دعوة ترتدي اهمية خاصة لانها جاءت في عصر بات يتعبد بالبديع والمحسنات .

وهو يبدو متميزا في اعطائه اهمية خاصة لشروط فنية تدخل في صلب عملية الابداع الشعري ،مقدما اياها على شروط شكلية مثل الوزن والقافية . وهي التفاتة تستحق الاعجاب لانها جاءت في عصر جف فيه الخيال وانحط فيه الذوق وانحدر فيه الابداع الفني .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن بعد ،فهو يبدو متميزا في افساحه المجال لآداب العامة وتسجيلها ، ولا يقلل من هذا التميز حقيقة انه اقتبس فصلا كاملا من كتاب ليس له ،اذ يكفيه الاطار الذي وضع فيه هذا الفصل كما قال الدكتور عبد العزيز الاهواني .

وقد لاحظنا ايضا مدى الانسجام في آراء ابن خلدون الادبية مع الملاحظات اللغوية التي عرضنا لها في فصل القضايا اللغوية ،من حيث تمسكه بمفاهيم الملكة والحفظ، وفصله بين العلم باللغة والاحساس بها. وتأكيده لثانوية القوانين والقواعد في عملية الخلق الفني مع انه لا يقلل من اهميتها ولا بد كذلك من طرح تساؤلين،والاجابة عنهما وهما:

- اولا : لماذا لم نعمد الى تأويل لفظي (الملكة والحفظ) اللذين ترددا بكثرة في الفصول التي تكلم فيها ابن خلدون على علوم اللسان العربي .
- ثانيا: ما مدى انسجام ابن خلدون في كلامه على علوم اللسان العربي مع المحددات المنهجية التي الزم نفسه بها في مستهل المقدمة .

أما لماذا لم نعمد الى تأويل لفظ (الملكة) ،فلأن هناك عدة اسباب أولها: احترازي يتمثل في عدم الرغبة في الانزلاق الى ما انزلق اليه بعض الباحثين عندما قرأوا المقدمة انطلاقا من هاجس واحد فقط هو تفسير مفهوم الملكة ،مما ادى الى الاعلاء من شأن هذا المفهوم اللساني البحت على حساب مفاهيم وعلاقات اخرى كثيرة ،اجتماعية وثقافية ،تداخلت في المقدمة . ناهيك عن ان هؤلاء الباحثين قد اشبعوا هذا الناحية اللسانية شرحا وتحليلا . وثانيها: اعتقادنا بان (الملكة) عند ابن خلدون هي مسمى لمستويات او معان عدة تتراوح بين التمرس او امتلاك الأداة التعبيرية او امتلاك الصنعة ،يجمعها مفهوم واحد هو (الاحساس) باللغة . ومن ثم فقد اثرنا القيام بتحليل وتركيب للخطاب الخلدوني دون ادنى تدخل او اسقاط مفهومي في اطار هذا الفصل والفصل الذي سبقه ،تاركين للقارئ الفرصة كي يستنتج ما يريد استنتاجه من هذه المعاني حسبما يقتضيه السياق . وهكذا ،فعندما يتحدث ابن خلدون عن حصول الفرد على ملكة علوم اللسان العربي فهو يقصد الصناعة ،وعندما يتحدث عن حصوله على ملكة اللغة فهو يقصد التمرس ،وعندما يتحدث عن حصوله على ملكة اللسان فهو يقصد الاحساس .

واما لماذا لم نعمد الى تأويل لفظ (الحفظ) ،فلأن هذا اللفظ ايضا جاء موحيا بمستويات عدة ،تتراوح بين الحفظ بالمعنى الحرفي للكلمة والمحفوظ بالمعنى (الذاكراتي) ،اي عندما يحفر هذا المحفوظ لنفسه ذاكرة في جوى الانسان ،وتمّحي رسومه الظاهرة كما يقول ابن خلدون ،ولا يبقى سوى ذلك السيال الشعوري الغامض المتدفق الحافل بالعلاقات والعناصر والاخيلة . والعلاقة بين المحفوظ بمعنى الذاكرة والملكة بمعنى الاحساس ،هي - كما نرى - علاقة جدلية وطيدة . اذ ان المحفوظ عندما يصبح ذاكرة هو الملكة ذاتها ،والملكة عندما تتاخم حدود الاحساس هي المحفوظ الذي غدا سيالا شعوريا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاتمة

ذهبنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة الى حد القول بوجود تأثير خاص للموحدين على جهود ابن خلدون . وقد حاولنا ان نعزز هذا الرأي بغير دليل اشرنا اليه ،مما جاء في (المقدمة) او (التعريف) .

كما اشرنا الى اهتمام المهدي بن تومرت بالعامة واتجاهه الى مخاطبتهم بلغاتهم مستثيرا حميتهم الدينية بذكاء . فكان له ما اراد ،اذ التف هؤلاء العامة من حوله وكان لهم دور رئيس في اسقاط حكم المرابطين .

ولم تفتنا الاشارة الى التفات ابن خلدون الى هذا الدور الهام الذي غدا العامة يضطلعون به ،خاصة وان زمنه كان يشهد تراجعاً في قبضات الدول المركزية فعمد الى تسجيل اداب العامة ولغاتها في سياق موازٍ لآداب الخاصة ولغاتها .

وللحق ، فان هناك من سبق الموحدين الى الاهتمام بالعامة وحاول تجسير المسافة بين آدابهم وآداب الفصحى ، اذ اشرنا الى مساهمة ابن حزم التي تضمنها كتاب (التقريب لحد المنطق) . وعلى اية حال فالصلة بين ابن حزم الظاهري والحكم الموحدي ، ليست مما يخفى الباحث البصير .

ولم تعدم الاندلس قبل ابن حزم من يتصدى للغات العامة وينصفها بعض الانصاف كما فعل الزبيدي ،كما لم تعدم بعده من يزيد في انصافه على انصاف الزبيدي . وخلاصة القول ان ابن خلدون قد وجد في بيئة جعلته مهيئا لوعي هذا الدور الهام للعامة والتعبير عنه ،اذ هي بيئة لم تعدم الاهتمام بلغات العامة وادابها من موشحات وازجال بشكل عام . كما انها انطوت على تيارات كان للعامة دور كبير في تعزيزها كالموحدين .

وقد جئنا ايضا على ذكر اهم علمين انجبتهما الدعوة الموحدية ،الا وهما ابن رشد الذي اهتم بالفلسفة والشريعة والفقه ،وابن مضاء الذي اهتم باللغة والنحو .

وعلى حين اننا لمحنا تأثيرا للثاني على اراء ابن خلدون في اللغة من حيث الدعوة الى عدم التفريع والتعقيد مما يعني بداهة العودة باللغة الى اصولها ، فاننا لم نلمح تأثير مباشرا للاول على آراء ابن خلدون في الادب ،مع انه (اي ابن رشد) قد اضطلع بشرح كتاب ارسطوا عن الشعر .

وقد توقفنا عند هذه الظاهرة مليّا ،اذ كنا قد رجحنا القول باطّلاع ابن خلدون على جهود ابن رشد ،ودلّلنا على ذلك بما اورده ابن الخطيب لسان الدين من شروح لابن خلدون على كتب ابن رشد . ولعل هذا يدفعنا الى الدعوة لقراءة مقدمة ابن خلدون في اطار المحددات التالية :

اولا : ان ابن خلدون قد وجد في زمن كانت فيه دولة الموحدين قد آلت الى التمزق وانحسر نفوذها انحسارا كبيرا .

ثانياً : هيمنة التقليد والجمود على الحياة الثقافية والعقلية مجددا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : بروز موقف حاد من الفلسفة وعلم الكلام اللذين ازدهرا في ظل الموحدين .
رابعا : ارتحال ابن خلدون الى مصر المحافظة في موقفها من الفلسفة وعلم الكلام بعد ان وضع المقدمة بسنوات قلية ،وقيامه بتعديل وتنقيح غير فصل في المقدمة ، اثناء اقامته حتى وفاته .

وتسلمنا قراءة المقدمة في ضوء هذه المحددات الى نتيجة لا بد من اخذها بعين الاعتبار ،ليس فقط عندما نتصدى لابن خلدون بالدراسة ،ولكن كلما تصدينا لدراسة فكر او ادب اي كان . انها ضرورة ادراك ان اي خطاب لا بد وان ينطوي على مضمرات تقل وتكثر تبعا لنوع الظروف الموضوعية التي تحيط بالمفكر او الاديب .

وفي حال ابن خلدون ،كان هناك الكثير من الظروف التي دفعته الى اخفاء تأثره بالرشدية ،وربما التقليل من شأن علاقته بالموحدين . ولعل المحددات التي اوردناها آنفا تعكس الى حد بعيد نوع هذه الظروف .

وليس ادل على ان ابن خلدون قد قام بما هو اكثر من التعديل على مقدمته اثناء اقامته في مصر ،من الفصل الذي ابطل فيه الفلسفة . مع اننا لا نحس منه رفضا لها في غير موضع جاء فيه على ذكر الفلسفة ،لا بل هو عدها في طليعة العلوم الطبيعية عندما تكلم على اصناف العلوم الواقعة في العمران ،بما يتفق مع رأي ابن رشد في تصنيف العلوم. وبما لا شيي بأي موقف تجاه الفلسفة وكذلك الامر في شأن الصوفية ،اذ هو اقرها في (مقدمته) بعد ان كان قد انكرها في (الشفاء) .

وعلى هدي من هذه الرؤية ،لم نجد مانعا في ترجيح تأثير الموحدين او المذهب الظاهري او الرشدية على اراء ابن خلدون ،حتى ولو لم يطرّد هذا التأثير في كل ما كتب ابن خلدون . ذلك ان افتراضنا تأثر ابن خلدون بالموحدين لا ينبغي ان يدفعنا الى التفتيش عن ملامح لهذا التأثر في كل ما كتب ،خاصة اذا وضعنا نصب اعيننا ما سبق وان ذكرناه من امر المضمر في المقدمة ،الذي ينطبق على ابن خلدون كما ينطق غيره . ولنا في حازم القرطاجني مثالا طيبا ،اذ رغم تلمذته الاكيدة للشلوبين ربيب ابن رشد واقامته على ولاء الحفصيين الموحدين ،الا انه عندما وضع كتابه (منهاج البلغاء) احال الى ابن سينا والفلسفة المشرقية ولم يحل الى ابن رشد والفلسفة المغربية .

واذا ما نحن اضفنا الى ما تقدم ،القول بان جهود ابن خلدون لم تكن مجرد صدى باهت لجهود غيره ، بقدر ما كانت تشكيلا وتوليد اخلاقا لهذه الجهود ،فاننا نكون قد انصفنا ابن خلدون ولا شك .

لقد هاجم ابن مضاء النحاة ولم يهاجم النحو ،وهاجم الفروع ولم يهاجم الاصول ونقض القياس والعلل الثواني والثوالث ،ورفض نظرية العامل . كل هذا كان بوحي من المذهب الظاهري . وجاء كلام ابن خلدون في اللغة متفقا مع بعضه حينا ،متناقضا لبعضه حينا اخر ، فما الذي زاده ابن خلدون على ذلك ؟

لقد زاد ابن خلدون على ذلك ان ملكة اللغة شيء ،وصناعة اللغة شيء آخر . كما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأى ان صناعة اللغة قد تورث علما باللغة ولكنها لا تورث حسا بها . خالصا الى ان علوم اللغة ليست بالضرورة مما يوصل المرء الى مراتب البلاغة او الفصاحة أو القدرة على عمل الشعر .

هذا بالنسبة لمستوى معين في اللغة هو مستوى اللغة الفصيحة ، اما بالنسبة لمستوى آخر هو مستوى اللغة العامية ، فان ابن خلدون يتفرد في الاعتراف لهذه اللغة بالوجود الى جانب اللغة الفصيحة . لا بل هو يدعو الى تقنينها ويسجل آدابها ، مؤكدا امتلاكها جميع مقومات الادب من بلاغة وبيان وذوق ، وفي هذا المستوى تحديدا كان ابن خلدون متميزا وأصيلا .

وقد ابرزت ملاحظاته الادبية والنقدية فيما يتعلق بالنظم والنثر ، وفيما يتعلق بعملية الخلق الشعري تميزا واضحا له ، يجله موقعا متقدما بين نقادنا القدامى ، خاصة وانه جاء بأكثر من ملاحظة هامة تخص اسلوب النثر او اسلوب الشعر في عصر كان الجمود والتقليد يسربل فيه الحياة الادبية كلها .

ولعل هذه الخاتمة تستوفي الغرض منها ، باجابتنا عن تساؤل مؤداه : ما هو منهج ابن خلدون في كلامه على علوم اللسان العربي ؟ ، بالقول ان منهج ابن خلدون كان منهجا تعانق فيه الامر التاريخي مع الامر التحليلي .

ففي حدود الامر التاريخي كان ابن خلدون اكثر اعتمادا على الغير وأكثر ميلا الى التخليص . الامر الذي يمكن ملاحظته على مفتتح تأريخه لعلوم اللسان العربي عندما أرخ لعلم اللغة وعلم النحو وعلمي البيان والادب . على ان هذا الميل يظل الخيار الوحيد المتاح للمؤرخ عندما يتصدى للكلام على تاريخ علم من العلوم يعود الى بضع مئات من السنين .

وفي حدود الامر التحليلي كان اكثر اعتماد ابن خلدون على الوصف الواقعي المجرد . وليس من باب الصدفة ان يتظاهر هذا الميل في الفصول الفرعية التي تكلم فيها ابن خلدون على ظاهرات واقعة في زمنه مثل اللغات والاداب العامية وهي فصول اتاحت له الفرصة لابداء آراء خاصة تتعلق بواقعه الذي عاشه . ثم هو يعمد بعد الوصف الواقعي الى التحليل الذي غالبا ما توجهه مجموعة من الدوافع المضمرة والظاهرة .

على ان ذلك لم يمنع ابن خلدون من الاتجاه الى الموازنة ما بين الدوافع كما لاحظنا عندما نوه بالزمخشري المعتزلي من حيث هو رائد في تفسير البلاغة القرآنية ، وهو تنويه دافعه الموضوعية البحتة التي اقتضتها ضرورة الانسجام مع احد المحددات المنهجية التي الزم نفسه بها ، من حيث ضرورة تحييد الأمر العقائدي والمذهبي . ثم لم يلبث ان نبه الى ضرورة الاحتراز اثناء قراءة تفسير الزمخشري ، وهو تنبيه دافعه عقائدي مذهبي بحت ، اقتضاه حرص ابن خلدون على الموازنة في حكمه على تفسير الزمخشري ، بين اعجابه بجدة وعمق تفسير الكشاف ، وما يراه من تعارض في هذا التفسير مع معتقدات السنة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما من شك في ان اتجاه ابن خلدون الى التأريخ لعلوم اللسان العربي ،على انها بعض العلوم الواقعة في العمران ،يملي علينا ضرورة النظر الى منهجه التاريخي التحليلي على انه منهج ينتمي الى دائرة المناهج الاجتماعية في التأريخ والدراسة ،بحيث نجيز لانفسنا القول بان ابن خلدون عندما تصدى لدراسة علوم اللسان العربي بمفاهيم مثل الملكة بمعنى الاحساس،والمحفوظ بمعنى الذاكرة ،فهو لم يكن يبغي اكثر من تأكيد ان الملكة في المحصلة الاخيرة هي الاحساس الجمعي باللغة متحققا من خلال الفرد ،والا فما فائدة اعادته القول مرارا وتكرارا بضرورة اكتساب ملكة اللسان العربي كما لو ان مكتسبها ربي في احياء العرب . واذا صح افتراضنا ان الملكة اللسانية هي المحفوظ على نحو جدلي ، فان الملكة والمحفوظ مفهومان يتداخلان على نحو وطيد ،كما تتداخل الذاكرة مع الاحساس الجمعي باللغة .

وفيما يتعلق بمدى انسجام ابن خلدون في كلامه على علوم اللسان العربي مع المحددات المنهجية التي الزم نفسه بها في مستهل المقدمة ،فقد توفر له قدر كبير من هذا الانسجام . اذ هو درس هذه العلوم في اطارها من الاجتماع البشري ، وتوقف محللا ومفسرا الكثير من مظاهرها وقوانينها، وبغض النظر عما نتفق حوله مع ابن خلدون ،او نختلف معه فيه ،بخصوص تحليله وتفسيره لهذه المظاهر او القوانين ،فقد كان ابن خلدون جريئا في توقفه عند هذه القوانين والمظاهر .

والاهم من ذلك ،انه وفى بما كان قد أكده في مستهل مقدمته من ضرورة اضطلاع المؤرخ الحق بالتأريخ لحياة الاجيال عامة ،وليس الاقتصار على تدوين اخبار الخلفاء والوزراء . فأرخ لاهم جانب من جوانب حياة الاجيال الا وهو آدابها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا المصـــادر :

* الآمدي ، ابو القاسم الحسن بن بشر (ت ٣٧٠ هـ) .

١ - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ،ج١ ،تحقيق : السيد أحمـــد صقر ،دار المعارف ، القاهرة ،١٩٦١ .

* ابن الازرق ،شمس الدين محمد بن علي (ت ٨٩٦ هـ) .

٢ - بدائع السلك في طبائع الملك ،ج١ ،تحقيق وتعليق : علي سامي النشار دار الحرية ،بغداد ،١٩٧٧ .

* ابن حجر ،أحمد بن علي العسقلانـــي (ت ٨٥٢ هـ) .

٣ - الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ،حققه وقدم له ووضع فهارسه : محمد سيد جاد الحق ،دار الكتب الحديثة ، القاهرة ،د . ت .

* ٤ - رفع الاصر عن قضاة مصر ، القسم الثاني ،تحقيق : د. حامد عبد المجيد ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ،١٩٦١ .

* ٥ - ابناء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ،ط ٢ ،دار الكتب العلميـــة ، بيروت ،١٩٨٦ .

* ابن جني ، ابو الفتح عثمان بن جني ت ٣٩٢ هـ) .

٦ - الخصائص ،تحقيق : محمد علي النجار ،ط ٢ ،دار الهدى ،بيروت ، د . ت .

* ابن حزم ، ابو محمد علي بن احمد (٤٦٣ هـ) .

٧ - الاحكام في اصول الاحكام ،ط ٢ ،مطبعة الامام بمصر ،د . ت .

٨ - التقريب لحد المنطق والمدخل اليه بالالفاظ العامية والامثلة الفقهية ، تحقيق : د. احسان عباس ،دار مكتبة الحياة ،د . ت .

٩ - ملخص ابطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل ،تحقيق : سعيد الافغاني ،ط ٢ ،دار الفكر ،بيروت ،١٩٦٩ .

١٠ - الفصل في الملك والاهواء والنحل ،تحقيق : د. محمد ابراهيم و زميله ، دار الجيل ،بيروت ،١٩٨٥ .

* ابن الخطيب ،لسان الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ) .

١١ - الاحاطه في اخبار غرناطه ، المجلدان الثالث والرابع ،حقق النص ووضع المقدمه والحواشي : محمد عبد الله عنان ،ط ١ ،مكتبة الخانجـــي ، القاهرة ،١٩٧٥ - ١٩٧٧ .

* ابن خلدون ،عبد الرحمن بن الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ) .

١٢ - لبـاب المحصل في اصول الدين ،نشر : الاب لوسيانوروبيو ،معهد مولاي الحسن ،تطوان ،دار الطباعة المغربية ،١٩٥٢ .

١٣ - شفاء السائل لتهذيب المسائل ،عارضه باصوله وعلّق حواشيه وقدم له : محمد بن تاويت الطنجي ، استانبول ،١٩٥٧ .

١٤ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربـر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ،منشورات دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٥ - المقدمة ،تحقيق : الدكتور علي عبد الواحد وافي ،ط ٣ دار نهضة مصر ، القاهرة ،د . ت .

١٦ - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا،عارضه باصوله وعلق حواشيه : محمد بن تاويت الطنجي ،لجنه التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ .

* ابن خلكان ،ابو العباس احمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) .

١٧ - وفيات الاعيان ،تحقيق : د. احسان عباس ،دار الثقافة ،بيروت ،د . ت .

* ابن رشد ،ابو الوليد محمد بن احمد (ت ٥٩٥ هـ) .

١٨ - فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ،دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة ،ط ٣ ،المؤسسة العربيه للدرسات والنشر ،بيروت ،١٩٨٦ .

* ابن رشيق ،الحسن بن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) .

١٩ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،ج ١ ،حققه وفصله وعلق حواشيه : محمد محيي الدين ،ط ٣ ،المكتبه التجارية الكبرى ،القاهرة ،١٩٦٣ .

* ابن سعيد المغربي ،علي بن موسى بن محمد (ت ٦٨٥ هـ) .

٢٠ - المقتطف من ازاهر الطرف ،تقديم وتحقيق ودراسة : د. سيد حنفي حسنين ، الهيئه المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،١٩٨٣ .

* ابن سلام ،محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣٢ هـ) .

٢١ - طبقات فحول الشعراء ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٩٨٠ .

* ابن طباطبا ،محمد بن احمد العلوي (ت ٣٢٢ هـ) .

٢٢ - عيار الشعر ،تحقيق : الحاجري وزغلول سلام ، القاهرة ،١٩٥٦ .

* ابن قتيبة ،محمد بن عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) .

٢٣ - الشعر والشعراء ،ط ١ ،دار احياء العلوم ،بيروت ،١٩٨٤ .

* ابن مضاء ،احمد بن عبد الرحمن القرطبي (ت ٥٩٢ هـ) .

٢٤ - كتاب الرد على النحاة ،تحقيق : د. شوقي ضيف ،ط ٢ ،دار المعارف ، القاهرة ،١٩٨٢ .

* الاشعري ،ابو الحسن علي بن اسماعيل (ت ٣٣٠ هـ) .

٢٥ - مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ،تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ،مكتبة النهضه ،القاهرة ،د . ت .

* الاصفهاني ،ابو فرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) .

٢٦ - الاغاني ،ج ١٢ ،شرحه وكتب هوامشه: الاستاذ عبد علي مهنا ،ط ١ دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٩٨٦ .

* البيذق ،ابو بكر بن علي (ت ٥٥٠ هـ تقريبا) .

٢٧ - كتاب اخبار المهدي بن تومرت ،تحقيق وتعليق : عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ،١٩٧٥ .

* التنبكتي ،ابو العباس احمد بن احمد (ت ١٠٣٦ هـ) .

٢٨ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج (بهامش كتاب الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب لابن فرحون) ،ط ١ ،مصر ،١٣٥١ هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* التوحيدي ، ابو حيان علي بن محمد (توفي بعد ٤٠٠ هـ) .
٢٩ - الامتاع والمؤانسة ،صححه وضبطه وشرح غريبه : احمد امين واحمد الزين ، المكتبه العصرية ،بيروت - صيدا ،د . ت .
٣٠ - الهوامل والشوامل (التوحيدي وابن مسكويه) ،نشر : احمد امين و السيد صقر ، القاهرة ١٩٥١ .
* الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) .
٣١ - رسائل الجاحظ ،تحقيق : عبد السلام هارون ،مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
٣٢ - الحيوان ،تحقيق : عبد السلام هارون ،ط ٢ ،مكتبة مصطفى البابي ، القاهرة ،١٩٥٦ .
٣٣ - البيان والتبيين ،دار احياء التراث العربي ،بيروت ،١٩٦٨ .
* الجرجاني ،عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١ هـ) .
٣٤ - اسرار البلاغة في علم البيان ،ط ٦ ،نشر:محمد رشيد رضا ، القاهرة،١٩٥٩ .
* الجرجاني القاضي ،علي بن عبد العزيز (ت ٣٦٦ هـ) .
٣٥ - الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح : محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ،ط ٣ ،دار احياء الكتب العربية ،د . ت .
* الحفناوي ، ابو قاسم محمد الديسي (؟ هـ) .
٣٦ - تعريف الخلف برجال السلف ،تحقيق : محمد ابو الاجفان وعثمان بطيخ ،ط ١ ، مؤسسة الرسالة - المكتبه العتيقه ،بيروت ،تونس ،١٩٨٢ .
* الزبيدي ، ابو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ) .
٣٧ - لحن العوام ،تحقيق : د. رمضان عبد التواب ،ط ١ ، القاهرة ،١٩٦٤ .
* السبكي ،تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١ هـ) .
٣٨ - طبقات الشافعيه الكبرى ،تحقيق : عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناجي ، ط ١ ،نشر : عيسى البابي وشركاه ،د . ت .
* السخاوي ،شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ) .
٣٩ - الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ،مكتبة القدسي ، القاهرة ،١٣٥٤ هـ .
* السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ) .
٤٠ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ،تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، المكتبة العصرية ،لبنان ،د . ت .
* الصفدي ،صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤ هـ) .
٤١ - الوافي بالوفيات ،باعتناء : د. محمد يوسف نجم ، المعهد الالماني للابحاث الشرقيه ،دار صادر ،بيروت ،١٩٧١ .
* عبد الجبار القاضي ، ابو الحسن بن احمد (ت ٤١٥ هـ) .
٤٢ - المغني في ابواب التوحيد والعدل (الفرق غير الاسلاميه) ،تحقيق : محمود الخضيري ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
* العسكري ، ابو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥ هـ) .
٤٣ - كتاب الصناعتين : الكتابه والشعر ،حققه وضبط نصه : د. مفيد قمحيه ، ط ٢ ،دار الكتب العلمية ،بيروت ، ١٩٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* الغزالي ،ابو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ) .
٤٤ - المستصفى من علم الاصول ،ط ١ ،المكتبه التجارية الكبرى ،القاهرة ١٩٣٧ .
* الفارابي ،ابو نصر محمد بن محمد (ت ٣٣٩ هـ) .
٤٥ - كتاب الحروف ،تحقيق : د. محسن مهدي ،دار الشروق ،بيروت ،١٩٧٠ .
* الكتبي ،محمد بن شاكر (ت ٧٦٤ هـ) .
٤٦ - فوات الوفيات والذيل عليها ،تحقيق : د. احسان عباس ،دار صادر ،بيروت د د . ت .
* المرّاكشي ،ابو محمد عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧ هـ) .
٤٧ - المعجب في تلخيص اخبار المغرب ،الطبعة المصرية ،١٣٢٤ هـ .
* المرزوقي ،ابو علي احمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ) .
٤٨ - شرح ديوان الحماسة ،ج ١ ،نشره : احمد امين وعبد السلام هارون ،ط ١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة ،١٩٥١ .
* المقري ،احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) .
٤٩ - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ،تحقيق : د. احسان عباس ،دار صادر ، بيروت ،١٩٦٨ .

ثانيا : المراجع :

٥٠ د. احسان عباس - تاريخ النقد العربي عند العرب ،ط ٣ ،دار الثقافة ، بيروت ،١٩٨٣ .
٥١ - تاريخ الادب الاندلسي : عصر سيادة قرطبه ،ط ٥ ،دار - الثقافة ،بيروت ١٩٧٨ .
٥٢ - تاريخ الادب الاندلسي : عصر الطوائف والمرابطين ،ط ٥ ، دار الثقافة ،بيروت ١٩٧٨ .
٥٣ البير حبيب مطلق - الحركة اللغوية في الاندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ،المكتبه العصرية ،صيدا - بيروت ،١٩٦٧ .
٥٤ د. جابر عصفور - الصورة الفنيه في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ط ٢ ، دار التنوير ،بيروت ،١٩٨٣ .
٥٥ - مفهوم الشعر : دراسة في التراث النقدي ،ط ٢ ،دار التنوير بيروت ،١٩٨٢ .
٥٦ خير الدين الزركلي - الاعلام ،ط ٦ ،دار العلم للملايين ،بيروت ،١٩٨٤ .
٥٧ رضا عبد الجليل الطيار - الدراسات اللغوية في الاندلس منذ مطلع القرن السادس الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري : عصر المرابطين والموحدين ،منشورات وزارة الثقافة والاعلام ،بغداد ،١٩٨٠ .
٥٨ ساطع الحصري - دراسات عن مقدمة ابن خلدون ،طبعة الكشاف بيروت ١٩٤٣ ، والطبعة الموسعة مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٩ د. شوقي ضيف — العصر الجاهلي ط ٨ ،دار المعارف ، القاهرة ،١٩٦٠ .

٦٠ — العصر الاسلامي ،ط ٧ ،دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣ .

٦١ — العصر العباسي الاول ،ط ٢ ،دار المعارف ، القاهرة ،١٩٦٦ .

٦٢ — عصر الدول والامارات ،دار المعارف القاهرة ،١٩٨٠ .

٦٣ — الفن ومذاهبه في الشعر العربي ،ط ٩ ،دار المعارف ، القاهرة ، د . ت .

٦٤ — مدارس النحو العربي ،ط ،دار المعارف ، القاهرة ،د . ت .

٦٥ — البلاغة تطور وتاريخ ،دار المعارف ، القاهرة ،١٩٦٥ .

٦٦ د.طه حسين — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية : تحليل ونقد ،لجنة التأليف والترجمة والنشر ،ترجمة : محمد عنان ،ط ١ ، القاهرة ،١٩٢٥ .

٦٧ د. عبد القادر جغلول — الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ،ط ٣ ،دار الحداثه ،بيروت ١٩٨٢ .

٦٨ د. علي عبد الواحد — علم اللغة ،ط ٢ ،مكتبة النهضه المصرية ، القاهرة ،١٩٤٤ .

— فقه اللغة ،ط ٢ ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،١٩٤٤ .

٦٩ د. فهمي جدعان — اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديثط ٢ ، المؤسسه العربية للدرسات والنشر ،بيروت ،١٩٨١ .

٧٠ — نظرية التراث ودراسات عربية واسلاميه اخرى ،ط ١ ،دارلشروق، عمان ،١٩٨٥ .

٧١ د. محمد زكريا عناني — الموشحات الاندلسية ،ط ١ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، الكويت،١٩٨٠ .

٧٢ د. محمد عابد الجابري — تكوين العقل العربي ،ط ٢ ،دار الطليعة ،بيروت ،١٩٨٥ .

٧٣ — بنية العقل العربي : دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ط ١ ،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٦ .

٧٤ — نحن والتراث : قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي ،ط ٤ ، دار التنوير ،بيروت ،١٩٨٥ .

٧٥ محمد عبد الله عنان — ابن خلدون : حياته وتراثه الفكري ،ط ١ ،مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ،١٩٣٣ .

٧٦ د. محمد عيد — الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون ،عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٧٧ د. ميشال زكريا — الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون ط ١ ، المؤسسه الجامعية للدرسات ،بيروت ،١٩٨٦ .

٧٨ د. ناصيف نصار — الف الواقعي عند ابن خلدون : تفسير تحليلي وجدلي لفكر ابن خلدون في بنيته ومضامينه ،ط ١ ،دار الليعة ،بيروت ١٩٨١ .

٧٩ نسيب نمر — فلسفة الحركة الوطنية التحررية ،دار الرائد العربي ، بيروت ،د . ت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : الدوريات :

٨٠ - اعمال مهرجان ابن خلدون ، المنعقد في القاهرة من ١٢ الى ٦ يناير ١٩٦٢ ،منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

٨١ - اعمال ندوة ابن خلدون ،بمناسة مرور ستة قرون على تحرير المقدمة ،من ١٤ الى ١٧ فبراير ١٩٧٩ ،منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانيـــــة لرياط ، ١٩٧٩ .

٨٢ - اعمال ندوة ابن خلدون والفكر العربي المعاصر ،من ٤ الى٨ نيسان ١٩٨٠ ، منشورات جامعة الدول العربية - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ،تونس ،١٩٨٠ .

٨٣ - دراسات في الادب واللغة ،مجموعة مهداة من اعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة العربية وادابها الى جامعة الكويت ،بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيسها ،منشورات كلية الاداب والتربية ، العام الجامعي ٧٧/٧٦ .

٣٨٤٤٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

After its rediscovery in the Modern Ibn Khaldoun's Al-Muqaddima were brought to focus in the Arab World as well as in the West. Many studies were written about its Philosophical and Sociological perspectives.

But under the influence of the new theories of Linguistics many scholars focused on the Linguistic and literary dimensions of Al-Muqaddima, while other scholars studied Ibn Khalun's Linguistic and literary notions in the context of the general historical study of literary criticism. This on modern Linguistics has blurred Ibn Khaldun's thought and the study of his linguistic and literary notions in the context of literary Criticism has deprived him of a special study that focuses on his linguistic and literary thought and concentrates on his Originality and on the influences of his predecessors on him.

The present study tries to reveal and analyse the Critical perspective in Al-Muqaddima a relating it to other perspectives that are highly studied and highly considered in other studies about Ibn Khaldun. I tried to study Ibn Khaldoun choosing textual analysis as the main tool of literary study. The Resynthesis of the text was combined with a sociological and historical sense.

The study is composed of an introduction, four Chapters and Conclusion. The first Chapter is about Ibn Khaldoun's Biography The second Chapter focuses on the study of his methodology in Al-Muqaddima and the general and special influences that appear in this methodology. The third and fourth Chapters are reserved for the study of liguistic and literary notions in Al-Muqaddima.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit